آية الله جوادي آملي

التوحيد

في القرآن







التـوحـيد

في القــرآن

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م




للطباعة والنشر والتوزيع
بئر العبد - خلف محطة دياب
تلفاكس : (+9611) 27 49 42 _ (+9611) 55 29 00
جوال: (+9613) 80 01 49 ص.ب: 25/91 بيروت - لبنان
E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

آية الله جوادي آملي

التوحيد
في القرآن

دار الصفوة

المقدمة

ان الله الذي خلق عالم الامكان بأسره، عرض آية جماله في خلقه وقد أشار الى مدى شمولية خلقته من ناحية ﴿**الله خالق كل شيء**﴾[1] ، كما أشار الى الجمال المستوعب لعالم الامكان ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾[2] ، لكنه اهتم اهتماما خاصاً بالانسان الذي يتمكن من ان يكون كونا جامعا، حيث أعمل في خلقه يدا جماله وجلاله، وجعله مظهراً لجميع الأسماء الجمالية والجلالية، ودعاه بالرمز المعبر ﴿**خلقت بيدي**﴾[3] الى الجمع بين التنزيه المحض والتشبيه الصرف وقد قال في خلق هكذا موجود في كتابه: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[4] .

وعلى هذا فان تربية الانسان تحتاج الى أفضل علم وأرقى عقيدة، فلذلك حثه تعالى على البحث عن أفضل الكلام، بالآية الكريمة ﴿فبشر

---

(١) سورة الرعد، الآية (١٦).
(٢) سورة السجدة، الآية (٧).
(٣) سورة ص، الآية (٧٥).
(٤) سورة المؤمنون، الآية (١٤).

عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[1] ؛ ثم اعتبر أفضل كلام، كلام المتحدث الذي يكون موحدا في العقيدة والخلق والعمل **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين﴾**[2] .

ان الكلام الذي لا يدعو الى الله، أو لا يكون قائله معتقدا بكلامه، ولا يوافق سلوكه ومنطقه دعوته، لا يستحق الاتباع، لأنه خال من الحسن الفاعلي، وان كان له صورة من الحسن الفعلي.

والكلام الذي لا ينبع من النفس الموحدة، لا يستقر في قلب السامع، ولا ينسجم مع الجمال الانساني الخاص، ويرحل.

ثم أشار الى أحسن الحديث، أي القرآن الكريم **﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾**[3] ، كما أشار الى أبرز متحدث، وهو الرسول الأكرم ﷺ ، وعرّفه الى العالمين؛ **﴿ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾**[4] ، وعرّفه كأول مسلم في عالم الامكان، وهو تعبير لم يطلق على اي داع **﴿قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾**[5] ، **﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾**[6] ، والمقصود من أول، هو التقدم الوجودي للنبي في عالم الخلق في سبق المقام التوحيدي، وفي النتيجة سبق ظهور ولاية الولي، فقد

---

(١) سورة الزمر، الآية (١٧و١٨).
(٢) سورة فصلت، الآية (٣٣).
(٣) سورة الزمر، الآية (٢٣).
(٤) سورة يوسف، الآية (١٠٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية (١٦٢و١٦٣).
(٦) سورة الزمر، الآية (١٢).

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «صدقته وآدم بين الروح والجسد»[١] .

ولو اتبع أحسن الكلام، الذي وضّحت خصوصياته وخصائص قائله، جيدا في كلام الوحي الإلهي، لأصبح الانسان حكيما، ولحصل على سهم من الهداية التكوينية الخاصة، وثمرة ذلك سلوك طريق السلامة والوصول الى المقصد، المصان من الحزن والخوف الباطني والضرر الخارجي ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾[٢] .

كما يكون علاجا لكل الآلام الفكرية والالحادية المادية والشكوك العقائدية، وكذلك الآلام الاخلاقية ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[٣] .

ولما كان الكلام الإلهي، أفضل الكلام، فان هدايته هي أقوى الهدايات ﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[٤] .

وبما أنه وحي إلهي، فهو حق من ناحية المبدأ الفاعلي ويقترن من ناحية المبدأ القابلي بالحقيقة، كما أنه لا يكون بعيدا عن الحق من حيث العلل الوسطية وهو رسول أمين، لذا كان محوراً للحق في كل أطواره الوجودية، وليس للباطل طريق الى حرم أمنه ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[٥] ، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[٦] .

---

(١) امالي المفيد، المجلس الأول والمناسب لذلك في المجلس الثالث عشر.
(٢) سورة المائدة، الآية (١٥و١٦).
(٣) سورة يونس، الآية (٥٧).
(٤) سورة الاسراء، الآية (٩).
(٥) سورة الاسراء، الآية (١٠٥).
(٦) سورة فصلت، الآية (٤٢).

ولأنه يتضمن الحكمة النظرية ويجمع جيدا الحكمة العملية، فقد ذكر بوصفه ايحاء للحكمة ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾[1] .

ونظراً إلى أنه نزل لغرض هداية العالمين، فهو لا يتكلم بلغة جماعة خاصة، بل بلسان مشترك بين جميع الناس، وهو لسان الفطرة، ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[2] .

ومن هنا ينزل المعارف الرفيعة بتمثيل، حتى يستفيد الكل ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾[3] . ان النكتة الكامنة في كلمة ﴿غير ذي عوج﴾، هي أن القرآن الكريم، لا يقبل الانحراف أبداً، وليس فيه اعوجاج، وكل أنواع الانحراف والخطأ، بعيدة عن حريمه، كما هو تعبير ﴿غير ذي زرع﴾ بشأن أرض مكة.

أجل، ربما أن المعلم الحقيقي لهذا الكتاب، هو الله الرحمن ﴿الرحمن * علّم القرآن﴾[4] ورحمته مقرونة بتجنب الفساد، وقلب المذنب، بعيد عن رحمة الله، ولا يمكنه فهم معارف القرآن الذي هو عبارة عن الرحمة الخاصة، فقد أشير في الوحي الإلهي، الى كلا النكتتين، وهما ان التقوى القلبية هي شرط فهم معاني القرآن، والانحراف الفكري عقبة في تلقيها، قال تعالى ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾[5] ، ﴿واتقوا الله ويعلمكم

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٣٩).
(٢) سورة الروم، الآية (٣٠).
(٣) سورة الزمر، الآية (٢٧و٢٨).
(٤) سورة الرحمن، الآية (١و٢).
(٥) سورة الانفال، الآية (٢٩).

الله﴾[1] ، ﴿أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها﴾[2] .

ولما كانت مسائل القرآن الكريم، مقرونة بالبرهان، فهي وزينة، ولأنها منسجمة مع الفطرة فانها تكون سهلة، وعلى هذا، فهي ليست بالفارغة من المعنى، ولا خفيفة، ثم انها ليست بمفروضة وشاقة على الفطرة، لذا أشير الى كلا النكتتين بقوله ﴿أنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلا﴾[3] ، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[4] .

لقد تنزل القرآن بطور التجلي لا التجافي، لذلك فان أصله موجود لدى متكلمه أي الله سبحانه بوجود بسيط وتجرد كامل، في نفس الوقت الذي هو في متناول الجميع، وتلك المرحلة الأصلية، هي بمنزلة (أم الكتاب) وهذه المرحلة الفرعية مرتبطة ومرتكزة على ذلك الأصل. ولا يصل الجميع الى ذلك المقام المحجوب، لأنه ﴿أنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه الا المطهرون﴾[5] .

والرسول الكريم كما انه هو وعاء وجود القرآن النازل، في مرحلة التنزل، فانه قد اتصل به أيضاً في مرحلة المقام المكنون ونال لقائه ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[6] ، لذا فان رسول الله، هو القرآن المعقول، في عالم العقل، والقرآن الممثل، في عالم المثال، والقرآن الناطق في مرحلة الطبيعة، وكذلك الحال بالنسبة لأهل بيته، فهم نور واحد،

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).
(٢) سورة محمد، الآية (٢٤).
(٣) سورة المزمل، الآية (٥).
(٤) سورة القمر، الآية (١٧).
(٥) سورة الواقعة، الآية (٧٧ ـ ٧٩).
(٦) سورة النمل، الآية (٦).

وكلهم مثل أمير المؤمنين عليه السلام، بمنزلة نفس رسول الله.

وبما ان الوحي الإلهي مقرون بميزان الحق والعقل، فان العقلاء الذين لديهم سهم من ذلك الميزان قد أدركوا حقيقة القرآن، اما الجهلة، فيظنونه أسطورة **﴿ويرى الذين اوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد﴾**[1].

ولما كانت جميع آيات القرآن الكريم، متوافقة ومتحدة، ولكل واحدة منها ارتباط بالأخرى، وتهيّىء أرضية ظهورها، لذا كانت متشابهة ومثاني، ونتيجة الانشاء والانعطاف الخاص الذي يوجد بينها لا يمكن بحث أي منها بمعزل عن المجموع **﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾**.

وقد ذكر مثالا للمستويات المتوسطة، بهدف التعرف على رفعة القرآن الكريم، **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾**[2]. ولا يقتصر الأمر على الجبل في عدم قدرته على تحمله، بل ان السماوات والأرض وجميع المرتفعات الجبلية، عاجزة عن حمله، **﴿انّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا﴾**[3]، وفي اليوم الذي تظهر فيه حقيقة القرآن، يطوى البساط الواسع للسماوات، ويتبدل النظام الموجود الى نظام آخر، لأنه على حد تعبير القرآن الناطق، أمير المؤمنين عليه السلام، «وبحرا لا يدرك قعره»[4].

---

(١) سورة سبأ، الآية (٦).
(٢) سورة الحشر، الآية (٢١).
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٧٢).
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣١٥.

وبما ان مبدأ تنزل القرآن، هو الله الأكرم، فان مجاري تجليه هي الكرامة ودوره هو تربية الكرماء، لأنه هكذا بيّن مبدئه الأولي قال: ﴿**اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم**﴾[1]، وقال بشأن علله الوسطية ومجاري تجلّيه: ﴿**في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة**﴾[2]، ﴿**انه لقول رسول كريم**﴾[3]، ويتفرع على ذلك قهرا أن يكون المتربون هنا، أناساً كرماء.

ولما كان كلاما قاطعا وكلاما جادا ومنزها من المزاح والهزل وأمثال ذلك، قال تعالى: ﴿**انه لقول فصل * وما هو بالهزل**﴾[4].

وهو قيم للمجتمعات البشرية، لأنه يقف بشكل كامل، امام كل عقيدة، وينقذ اتباعه الصادقين من كل اعوجاج، ويدعو الناس الى القيام بالقسط ﴿**رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة**﴾[5].

ومن حيث انه مظهر جمال الحق، فهو يعين العالم العامل على مشاهدة المتكلم بذلك، بعين البصيرة، ويعطيه قدرة اللقاء القلبي، ورغم ان الجاهلين او العلماء غير العاملين لا يتمتعون بشيء من ذلك الشهود، فانه يعتبر وعاء تجلي الحق، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير ان يكونوا رأوه»[6]، وقال الامام الصادق عليه السلام: «لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا

---

(١) سورة العلق، الآية (٣ ـ ٥).
(٢) سورة عبس، الآية (١٣ ـ ١٦).
(٣) سورة التكوير، الآية (١٩).
(٤) سورة الطارق، الآية (١٣و١٤).
(٥) سورة البنية، الآية (٢و٣).
(٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٠٤.

يبصرون»[1] .

وبما ان نزول القرآن كان بنحو التجلي وليس التجافي، فان مرتبته العالية هي عند الله سبحانه في نفس الوقت الذي تكون فيه مرتبته النازلة هي في متناول الناس، والارتباط بين المراتب لا ينفك وبامكان الانسان الذي يتعلم مرتبة منه، جعلها سلّما لمرتبة أعلى.

لذا أشير الى النكتة الأولى، وهي ان مراتب القرآن مرتبطة معا: «اني تارك فيكم الثقلين احدهما أكبر من الآخر كتاب الله تبارك وتعالى حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي»[2] ، ذلك لأن الحبل الممدود من سماء الغيب الى أرض الشهادة، يوجد بين مراتبه ارتباطا لا يقبل الزوال، كما أشير الى النكتة الثانية، وهي ان كل مرتبة هي لفئة خاصة ولا يبلغ الجميع كل معارفه فقد روي عن الامام الحسين بن علي عليه السلام وكذلك الامام الصادق عليه السلام ، قولهما: «كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء، على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والاشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء»[3] ، وكل انسان يحمل عبء أمانة القرآن، بمقدار تحمله، وكانت العترة الطاهرة، وهم العدل الدائمي للقرآن الكريم، يعلمون كل شخص بمقدار طاقته العلمية.

ولما كان الامام الصادق عليه السلام يسأل عن تفسير ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم﴾[4] ، كان الامام يفسرها لعبدالله بن سنان بشكل، ولذريح

---

(١) البحار الجزء ٩٢، ص ١٠٧.
(٢) البحار، الجزء ٩٢، ص ١٣.
(٣) البحار، الجزء ٩٢، ص ٢٠و١٠٣.
(٤) سورة الحج، الآية (٢٩).

المحاربي بشكل آخر، وحين سئل الامام عليه السلام عن سر هذا التباين قال بأن كليهما صحيح، ولكن (ومن يحتمل ما يحتمل ذريح)[1] ، أي من مثل ذريح لديه تحمل لأسرار القرآن. وبناء على هذا، فان البعض يحملون عبء أمانة عبارة القرآن، وبعض آخر يحملون عبء أمانة اشارات القرآن، وجماعة تحمل عبء أمانة لطائفه، وعدد قليل يحملون عبء أمانة حقائقه.

وعندما سأل جابر، الامام الباقر عليه السلام، عن تفسير آية قرآنية، أجابه بشكل، وسأله مرة أخرى عن تفسير نفس الآية، فأجابه الامام عليه السلام بشكل آخر، فقال جابر، لقد اجبتم سابقاً بشكل آخر، فقال له الامام: «يا جابر ان للقرآن بطنا وللبطن بطن وله ظهر وللظهر ظهر، يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، ان الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل متصرف على وجوه»[2] .

وإذا وُفق الانسان في الصعود بالاستعانة بالمراتب النازلة، فانه يحشر مع الملائكة الكرام، رسل وحي الله، حيث قال الامام الصادق عليه السلام: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة»[3] كما انه يُعد أفضل أفراد أمة النبي، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل»[4] .

والمقصود من حفظ القرآن، هو الحفظ القلبي له، الذي لا يمكن من دون المعرفة الصحيحة والعمل الصحيح استناداً على تلك المعرفة، والقلب

---

(١) البحار، الجزء ٩٢، ص ٨٣و٨٤.
(٢) البحار، ج٩٢، ص ٩١ و٩٤ و٩٥ و١١٠ و١١١.
(٣) البحار، ج ٩٢، ص ١٧٧.
(٤) البحار، ج ٩٢، ص ١٧٧.

الذي يكون حافظا للقرآن بهذا الشكل، يكون بدوره وعاء للقرآن، والقلب الذي يكون وعاء للقرآن، لا يعذب ابدا، حيث قال رسول الله ﷺ: «لا يعذب الله قلبا وعى القرآن»[1].

ان لمعارف القرآن الكريم، درجات وافرة، لذا يجدر ان يخدم الانسان، القرآن بهمة عالية، حتى يتعرف على مخازنه واحدا تلو الآخر، فقد قال الامام السجاد عليه السلام: «آيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة فينبغي لك ان تنظر فيها»[2].

وبما ان القرآن الكريم، نزل لغرض تربية فطرة الناس، وهذه الفطرة لا تتغير، والله سبحانه المتكلم بهذا الكلام السماوي، مطلع على حقيقة الفطرة وصيانتها من كل تبدل؛ فقد نظم مضمونها بالشكل الذي يكون فيه حديثا وجديدا دائما وقابلا للعرض، كما ان المعارف العقلية والكلية، المتجلية بصورة آيات إلهية، مصانة من الاندثار والقدم، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام لماذا لا يحصل للقرآن من التكرار والنشر والدرس، الا التجدد؟ فقال: «لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض الى يوم القيامة»[3].

وأحياناً تبين ديمومة القرآن، بديمومة الشمس والقمر، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس حيث قال الامام الباقر عليه السلام: «يجري كما يجري الشمس والقمر»[4]، اي أن القرآن ينور حياة الناس، كما هو حال الشمس

(١) البحار، ج ٩٢، ص ١٧٨.
(٢) البحار، ج ٩٢ ص ٢١٦.
(٣) البحار، ج ٩٢، ص ١٥.
(٤) البحار، ج ٩٢، ص ٩٤و٩٧.

والقمر.

والقرآن الكريم عامل في تكامل الانسان، ولذا ليست ثمة حاجة الى عامل آخر، لأن كمال أي عامل آخر، يؤمن على ضوء الوحي الإلهي.

وعلى هذا، فالقرآن، ليس بساط للطعام ممدود أمام الناس، فيأتي كل انسان بطعامه الذي طهاه، ويتناوله على بساط القرآن، ويلصق ذلك بالقرآن، وإنما القرآن، هو طعام مطبوخ وجاهز، وليس ببساط طعام، لذا ذكر النبي الكريم ﷺ، القرآن بوصفه مأدبة: «القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم»[1]، وهكذا لا يمكن فرض الآراء الجاهزة على القرآن، وهذا هو التفسير بالرأي، وهو من أسوأ طرق معرفة القرآن الكريم، فقد روي عن رسول الله ﷺ، قوله بأن الله سبحانه قال: «ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي»[2]، كما أن رسول الله ﷺ قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد خطأ ومن قال في القرآن بغير ما علم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار»[3]، وقد ورد عن الامام الصادق قوله بأن الشخص الذي يفسر القرآن برأيه، لا يؤجر في حالة الصواب، وفي حالة الخطأ، مسؤول عن ذنبه[4]. وهذا هو في الحقيقة عدول عن القرآن، الذي قد قال رسول الله ﷺ عنه: «وما عدل أحد عن القرآن الا الى النار»[5].

وبما أن القرآن نور، فليس فيه أي ابهام، كي يتذرع شخص بالابهام في مضمونه، فيتجه الى الاستعانة بنتاج فكره، ليخلص القرآن من الظلمة

---

(١) البحار، ج ٩٢، ص ١٩.
(٢) البحار، ج ٩٢ ص ١٠٧
(٣) البحار، ج ٩٢ ص ١١١.
(٤) البحار، ج ٩٢ ص ١١٠.
(٥) البحار، ج ٩٢، ص ٢٦.

والابهام، فقد روي عن الامام الباقر عليه السلام قوله: «فمن زعم ان كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك»[1]، وإنما جميع الحقائق وردت في القرآن الكريم، والذي يحول دون المعرفة الكاملة له، هي ظلام أفكار الناس العاديين، حيث قال الامام الصادق عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان الا وله أصل في كتاب الله لكن لا تبلغه عقول الرجال»[2]، لأن القرآن وصف بـ(جوامع الكلم). وليس بالامكان ان يذكر شيء في لغة الوحي بوصفه (جامع)، وهو لا يشتمل على جميع أصول ومعارف السعادة البشرية، وقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «وأعطيت جوامع الكلم»، وسئل الامام الباقر عليه السلام: (ما جوامع الكلم؟)، قال: (القرآن)[3].

من ناحية أخرى، وصف الله سبحانه، القرآن بـ أنه (نور) فقال: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[4] ان أفضل طريق لفهم القرآن، هو تهذيب النفس من التعلقات غير الإلهية، وتجنب كل ألوان الفساد واداء كل الأوامر التي أصدرها الوحي الإلهي، لأن مشاهدة الجمال النوراني، لا يمكن، اذا كان النظر ضعيفاً ومسدوداً، لذا فالسابقون الذين نالوا توفيق تدبر القرآن، كانت سيرتهم في تعلم القرآن بهذا الشكل، وهي أنهم يأخذون عشر آيات من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وما لم يتعلموا المعارف العلمية والتعليمات العملية ذات العلاقة بتلك الآيات العشر، لا ينتقلون الى آيات أخرى، «انهم كانوا يأخذون من رسول الله صلى الله عليه وآله عشر آيات فلا يأخذون في العشر الآخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم

---

(١) البحار، ج ٩٢، ص ٩٠.
(٢) البحار، ج ٩١ ص ١٠٠.
(٣) البحار، ج٩٢ ص ١٤و١٥.
(٤) سورة النساء، الآية (١٧٤).

العمل»[1] .

وكانت بارقة بعض الآيات تؤثر الى درجة، انها تعتبر كحاصل عام وشامل، فمثلاً، جاء رجل الى النبي ﷺ حتى يتعلم القرآن، وحين وصل الى الآية **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾**[2] ، قال: هذا الكلام يكفيني، وذهب، فقال النبي ﷺ (انصرف الرجل وهو فقيه)[3] ، وهنا تتضح نكتة أخرى وهي ان الفقه ليس معرفة الاحكام فقط.

وبما ان القرآن تنبه (تنبيه) إلهي، فالذي لا تتوفر فيه الشروط العلمية أو العملية لتعلم القرآن الكريم، ورأى مسألة من مسائله المحكمة، ضعيفة بزعمه، فليتهم فكره، وليس القرآن المجيد، وقد قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «واتهموا عليه آراءكم»[4] .

وبما ان القرآن مرشد الى الجنة، فان من يجعله أمامه يصل الى الجنة، ومن يجعله خلفه يسوقه الى النار، وفي هذا قال الرسول الأكرم ﷺ: «من جعله أمامه قاده الى الجنة ومن جعله خلفه ساقه الى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل»[5] .

ومن هنا، فان درجات الجنة هي بعدد آيات القرآن، لأن كل مسألة من مسائله مرتبطة بمقام من مقامات الجنة، والشخص الذي يصل الى جميع

---

(١) البحار، ج٩٢، ص ١٠٦.
(٢) سورة الزلزلة، الآية (٧و٨).
(٣) البحار، ج٩٢، ص ١٠٧.
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح، صفحة ٢٥٢.
(٥) البحار، ج٩٢، ص ١٧.

درجات الجنة، وينتفع من مرحلة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[1] حتى مرحلة ﴿وادخلي جنتي﴾[2]، هو الذي يعرف جميع معارف القرآن ويعمل بكل أوامره، لأن في مقابل كل آية، تظهر درجة في الجنة، حيث قال رسول الله ﷺ: «عدد درج الجنة عدد آي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له اقرأ وارق لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة»[3].

ان بلوغ كل معارف القرآن، يتيسر للانسان الكامل الذي ان لم تكن نشأته الوجودية، مقدمة على القرآن، فهي مساوية له، على الأقل، حتى يكون جامعا وحافظا لكل المسائل، وهذا الرداء، لا يلائم الا الهيكل الرفيع لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام لأنه وإن كان لسائر الأولياء والأنبياء، سهم من حقيقة القرآن، بيد أن الاكتناه بكل حقائقه، هو من نصيب الشخص الذي ليس لديه تأخر وجودي عن حقيقة القرآن، إذ أن جميع حقائقه هي من ظهورات الله سبحانه، وليست خارج دائرة الظهور والتجلي.

واذا كان الانسان الكامل، اول ظهور للحق، وكان مظهراً للاسم الأعظم لله تعالى فانه يتمكن من الاحاطة بجميع الحقائق، كما ان الانسان الكامل، الذي اعتبر بمنزلة أول تجلٍ وظهورٍ للحق، من المؤكد انه يتمكن من ان يبلغ معارف القرآن ويكون هو بنفسه قرآناً معقولاً ومتمثلاً ومجسدا. وليس في القرآن شيء لا يصل الى كنهه ذلك الانسان الكامل.

وقد ورد في الروايات كثيراً ان معرفة كل القرآن، هي لدى أهل البيت عليهم السلام، ولا يمكن لشخص ان يستفيد من القرآن بشكل صحيح وكامل

---

(١) سورة البروج، الآية (١١).
(٢) سورة الفجر، الآية (٣٠).
(٣) البحار، ج٩٢، ص ٢٢.

من دون الاستعانة بتلك الذوات المقدسة، وإذا اعتبر القرآن، معزولاً عن أهل البيت عليهم السلام، فذلك كاعتبار القرآن بمعزل عن القرآن.

ورد عن الامام الباقر عليه السلام «ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الراسخين في العلم فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل وما كان الله ينزل عليه شيئاً لم يعلمه التأويل وأوصياؤه من بعد يعلمونه كله»[1].

وليس المقصود من معية أهل البيت للقرآن الكريم. مجرد المعية الطبيعية، بل المراد أنهم معا في جميع العوالم الوجودية، ولا يفترقا أبداً عن بعضهما البعض، فكلاهما يقومان على قاعدة واحدة ويرتكزان على أساس واحد، لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عز وجل ما ان تمسكتم به لم تضلوا سبب منه بيد الله وسبب بأيديكم... ان اللطيف الخبير قد نبأني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كاصبعي هاتين - وجمع بين سبابتيه - ولا أقول كهاتين - وجمع بين سبابته والوسطى - فتفضل هذه على هذه»[2].

والمراد من معية القرآن والعترة، كما أشير، وكما ذكر بعض العلماء، معية حقيقة القرآن في كل موطن من مواطنه الوجودية مع حقيقة الامام عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، «ان القرآن معهم في قلوبهم في الدنيا فاذا صاروا الى عند الله عز وجل كان معهم ويوم القيامة يردون الحوض وهو معهم»[3].

ان هذه الجمل قد كتبت بوصفها تبركا بذكر عظمة القرآن الكريم، واما البحث في أصل التفسير وتفسير القرآن بالقرآن، والتفسير الموضوعي،

---

(١) البحار، ج٩٢، ص ٨٠ و٨٥ و٨٦ و٨٨ و٨٩.
(٢) البحار، ج٩٢، ص ١٠٢و١٠٣.
(٣) البحار، ج٩٢، ص ١٠٦.

فيطرح في مقال آخر.

هذا الكتاب، هو عبارة عن محاضرات تفسيرية بدأت في تلفزيون الجمهورية الاسلامية في ايران منذ سنة ١٣٦٠، وقام مركز رجاء للنشر الثقافي باستخراجها من الأشرطة وطبعها، نأمل ان يعرّف الله سبحانه، الجميع بمعارف القرآن الكريم.

عبدالله جوادي الاملي
قم ـ ١٩ شهريور ١٣٦٣

الدرس الاول

أسلوب تفسير القرآن

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

يدور بحثنا الذي سنتعرض له فعلاً حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وعلى هذا فلا بد لنا أولاً من معرفة معنى التفسير، وبعد ذلك نبحث في أنه هل يمكن تفسير القرآن الكريم بنمط معيّن وأسلوب خاصّ؟ وعلى فرض وجود هذا الأسلوب الخاص، فأي أسلوب هو؟ وإذا لم تكن هناك حاجة الى أسلوب خاصّ فلماذا؟

التفسير هو التوضيح ورفع الحجاب (النقاط المبهمة والغامضة) عن وجه المطلب.

يبرز لنا القرآن الكريم أسلوباً خاصاً يمكن من خلاله تحقيق محتوياته ومضامينه وتعقلها، وهذا الأسلوب هو عبارة عن الاطّلاع على القرآن بواسطة نفس القرآن، فهو لا يحتاج الى شيء من الأمور الخارجة عنه حتى

تتوسط في توضيح مقاصده، ولا يحتاج ـ سوى نفسه ـ الى شيء ليظهر محتوياته، ولا يمكن حمل شيء آخر عليه من خارجه بدعوى انه موافق أو مبيّن له، فهو في غنًى عن العامل الخارجي في توضيح مقاصده، كما أنه آب عنه ولا يرتضيه في مقام ابداء مفاهيمه.

والسر في ذلك ـ على النحو الذي يمكن استفادته من نفس القرآن الكريم ـ يكمن في أن القرآن كتاب الله، كما ان عالم الامكان والخلقة كتاب الله؛ فكما ان عالم الخلق والايجاد والامكان غير محتاج الى الغير بل يقصر اتكاؤه على الله تعالى، ولا يمكن ان يكون محكوماً لأيّ قانون من القوانين، بل تؤخذ كل القوانين منه، ولا يحتاج عالم الوجود الى تقنيات الآخرين، ولا تحكم هذه التقنيات على عالم الوجود والخلق؛ فكذلك القرآن الذي هو كلام الله وكتابه فهو لا يحتاج في بيانه وتوضيحه الى علم خارجي، كما انه لا يمكن حمل العلوم والقوانين الخارجية على القرآن وتنزيل آياته وتعاليمه على مؤدّاها.

أما السر في أن القرآن غير محتاج الى شيء آخر في التفسير والتوضيح، فهو كامن في أن الله تعالى قد عرّف القرآن بعنوان انه نور، إذ يقول بأننا قد أرسلنا اليكم نوراً، وان هذا الكتاب نور وظاهر.

ومن خواص النور وامتيازاته انه ظاهر في نفسه، وانه مظهر للأشياء الأخرى أيضاً، وانه لا يحتاج الى الغير كذلك، يعني انه ظاهر ذاتاً، ومظهر لغيره، وغني عنه. وذلك لأن رؤية أي شيء إنما تكون بواسطة النور، لكن النور لا يرى بواسطة شيء آخر.

عندما يعرّف الله تعالى القرآن الكريم تبياناً لكل شيء **﴿ونزّلنا عليك**

الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[1] أي ان كل ما له دور في سعادة البشر فالقرآن مبيّن له. . . وعندما يكون القرآن مبيّناً لكل العلوم والمعارف الضرورية فانه يكون ـ بالضرورة ـ بيّناً بنفسه، إذ أنه لو لم يكن بيّناً ظاهراً في نفسه فسوف لن يكون مبيّناً للعلوم والمعارف الأخرى؛ وذلك لأنه من غير الممكن أن يكون شيء مبيّناً للعلوم والمعارف الأخرى دون ان يكون بيّناً في نفسه، ويكون محتاجاً في التبيين الى الغير.

وأيضاً فإن الله تعالى قد عرّف القرآن الكريم بأنه شفاء لما في القلوب والأفكار، قال تعالى: **﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**[2] فإذا كان القرآن شفاءً فإنّه إذن عارٍ من المرض تماماً، كما ان المراجع للقرآن الكريم لا يعود بدون علاج وعافية، بل ان القرآن يعالجه حقيقة. فإذا كان الشيء بنفسه شفاء فذلك يعني انه منزّه عن الأمراض، وأنه يعالج كل مريض؛ لأن المريض إذا عوفي فإنه يعافى بالشفاء، وإذا طلب السلامة فإنه يجدها به، والقرآن ليس دواء فحسب، وإنما هو شفاء. . !

أما الدواء فيستعمل للحصول على الشفاء، إلّا أنه قد يستعمل دون الحصول عليه، وذلك لأن الدواء ليس بشفاء ذاتاً. . ولكن أي مريض يراجع القرآن ويفهمه ويقبله ويعمل به يكون قد حصل على الشفاء، لأن هذا النور هو بذاته شفاء، إلّا إذا فرض عدم مراجعة المريض للقرآن، أو أنه راجعه ولم يقبل به، أو أنه قبله ولم يعمل به، وأمثال ذلك.

وبناءً على هذا فبما أن الجهل نوع من أنواع المرض، فلا جهل في حرم القرآن؛ وبما أن الاشتباه والتناقض والاختلاف وعدم الانسجام ظلمة،

---

(١) سورة النحل، الآية (٨٩).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٨٢).

فلا اشتباه ولا تناقض ولا اختلاف في القرآن، وبما أن القرآن نور فلا ابهام ولا تعقيد ولا اغلاق في حرم القرآن. فلا مرض في ناحية الشفاء، ولا سبيل للظلمة الى منزل النور.

وأيضاً فإن الله تعالى يرى القرآن الكريم ـ كسائر الكتب السماوية الموحاة الى الأنبياء عليهم السلام ـ ميزاناً، والميزان هو وسيلة الوزن، فاننا نشخّص ثقل بضاعة ما أو نقصانها وصحة الوزن والموزون بواسطة الميزان، ولكننا لا نشخّص الميزان بشيء آخر، بل ان نفس عامل التوزين ـ بما أنه صحيح ذاتاً ـ يستلزم صحة علامة الميزان.

فإذا أردنا أن نعرف ان هذه العقيدة ـ مثلاً ـ حقّة أو لا؟ فإننا نزنها بالقرآن، وإذا أردنا أن نعرف ان ذلك القانون المتعلق بالعلوم الانسانية حقّ أو لا؟ أو أردنا معرفة سلامة تلك الأخلاق وعدمها، أو أردنا أن نعرف ان ذلك المجتمع حيّ أو لا؟ كل ذلك نزنه بالقرآن، لأن القرآن ميزان ووسيلة لتشخيص ووزن مثل هذه الأمور.

وبناءً على هذه الأوصاف التي ذكرها المتكلم ـ وهو الله تعالى ـ لكلامه ـ وهو القرآن الكريم ـ يظهر ان تفسير القرآن غير محتاج إلى شيء خارج عن القرآن، والحصول على القرآن غير محتاج الى أن نسلك طرقاً أخرى، ورؤية القرآن لا تفتقر الى نور آخر؛ لأن كل ظهور لا بد وأن ينتهي الى ما هو ظاهر بالذات وكل وزن وموزون لا بد أن ينتهي إلى ميزان.. والقرآن ميزان لكل العلوم والعقائد والمعارف.. القرآن شفاء من كل جهل وشك وانحراف فكري.. القرآن بيان لكل أمر مبهم أو مشكل. إلاّ ان الشيء المهم هو وجود عين بصيرة يتمكن الانسان بواسطتها رؤية نور القرآن، لأن النور إنما تراه العين البصيرة، ومن خلال النور ترى تلك العين البصيرة الأمور الأخرى.

فالنفس التي تدرك بأنها مريضة، وأن هذا المرض لا بدّ من معالجته، وأن القرآن هو الشفاء لها، ثم تراجعه وتعمل به فسوف تحصل على السلامة والعافية.

والذي يتمكن من الوصول الى القرآن ورؤيته هو البصير فحسب، وقد شخص القرآن الكريم هذه النقطة، إذ انه يقول بأن الانسان إذا تدبّر فهم، لأن هذا الكتاب ليس مبهماً.

فالتدبر لازم، والذي يمنع عن التدبّر هو انسداد القلب وانغلاقه، فذو القلب المغلق ليس من أهل التدبّر والتفكّر، قال تعالى: **﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها﴾**[1] .

وبهذا يظهر بأن القلب المقفل كالعين المغلقة، لا ترى النور من جهة، ولا تشاهد بواسطته أشياء أخرى من جهة ثانية.

يرى القرآن الكريم ضرورة التحلي بقلب منفتح وصدر منشرح لفهم آياته الكريمة، وبما أن القرآن خالٍ عن التعقيد فينبغي أن يكون المستفيد منه متحلياً بقلبٍ منفتح لكي يمكنه تقبّله، وبما ان القرآن نور من كل الجهات فقد ذكر القرآن لتوضيح شروط القبول والوصول اليه هذه الآية:

﴿في كتاب مكنون * لا يمسه إلاّ المطهّرون﴾[2] .

فإذا أراد أحد أن يتصل بظاهر القرآن لكي يحصل منه على فائدة، فعليه أن يحصل على ظاهر طاهر ونقي، إذ لا يمكنه بدون الطهارة الاتصال بظاهر القرآن ومسّه، بل لا يمكنه وضع القرآن على شفتيه من أجل تقبيله، فيجب

---

(١) سورة محمد، الآية (٢٤).

(٢) سورة الواقعة، الآية (٧٨و٧٩).

على الانسان أن يكون طاهراً حتى يمكنه مسّ القرآن.

أما معنى ومحتوى وتفسير وروح القرآن فإنه ﴿لا يمسّه إلاّ المطهّرون﴾ فلا يتمكن الانسان من ادراك معنى القرآن أو باطنه أو محتواه العميق الدقيق إلاّ إذا كان طاهر النفس والباطن، فيجب عليه التحلي بما يراه القرآن علامة لطهارة القلب والباطن، وان يدفع عن نفسه كل ما يراه باعثاً على تلوّث النفس والباطن.

فإذا كانت الأخلاق الرذيلة والجمود والانحراف الفكري والاعتقادات غير المستندة الى دليل رجساً وتلوّثاً في نظر القرآن، فإن الشخص الحامل لهذه الأدران لا يمكنه الوصول الى معنى القرآن ومحتواه ﴿لا يمسّه إلاّ المطهّرون﴾، وقد ذكر لنا القرآن نموذجاً للأفراد المطهرين حيث يقول بأن هناك طائفة من الناس البررة الأتقياء مطهّرون ومنزّهون عن كل رجس وتلوّث: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[1].

فالله تعالى قد طهّر أهل البيت عليهم السلام من كلّ رجس ونزّههم عن كل شائبة، فهؤلاء المطهرون عليهم السلام بامكانهم الاتصال بمحتوى القرآن، لأنه تعالى قد ذكر في سورة الواقعة انه ﴿لا يمسّه إلاّ المطهرون﴾ وقال في سورة الأحزاب هناك جماعة (النبي وعلي بن أبي طالب والأئمة عليهم السلام) مطهرون، فمن هنا يعلم ان هؤلاء عليهم السلام يتمكنون من الاتصال بروح القرآن ومن الارتباط بحقيقته ومن مسّ محتواه، وأن يكونوا بأنفسهم قرآناً متحركاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «فتجلّى لهم سبحانه في

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).

كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[1] .

فالله تعالى قد تجلى بوضوح في كلامه المسمى بالقرآن، آيات الله، العلائم الدالة على الله، علامات الحقيقة، حقيقة الحق ظهرت وتجلت في القرآن، ولكن (من غير أن يكونوا قد رأوه) أي ولكن هؤلاء لا يبصرون ولا يرون.

وبهذا يعلم بأن الآيات الإلهية هي مظاهر للحق، هي علامات علم وحياة وقدرة الحق، وإنها بيّنة وواضحة، غاية الأمر أنها تحتاج الى بصيرة حتى ترى، تحتاج الى نفس حية حتى تنظر، تحتاج الى قلب طاهر حتى يمكن مسّها، تحتاج الى روح نزيهة حتى تعثر عليها (ولكنهم لا يبصرون).

وقال عليه السلام : ـ أيضاً ـ ان الأمور اللازمة والضرورية مما يرتبط منها بحياة البشر موجودة في القرآن، فاستنطقوه ولم ينطق، ولكن أنا الذي أنطق عنه، أنا الذي أجعله ينطق، أنا أبلغكم كلامه «ولكن أخبركم عنه»[2] .

ويستفاد من ذلك أن الشخص المطهّر يمكنه الاستفادة من القرآن استفادة وافية، وان من كانت روحه غير مغلقة وكانت عين قلبه بصيرة يمكنه الاستمداد من القرآن، وان الذي لم تجعل الذنوب قفلا على قلبه باستطاعته أن يحصل على رصيد من القرآن.

وبما ان القرآن بمقتضى الحديث النبوي الشريف (مأدبة الله) أي غذاء الله المهيّأ، فإن الجميع مدعوون للجلوس قرب تلك المائدة لتناول الغذاء منها، لا لأن يأتي كلّ شخص بطعامه ويتناوله على مائدة القرآن. . .

---

(١) نهج البلاغة لصبحي الصالح، الخطبة ١٤٧.
(٢) نهج البلاغة لصبحي الصالح، الخطبة ١٠٨.

فالانسان ضيف على مائدة القرآن، ولم يدع على أن يأتي بطعامه ويجلس على مائدة القرآن ويتناول ذلك الطعام، لم يدع على ان يأتي بأفكاره واستنتاجاته ومفاهيمه التي حصل عليها من هنا وهناك ويضعها على مائدة القرآن ويتغذى منها بعنوان أنها مائدة القرآن، فذلك أمر غير صحيح. إذ أن هذه المائدة ليست خالية بل هي عامرة، وكل امرىء بإمكانه أن يتغذى منها بمقدار حاجته واستعداده، وإلاّ فلو أتى شخص حاملاً لعقائد وأفكار خاصة فإنه لم يستفد من القرآن قط، حيث إنه أتى بالعقائد والأفكار المهيّأة سلفاً، وسيذهب بنفس تلك العقائد والأفكار.

إنّ جميع الآيات القرآنية بمرتبة من الانسجام، والتلاؤم والترابط بحيث إنها بمنزلة الكلام الواحد، ومع ان عددها يربو على الست آلاف آية، إلاّ أنها بأسرها بحكم الكلام الواحد، فماضي القرآن يؤيد المستقبل والمستقبل يقوم على أساس الماضي، فلا يوجد أي اختلاف أو تناقض في القرآن.

وكما أنه لا يوجد في عالم الخلقة والايجاد والتكوين أي نوع من أنواع عدم الانسجام أو الفطور ﴿هل ترى من فطور﴾[1] فلا يوجد الانسجام والتلاؤم والوحدة التي تستغرق كل العالم وتستوعبه الا حقيقة واحدة تشير الى أنّ الله تعالى خالق هذه الحقيقة، فكذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم لا يوجد فيه شيء من الاختلاف أو عدم الانسجام وعدم التلاؤم والترابط. إذ إنه تعالى قد قال في مسألة الكون والايجاد انه كلما توغلتم في هذا العالم وسبرتم أغواره فإنكم ستحصلون على المزيد من الاحاطة بالانسجام والترابط القائم بين الموجودات ﴿هل ترى من

(١) سورة الملك، الآية (٣).

فطور﴾[1] .

وكذلك ذكر سبحانه في حق القرآن الكريم إذ يقول: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[2] .

والسرّ في احتوائه على الاختلاف على فرض كونه بشري المنشأ، وهو ما يعتري البشر من تبديل الآراء وتغيّرها أو الغفلة عن بعض أبعاد الأمور، ولذا فإن الانسان كلما تقدم به العمر صار أكثر إحاطة ونضوجاً، واتّسمت كلماته وآراؤه بالإحكام والمتانة والاتزان. ولكن بما أن منشيء هذا الكلام هو الله تعالى فلا سبيل الى شيء من هذه النقائص الى حرم كبريائه، فان من صفات الله تعالى السلبية انه **﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾** فالله محيط بكل العلوم، وعلمه مطلق غير محدود، ولا سبيل للنسيان الى ساحة علمه، وهذه العلوم قد أنزلها بصورة قرآن على قلب النبي ﷺ المطهر **﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾**[3] .

فالنتيجة ان القرآن الكريم بأسره يتصف بالانسجام والترابط، وهذا الانسجام هو الباعث على ازدياد الآية وضوحاً في ظلّ الآية الأخرى، وعلى ان تكون إحدى الآيات مبيّنة لآية أخرى، وعلى ان يكون بعض الآيات موضحاً لبعض الآيات الأخرى، مما قد تبدو بحسب الفكر البدائي للانسان انها غامضة ومبهمة للوهلة الأولى.

والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم يبتنى على هذا الأساس ويقوم عليه، فالمواضيع التي يتطرّق اليها القرآن ويطرحها في سور متعددة وآيات

---

(١) سورة الملك، الآية (٣).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٣) سورة الشعراء، الآية (١٩٣و١٩٤).

مختلفة يكون ناظراً في كل موطن من تلك المواطن الى بعد من أبعاد الموضوع، فإذا تتبعنا تلك الآيات واستقصينا المواطن كلها وجمعناها الى بعضها لوجدناه يبيّن موضوعاً واحداً بتمام أبعاده وحينئذٍ يصير الموضوع كاملاً متكاملاً.

لقد ذكر الله تعالى رسوله ﷺ بعنوان مفسّر وأول المفسرين، وعرفه بين الملأ بعنوان أول معلم، ـ وباصطلاح أهل المعنى: المعلم الأول هو رسول الله ﷺ ـ وذلك حين يقول تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾**[1].

أي أننا أنزلنا إليك الكتاب لتبينه للناس، لا لأجل ان هذا الكتاب ليس بيّناً بالذات، لا لأجل أن يوضّح النكات المبهمة والنقاط المعقدة والمطالب الخفية في القرآن، بل لكي تنوّر أعين الناس وتجعلها بصيرة، لكي ترشدهم الى طريق الاهتداء الى القرآن، لكي تأخذ بأيديهم وتهديهم الى سبيل الوصول الى القرآن، وتقول لهم شاهدوا هذا النور، لأجل هذا نزلنا عليك الكتاب، لا لأجل أن توضحه، إذ انه هو في نفسه واضح.

وأنت أيّها النبيّ ـ أيضاً ـ قد تنوّرت بنور بالقرآن، لا أنك تضع من تلقاء نفسك أصولاً وأسساً وتفسّر عليها كلام الله، أنت وكلام الله كلاكما نور، أنت ذلك النور المتحرك الناطق، والقرآن هو النور الصامت.

ان الدور القيادي للنبي ﷺ يتمثّل في رفع الحجب حتى يصبح الناس أولي أبصار، أي ان دورك أيها النبيّ ان ترفع الإبهام عن قلوب الناس، ان تزيل تلك الأفكار المنحرفة عن أذهان الناس، أن تدفع تلك الشكوك

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

والوساوس عن نفوس الناس، فإذا صقلت أرواحهم بحيث صارت كالمرآة الصافية، فعندئذٍ يشرق نور القرآن ويتمكنون من الرؤية.

فدور المعلم الأول (النبي الأكرم)، وأهل بيته عليهم السلام، والمفسرين المسلمين لا يكمن في رفع الحجاب عن وجه القرآن، إذ إن القرآن نور وليس مستوراً، بل يكمن في رفع الحجاب عن قلوب وأفكار الناس المنحرفين، عن قلوب ذوي الأفكار المظلمة، عن ذوي البواطن الملوّثة؛ فوجه الحقيقة غير مستور، وإن كان هناك ستر فهو على القلب والعين.

يقول القرآن الكريم في مقام ابراز السبب في عدم تقبّل بعض الطوائف للحقّ: **﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾**[1]، فالغطاء كان على أعين هؤلاء ولذا لم يبصروا، ولم يكن على القرآن.

يقال للفرد الضالّ يوم القيامة إن هذه الحقائق كانت موجودة ولكنك كنت في حجاب عنها: **﴿لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**[2].

أي أن هذه الحقيقة كانت موجودة ولكنك كنت غافلاً عنها، والآن قد رفعنا الستر **﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾** لا عن الحق، لأن الحق لم يكن مستوراً، لم يكن محجوباً، لم يكن مغطى، لم يكن مخفياً، بل كان قلب الانسان هو المحجوب، هو المظلم، فالانسان هو الذي يكون مريضاً ومحجوباً.. ودور المعلمين الإلهيين إنما هو في مجال تنقية الفطرة، في رفع وإزالة هذه الحجب، في إجلاء هذا الصدأ، في نفض ذلك الغبار، حتى

---

(١) سورة الكهف، الآية (١٠١).
(٢) سورة ق، الآية (٢٢).

إذا طهرت ساحة القلب وأصبحت كالمرآة حينئذ تسهل رؤية نور الحقّ، حينئذٍ يصبح فهم آيات الحق سهلاً، حينئذٍ يتيسّر الحصول على الشفاء، لأن الله تعالى قد وصف القرآن بأنه مذكّر بالحقّ، بأنه أمر سهل، بل في غاية السهولة واليسر فهو سهل في نفس حال كونه صعباً: **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾**[1] أي أننا قد هيأنا القرآن للتذكر لكل الناس، فإذا أراد الناس أن يعيشوا في ظل القرآن بذكر الحق فإن ذلك سهل، فهو تذكرة سهلة وميسّرة، وليس صعباً ولا شاقاً، وذلك لأنه من حيث الباطن موافق للفطرة، ومن حيث الظاهر منسجم مع نظام الخلقة والايجاد، لأن كلام الذي اتقن وأحسن خلقة فطرة الانسان من ناحية، وخلق العالم على أكمل نظام من ناحية أخرى.

إن هذا القرآن هو الرابط والمنسّق بين الناس وبين عالم الحقيقة، فما كان في العالم من حقائق ثابتة فإن القرآن يطرحها للانسان، ويفتق له ما يكمن في باطنه من استعداد لينطبق على العالم، والرابط الوحيد بين انسانية الانسان وعالم الوجود هو الوحي الإلهي، الرسول الوحيد الذي بامكانه إيصال أسرار العالم إلى الانسان، وجعل القلب المتفتّق للانسان غير الغافل بمستوى من الشفافية بحيث تشرق في روحه كل أسرار العالم مع حفظ الدرجات والمراتب هو القرآن، ولذا قال تعالى: **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر﴾** فهو يدعو الجميع إلى التذكّر.

هذا هو البيان العمومي للقرآن وهذه دعوته العالمية: **﴿فهل من مدّكر﴾** فهل هناك من متذكّر بهذه التذكرة؟ ويكون على ذكر من مبدئه ومنتهاه ومسراه، إلاّ أنه لا يوجد في هذه التذكرة وهذا الرسول وعامل

---

(١) سورة القمر، الآية (١٧).

التذكير أي ضعف أو خفّة ﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾[1] فهو قول ثقيل، وبما أن الحق ثقيل فلذا يبقى، والباطل خالٍ عن المحتوى وخفيف فلذا يذهب. فالقرآن ـ بحسب الآية المتقدمة ـ ثقيل وسهل، يعني انه ليس صعباً بحيث يوقع الفطرة في عناء في تقبلها له، ليس معقداً بحيث يصعب الدخول اليه، ليس لغزاً أو طلسماً يتعسّر حلّه، وإنما هو نور، تبيان، شفاء، وميزان.

وبناءً على هذا فلا يوجد في ظرف القرآن أي تساهل أو تسامح وأمثال ذلك، بل هو كلام يتكىء على البرهان، وذلك الداعي (القرآن) إن لم يكن شاهداً في ظرف الشهادة (من الادلاء بالشهادة) فليس بكلام ثقيل، والمطلب الذي لا يصل الى نهاية الحق ليس كلاماً ذا وزن، والكلمات التي لم تنطلق من القلب ليست ثقيلة.. ولذا قال بأن هذا الكلام ثقيل وذو وزن لا يتيسّر تحمله لكل فرد بلا واسطة، فخذ أنت بيد هؤلاء واجعل أعينهم بصيرة حتى يروا، وحينئذ يدركون بأن تذكّره سيكون سهلاً، فتحمل أنت [أيّها الرسول] أولاً هذا الكلام الثقيل، وخفّف من ثقله، وحينئذ ألقِ في مرآة روح الرائي والناظر بالمقدار الذي تسمح به حدود رؤيته.

إن درك محتوى القرآن العميق الذي هو في كتاب مكنون والذي لا يمسّه إلاّ المطهّرون أمر صعب للغاية، إلاّ أن مراتبه النازلة قابلة للتحمل بالنسبة للأفراد الذين أزالوا الغبار عن صفحات نفوسهم، وقد نعت النبيّ الأكرم ﷺ بصفة مبيّن ومعلّم القرآن، يقول الله تعالى له أنت معلّم هذا الكتاب: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم﴾ أنزلناه لتبيّنه مع أنه تبياناً لكلّ شيء.

---

(١) سورة المزمّل، الآية (٥).

وفي الحقيقة عندما كان يصل تلامذة النبي ﷺ إلى محتوى القرآن، كانوا يرون أنه نور قد وصلوا إليه بواسطة التزكية والتطهير من قبل النبي ﷺ ونفض الغبار عن صفحات نفوسهم، دون أن يأتي شيء من الخارج يوضّح القرآن ويظهره، غاية الأمر ان النبي ﷺ ـ بما أنه كان محيطاً بكل الحقائق ـ كان يوضّح بعض الآيات ببعضها الآخر ويستدلّ عليها بها، والأئمة عليهم السلام كانوا يقومون بنفس هذا الدور. والتفسير القيّم لسيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (دام ظلّه العالي) المسمى بالميزان قد قام على هذا الأساس أيضاً، وبالأسلوب الذي كان يسلكه النبي والأئمة عليهم السلام. كانوا باستشهادهم ببعض الآيات يجعلون بعض الآيات الأخرى أكثر وضوحاً.

ثم إن الجمع بين هذين الأصلين، وهما كونه ثقيلاً وسهلاً، هو بنفسه معجزة، فالجمع بين الثقل واليسر إعجاز، فهو ثقيل ليس بخفيف، ويسير لا عسر فيه ولا صعوبة، والجمع بين هذين الأمرين من خصوصيات القرآن الكريم.

ثم ان المواضيع المستفادة من القرآن الكريم كل واحد منها ـ أيضاً ـ هو ثقيل ويسير، أي أن مواضيعه سهلة وثقيلة! ليس فيها خفّة ووهن لأن البرهان معاضد لها، وليست صعبة وشاقة لأن الفطرة مؤيدة لها، والفطرة تطلب الطريق وتبحث عنه، وحينئذ سيكون التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ ضرورة ـ قائماً على هذه الأسس.

فمن الممكن أن يقوم بعض الناس من ذوي التوجهات الأدبية بتطبيق بعض النكات الأدبية المكتسبة لديهم على القرآن، وتنزيل آياته على مؤدّاها ونسبتها الى القرآن، وكذلك غيرهم من أصحاب الكلام والفلاسفة، وكذلك

المتصوّفة والعرفاء بما يكتسبونه عن طريق الباطن وما يحملونه من اعتقادات، فانه من الممكن لكل واحد من هؤلاء أن يأتي باعتقاداته وأفكاره التي حصل عليها بطرق معينة، واكتسبها بوسائل مختلفة، ويطبقها على القرآن الكريم بدعوى ان القرآن قائل بها ومؤيد لها . . ولكن هؤلاء لا يحصلون على أي فائدة من القرآن، بل ان كل شخص إنما يستفيد ويتغذى من القرآن بالمقدار الذي يهذب به نفسه بالوسائل والسبل المشروعة، وبالمقدار الذي يجلو به الغبار عن مرآة قلبه.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها»[1] أي أن القلوب ظروف مختلفة متغايرة، وأفضلها ذلك القلب الذي تكون ظرفيته أكبر من غيره في ادراكه للحقائق.

وبما أن القرآن الكريم قد تعرّض في مواطن مختلفة الى طرح مسائل وموضوعات متعددة، وأولى اهتمامه الخاص المسائل الاعتقادية قبل الجميع، واهتم بأصول الدين قبل المسائل الأخرى، ووردت آيات كثيرة حول المعارف التي ترتبط ببداية الخليقة ونهايتها ومسيرتها أكثر مما ورد في غيرها، فستحتلّ هذه المواضيع الأقسام الأولى - بالضرورة - من برامج التفسير الموضوعي.

وسنتعرض الآن الى الخطوط الاجمالية لهذا التفسير الموضوعي بعون الله، وسنفرد في الجلسات الأخرى كل واحد منها ببحث مفصّل.

يعتقد القرآن الكريم في حق عالم الخلقة هذا ان له بداية نشأ وبدأ منها، وأن له خاتمة باسم المعاد يسير نحوها، وأن له مسيراً ينبغي له ان يصل

---

(١) نهج البلاغة لصبحي الصالح/ الحكمة: ١٤٧.

عبر هذا المسير والطريق الصحيح إلى ذلك المقصد والخاتمة. . فعندنا (مبدأ، ومعاد، وطريق) وجميع معارف الدين وتعاليمه تعود الى أحد هذه الأقسام، فهي إما أن ترجع إلى المبدأ، وإما الى المعاد، وإما الى تعيين المسير.

فتلك البداية هي مسألة التوحيد، وتلك النهاية هي مسألة المعاد، وهذا المسير هو مسألة الرسالة والنبوة والدين والوحي.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام لكي ينبّه على مدى أهمية هذه الأمور الثلاثة: «رحم الله امرءاً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين؟».

فالشخص الذي يتحلى برحمة الله هو الذي يعرف المبدأ باسم التوحيد، ويعرف المعاد، حتى يعرف الجهة التي يتحرك نحوها، والذي يشخص المسير بأنه على أي دين هو، وفي أي صراط، وفي أي خطّ، فإنه ليس كل خطّ يوصل الإنسان إلى ذلك المعاد السعيد والجنة الأبدية، ولا أن أي اعتقاد أو أي خلق أو أي فعل يصل بالانسان الى السعادة الدائمة.

فالشخص الذي يفكر في هذه الأبعاد الثلاثة الشاملة، هو الذي يتحلى برحمة الله الخاصة:

البعد الأول: التوحيد والمعارف المرتبطة، كإثبات المبدأ وصفات المبدأ والأفعال وأمثال ذلك.

البعد الثاني: في مجال المعاد.

البعد الثالث: المسير بين البداية والنهاية.

من أين جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وفي أي طريق يتقدم؟

أسأل الله تعالى أن ينوّر قلوب الجميع من أجل الوقوف على معارف القرآن الكريم والاعتقاد بها، والتخلّق بأخلاق القرآن الكريم والعمل بأحكامه، وسنة المعصومين عليهم السلام . . غفر الله لنا ولكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الدرس الثاني

لا سبيل للبطلان والوهن الى حرم القرآن الآمن

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان كلامنا حول تفسير القرآن الكريم، وقد اتّضح في الجلسة السابقة معنى التفسير، والخطوط الكلية له، وقد تعرضنا هناك لذكر بعض أوصاف القرآن الكريم من أنه نور، وشفاء، وتبيان لكل شيء، وانه قول ثقيل وذو وزن في حين أنه سهل يسير.

وبناءً على ذلك فلا يوجد أي نقطة مبهمة أو مظلمة في القرآن الكريم لأنه نور، وليس بحاجة الى مبيّن خارجي لأنه هو بنفسه بيان لكل المعارف ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[1]، فهو يأبى من احتواء أي نحو من أنحاء المرض، لأنه هو ذاتاً شفاء من كل مرض، هو شفاء للجهل والانحرافات الفكرية والأخلاقية وسائر الانحرافات التي هي أمراض ﴿وننزل

(١) سورة النحل، الآية (٨٩).

من القرآن ما هو شفاء﴾[1] وهو من جهة كونه متكئاً على البرهان والحق قول ثقيل ﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾[2] ومن حيث كونه ملائماً للفطرة وكاشفاً عن حقيقة الوجود فهو سهل يسير، لأنه لا يكون في قبوله أي نوع من أنواع الإرغام للفطرة أو إلزامها على تقبّله ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾[3] .

لقد وصف الله تعالى هذا الكتاب بكونه عاملاً يسيراً وسهلاً لتذكير البشر، وتحمله ليس شاقاً على الفطرة لكونه مطابقاً لمتطلباتها، وما سنتعرض له اليوم فهو تتمة البحث السابق، وتمهيد للبحوث الآتية ـ بإذن الله ـ وهو:

ان الله تعالى قد نعت القرآن بهذا النعت وهو عدم قبوله للبطلان لا من الداخل ولا من الخارج، وعمره ليس بالقصير أو المحدود حتى تتصدّع أركانه من الداخل بمرور حقبة زمنية عليه، ولا يمكن لأي عامل من العوامل الخارجية أن يقضي عليه أو يبطل وجوده ﴿وإنّه لكتابٌ عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[4] .

إن هذا الكتاب يتمتع بمرتبة من الصلابة والعزة والاستحكام بحيث إنه لا سبيل للبطلان الى حرمه بأي وجه من الوجوه، فلا في عصره يمكن لفكر أو عقيدة أو دليل أن يقضي عليه، ولا في العصور الآتية يمكن ان يوجد فكر أو عقيدة أو دليل يستطيع ان يخصم القرآن ويغلبه. فهو لا يقبل البطلان، لا

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٢).
(٢) سورة المزمّل، الآية (٥).
(٣) سورة القمر، الآية (١٧).
(٤) سورة فصلت، الآية (٤١و٤٢).

عند نزوله، ولا بعد نزوله، لأنه كتاب محكم «كتاب عزيز».

والعزة هي صلابة واستحكام وثبات خاص يمنع من نفوذ أي شيء إلى متعلقها وما يتّسم بها، فالأرض المحكمة التي يمتنع نفوذ شيء فيها يقال لها (أرض عزاز) فهذه الأرض عزيزة لا تستسلم لأي معول ولا ينفذ فيها ولا يقتلع منها شيئاً، والانسان الحكيم الذي يأبى نفوذ أحد في شؤونه، يقال له عزيز، والكتاب الذي ليس فيه أي منفذ لورود نقد أو إشكال عليه يقال له «كتاب عزيز».

وقد وصف الله تعالى ـ وهو المتكلم بهذا الكلام ـ القرآن الكريم بالعزة إذ يقول: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ وذلك لأن محتواه مطابق من الداخل للفطرة، ومن الخارج لعالم الوجود؛ وشكله شكل برهاني، فهو من جهة القلب مطابق للفطرة، ومن جهة القالب والفكر مطابق للبرهان، وبما أنه كذلك فهو ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

ومع ان التحدي كان مطروحاً من زمن النبي ﷺ وما زال باقياً إلى الآن، فما كان من الممكن أن تطرح فكرة أو رأي بإمكانه أن يقضي على القرآن أو أن يزيله، كما أنه يستحيل في العصور الآتية أن يوجد فكر أو مطلب يقضي على محتوى القرآن الكريم.

فلا يمكن أن ينتهي أجله من الداخل على أثر الاختلاف، ولا يمكن أن يتهاوى من الخارج ويسقط على أثر الضعف.

أما كيف انه منسجم من الداخل فالمرجع فيه التلاؤم الموجود بين آياته، فلا يوجد أي اختلاف بينها، وكذلك الترابط والانسجام القائم بين آياته بحيث إن بعضها يؤيد البعض الآخر ويقوّيه، لا أنه مانع من انقضاء

عمره الداخلي وأمده فحسب، بل هو موجب لدوامه واستحكامه. كما أنه لا يمكن القضاء عليه من الخارج بواسطة دليل أو برهان، بمعنى ان مدّعاه معتضد بالبرهان العقلي.

وهذا الكتاب إذا كان غير قابل للبطلان، وغير قابل لنفوذ الغير إليه والتأثير به، فهو غير قابل للإرغام ـ أيضاً ـ وتطبيق الأفكار المكتسبة من غيره عليه، وذلك لأن الانسان إذا طبق آراءه على القرآن ونسبها إليه، فإنه سيكون قابلاً للبطلان، لأن ما يأتي به البشر من أفكار وآراء قابل للزوال، والقرآن لا يرتضي هذا التطبيق وهذه النسبة أبداً.

ثم إنّ القرآن الكريم قد حدد الخطوط الكلية لمحتوياته، ويرى ان هذه الخطوط غير قابلة للزوال. ونحن نشير ـ كنموذج ـ الى بعض تلك الخطوط وتلك المعارف.

إن البشر بطبعهم يرون أن للمادة والدنيا أصالة، ويرون أن غير الدنيا وغير المادة وهمٌ وخرافة، ويقولون: **﴿ما هي إلاّ حياتنا الدنيا﴾**[1]، **﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا﴾**[2].

فالعالم والوجود ليس سوى هذه الطبيعة المادية المتصرمة لا أكثر، والانسان هو ذلك الموجود الذي يتلخص بين الولادة والموت ليس إلاّ، والانسان عند موته يكون حاله كحال الشجرة اليابسة التي فقدت الحياة وتحللت، ولم يبقَ منها شيء دون أن يكون هناك أثر لما بعد الموت. هذه هي نظرة البشر العاديين لهذا العالم.

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٤).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٣٧).

أمّا القرآن فنظره الى هذا الوجود ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهوٌ ولعب﴾[1] أي أن ما ينظر اليه البشر بعنوان أنه حقيقة ليس سوى لعب ولهو، وأن هذا الوجود المادي ـ الذي هو في نظر البشر هو وحده الحقيقة الثابتة وما دونه خرافة ـ ليس سوى وسائل وأدوات للعب واللهو، وأنه مثل لعاب الفم سريع الانقضاء والزوال. أمّا الحقيقة فهي فيما قبل وبعد الطبيعة، والمرحلة المتوسطة بينهما المسمّاة بالدنيا ليس سوى لعب ولهو، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول في مورد ثانٍ: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾[2].

فبما أنه يذكر في موطن آخر بأن الدنيا كالآخرة مخلوقة لله تعالى، فقد أصبح عندنا ثلاثة مفاهيم مستفادة من القرآن:

أحدها: ان الله تعالى لم يخلق هذا الوجود عبثاً لعدم كونه لاعباً أو لاهياً.

والثاني: ان الدنيا لعبة ووسيلة لهو.

والثالث: ان الدنيا مخلوقة لله ومن صنعه مع كونها لعباً وكونه غير لاعب، وهي كالآخرة كونها من صنعه وخلقته.

والجمع بين هذه المضامين على ما يستفاد من كلام العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله عليه ـ هو انك قد تجد الأب الحكيم الذي يربي ولده ويرعاه تجده يهيّىء أسباب اللعب ووسائله لولده ومع ذلك فالأب ليس لاعباً هنا، ولكن صرف الطفل نحو اللعب هو من الحكمة، والدنيا هي دار لعب،

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٤).
(٢) سورة الدخان، الآية (٣٨).

وصرف الناس العاديين نحو اللعب هو من الحكمة، فلعلهم يصلون إلى بعض كمالاتهم إلى جانب هذا اللعب.

ولذا قد نجد إن هيئة الادارة لمدرسة ما تضع الى جانب برنامجها العلمي ساعة مخصصة للعب للأطفال، ومع ذلك لا يمكن وصف هذه الهيئة الادارية باللاعبة، إذ إنّهم يصرفون الأطفال نحو اللعب حتى يتهيّأوا ـ إلى جانب هذا اللعب ـ للوصول إلى الهدف النهائي، فتوجيههم هذا نحو اللعب من الحكمة.

وكذلك الله تعالى بالنسبة إلى البشر العاديين إذ إنه يغريهم بهذه اللذائذ والمسرات الدنيوية حتى يصلوا ـ إلى جانب هذه اللذائذ ـ الى تلك المعارف الحقّة.. وحينئذٍ فالذي يكون طفلاً ويبقى طفلاً فإنه يجعل من هذه اللعبة هدفاً، ويبقى في حالة اللعب هذه الى انتهاء أجله.

أمّا الإنسان الحكيم فلا يجعل نفسه أسيرة لهذه الألعاب، إذ إنه لا يخلو من أن يكون من أواسط الناس أو من أوحدهم؛ أمّا الأول فإنه يأخذ من هذه اللذائذ كي يصل عن هذا الطريق إلى هدفه النهائي، وأمّا الثاني فإنّه لا يرتبط أبداً بهذه اللذائذ المادية ولا يسمح لنفسه بأن تكون متعلقة بها.

والخلاصة: ان هناك اتجاهين:

الأول: الاتجاه البشري المادي القائل بأنه لا وجود لشيء سوى هذه الطبيعة المادية.

والثاني: الاتجاه الإلهي القائل بأن هذه الدنيا لعب ولهو.. والقرآن الكريم قد تم طرحه على أساس هذه النظرة.

ونجد أيضاً ـ بعنوان المثال ـ ان القرآن الكريم يثبت قانون العلية والمعلولية، أي أن كل موجود لا يكون وجوده من تلقاء نفسه بل هو محتاج الى علّة؛ ولكن البشر الماديين قد حدّدوا نطاق العلّة في دائرة المادة والطبيعة، وقالوا بأنه ليس لدينا علّة غير مادية، ولا يمكن أن توجد.

والقرآن الكريم ـ في مقابل هذا ـ يقول: ﴿**ألا له الخلقُ والأمر**﴾[1] أي ان تمام نظام الإمكان والخلقة هو معلول للحق تعالى، وهذا الحق ليس هو الطبيعة ولا المادة، بل هو موجد المادة وخالق الطبيعة.

فهذان اتجاهان: أحدهما يجعل النظام العلّي للوجود منحصراً بالمادة، والآخر يرى أن المادة هي طرف من أطراف النظام الكلي الواسع الشامل.. والقرآن قد نزل وبيّن متكئاً على هذا الاتجاه.

ونجد ـ أيضاً ـ ان البشر العاديين يرون ان العزة إنما تحصل في ظل المال والولد والمقامات الاجتماعية وغيرها من الشؤون الطبيعية والمادية، ولكن القرآن الكريم يرى ان العزة إنما تحصل من موطن آخر، حيث يقول: ﴿**أيبتغون عندهم العزّة فإن العزة لله جميعاً**﴾[2] أي أن العزة بتمامها هي من عند الله تعالى، فكل من أراد العزّة فعليه أن يطلبها من مبدئها ومصدرها. وأيضاً فإن البشر العاديين يرون لأنفسهم القوة والقدرة، فيتخيلون انهم قادرون مقتدرون، والقرآن الكريم يقول: ﴿**أن القوّة لله جميعاً**﴾[3] .. فالقرآن ينسب القدرة المتجلية في جميع أجزاء هذا العالم الطبيعي وكل الطاقات والقدرات إلى الله تعالى، أي أن كل قدرة وقوة في ما له جنبة

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٤).

(٢) سورة النساء، الآية (١٣٩).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

وجودية فهي من الله تعالى.

وأمّا ما كان من قبيل الشرور والمعاصي والنقائص فهو خارج عن هذا البحث.

فهذه خطوط مختلفة متفاوتة من وجهتي نظر المذهب البشري، والمذهب الإلهي.

ونجد ـ أيضاً ـ في المذاهب البشرية ان الموت خصوصاً موت الشهيد يعد نوعاً من أنواع الهلاك والفناء، ولكن القرآن الكريم يقول في حق الشهيد: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾(١)، ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾(٢).

فالقرآن ينهى عن أمرين اثنين في حق الشهداء:

الأول: هو القول اللساني بأن هؤلاء أموات.

والثاني: تخيّل وحسبان ان هؤلاء أموات؛ فالمنهي عنه هو كلا الأمرين.

فالنظرة التي تقول بأن الموت عبارة عن زوال الانسان وهلاكه ـ وإن كان ذلك في سبيل تحقيق أهدافه ـ تختلف تماماً عن النظرة التي تصف الشهيد بأنه حيّ مرزوق عند الله.. وهذه خطوط كلية يرشدنا اليها القرآن الكريم.

فإذا أردنا أن ينمم شطر القرآن فعلينا أن نتوجه إليه بهذه النظرات،

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٥٤).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٦٩).

بهذه الخصوصيات، بهذه الطروحات.

يصف تعالى كتابه الكريم بأنه محكم، ويقسم به موصوفاً بهذا الوصف: ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾[1] .. فالقرآن حكيم، أي أنه يتكلم في الوقت المناسب، وهو يتكلم بأسلوب حسن وجميل، والأمر الذي يذكره أيضاً حسن وجميل.. والكلام الذي لا يكون إلى جانبه برهان ليس كلاماً محكماً، لأنه متزلزل وقابل للتضعضع، والأمر الحكيم هو الذي يتّصف بالمتانة. ثمّ إنّ كلمة الحكمة بجميع صيغها وأشكالها تشير إلى معنى واحد وهو الاستحكام والمتانة.

فمثلاً في أيّ قضية من القضايا ما دام المحمول فيها لم يثبت للموضوع لا يكون هناك حكم، ويكون الذهن في حالة اضطراب وتردد، فهو لا يدري هل يمكن حمل هذا المحمول على ذلك الموضوع أم لا؟ فالقضية هنا غير محكمة. ولكن عندما يحكم الانسان بثبوت المحمول للموضوع تتم القضية وتحصل حالة الاستحكام.

أو مثلاً في النظام الحاكم، فإن لم يكن برنامج أساسي يسير عليه، تسود فيه حالة الهرج والمرج، بينما لو كان هناك برنامج صحيح، فإنه يقال ان البرامج الحقّة هي التي تحكم هنا.

فالمحكمة، والحكمة، وأمثال ذلك من الألفاظ تشير إلى معنى الاستحكام والثبوت وعدم الزوال.

ومؤدّى وصفه تعالى لكتابه بأنه حكيم، إنه يتميز بمرتبة من الإحكام بحيث إنه لا يمكن بأي وجه من الوجوه إدخال أي خلل أو وهن عليه، وهو

---

(١) سورة يس، الآية (١و٢).

معتضد بالعلم الحصولي والبرهاني من جهة، ومقرون بالعلم الشهودي وحضور المشاهدات الصحيحة من جهة أخرى.

ثم إنه تعالى يقول على نحو التمثيل، ولكي ينبهنا الى عظمة القرآن وأهميته: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[1].

فالجبل مع استحكامه عاجز عن تحمل القرآن فيعتريه التصدع والتلاشي، فهو كالانسان الذي يواجه مطلباً من المطالب الصعبة، فانه يعتريه الصداع وآلام الرأس.. وبعد ذلك يذكر في ذيل الآية بأن هذا مثل ضربناه للناس، إذ القرآن بما أنه نازل الى جميع الناس على اختلاف مراتبهم، فإن المعنى الواحد قد يؤديه بالمثل تارة، وأخرى ببيان آخر.. فتارة يبيّنه بشكل مثال كما تقدم ذكره، وأخرى يبيّنه كما في قوله تعالى: ﴿إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾[2] أي قولاً ذا وزن.

وهذه الأمور كلها تشير إلى أنه بأيّ استعداد وفطرة خالصة ينبغي أن يتوجه الانسان نحو التفسير.. وأيسر طريق لفهم القرآن والوقوف على معارفه هو أن نذهب إليه بفطرة خالصة، وأن نتخلّى عن مرتكزاتنا وما تلقّناه أثناء مواجهتنا للقرآن، فإن هذا الوجود الذي هو نور (القرآن) هو الذي يفيض علينا تمام المضمون والمحتوى بمقدار استعدادنا، لأن معلّم هذا القرآن المباشر هو الله تعالى، إذ قال: ﴿الرحمن * علّم القرآن﴾[3].

يقول تعالى في سورة الرحمٰن، وهو في مقام ذكر نعم العالم

(١) سورة الحشر، الآية (٢١).
(٢) سورة المزمّل، الآية (٥).
(٣) سورة الرحمن، الآية (١و٢).

والوجود، يقول في إحدى الآيات: ﴿الرحمن﴾ وهذه هي بنفسها آية، ثمّ يقول بعد ذلك: ﴿علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان﴾[1] وعندها يبدأ بذكر عالم الخلقة من الدنيا والآخرة، وخلق الإنسان والملائكة وغيرهم، ويجعل (القرآن الكريم) في طليعة هذه النعم، فهو يطرحه قبل مسألة الجنة والسعادة الأبدية: ﴿الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان﴾. . فإن كان في صدر بيان فهرست عالم الوجود في هذه السورة، والتعرض لذكر الملائكة والنعم الأخروية وكيفية خلق الإنسان وبيان سيره الكمالي وغير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة، فإنه تعالى جعل القرآن الكريم من جهة الأهمية أهم وأعظم النعم، إذ إنه يتحدث أولاً عن القرآن: ﴿الرحمن * علّم القرآن﴾ فهو قد بدأ سيره من مصدر رحمانية الله تعالى، وترشّح من رحمته المطلقة، ولا يتيسّر لأحد الوصول الى مقام الانسانية إلاّ في ظل العلم بالقرآن؛ فلو لم يكن القرآن لما تمكّن أحد من أن يكون إنساناً، وما لم يكن إنساناً فإن كلامه ليس بياناً كي يتمكن الانسان على أثر تسلطه على قواعد اللغة العربية وأمثال ذلك من فتح ذلك الكتاب واستيعاب مضامينه.

فإذا كان البرنامج هو القرآن، والمعلم هو الله تعالى، فطريق تحصيل هذا البرنامج سوف لن يكون سوى الارتباط بالمعلم، ولا شرط ولا قيد فيه غير ذلك؛ فبالارتباط بالمعلم يمكن تحصيل ذلك، وبالانقطاع عنه لا يتم ذلك، لأنه هو الذي ينبغي ان يعلّم هذا البرنامج.

والارتباط بالله تعالى ـ أي رابطة الانسان بالله ـ هو رابطة عبودية، أي عبودية الإنسان له في كل أبعاد وجوده سواء من جهة الاعتقاد، أو الأخلاق،

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٢ ـ ٤).

أو العمل، فالقرآن ليس كتاباً عادياً بحيث يتمكن الانسان من الاستفادة منه إذا أحاط بضوابط اللغة العربية مثلاً، بحيث يمكنه أن يقول إن مراد الله تعالى هو كذا.

فإذا كان معلّم هذا الكتاب هو الله، فسوف يكون من خصائص هذا الكتاب أن يذكر الله تعالى فيه السبيل إلى تحصيل مضامينه، ولذا قال: **﴿إن تتقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً﴾**[1] وقد صاغ القضية بشكل جملة شرطية، أي ان اتقيتم فإنكم تحصلون على النور الذي يفرق بواسطته بين الحق والباطل في ظل تعاليم القرآن.

بينما ذكر تعالى هذا الأمر في موطنٍ ثانٍ لكن لا بصورة الشرط والجزاء، حيث قال: **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾**[2] فقد تبيّن أن العلم يبدأ من القلب وإن كان يستعين بالحواس المادية في ذلك، إلاّ أنه ما دام لم يصل إلى القلب الذي هو مستودع الاعتقاد والقبول فهو ليس بعلم، ولما كان القلب الذي هو موطن العلم بيد الله، فلكي تتعلق المشيئة الإلهية بإلقاء العلم في قلبٍ ما وجعله مهيّئاً لقبوله، لا بد من توفّر شرط، وهو سلامة القلب، فإن القلب غير السليم لا يمكنه الاستفادة من القرآن، كما ان القلب إن لم يكن منشداً ومنجذباً نحو هذه المعارف فإنه لا يصل إلى هدفه النهائي.

هذه الأمور كلها ستكون الخطوط الكلية لهذه المسائل التفسيرية، أي اننا أمام كتاب قد عرّف لنا نفسه، حيث يقول إنه **﴿نور﴾** **﴿تبياناً لكل شيء﴾** **﴿وشفاء لما في الصدور﴾** **﴿قولاً ثقيلاً﴾** وهو بمستوى من العزّة والصلابة بحيث يأبى أن يتطرق إليه البطلان إلى الأبد، وهو بمستوى من الانسجام

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

بحيث لا يوجد فيه أيّ اختلاف أو التواء أو تعرّج ﴿غير ذي عوج﴾، وهو بمستوى من الإحكام بحيث إن الله تعالى وصفه بأنه حكيم، وأن معلمه هو الله تعالى، وأنه بداية جميع النعم.

ليس هناك نعمة أرفع وأرقى من القرآن الكريم، إذ إنه نزل من أعلى مراتب عالم الإمكان، فلو حصلت للإنسان حالة أنس بهذا الكتاب، فإنه من الممكن أن يصل الى تلك المرتبة التي هي أعلى مراتب الامكان، ولذا فقد قال تعالى لنبيّه الأكرم: ﴿وإنّك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[1] ولدن بمعنى عند، والعلم اللدني هو العلم الذي يتلقّاه الإنسان من عند الله تعالى بلا واسطة.

فالعلم عند نزوله يكون كالماء الزلال الذي ينبع من العين، والذي يجري في الأنهار فيمر بالأزقّة والأحياء، فإنه كلّما ازدادت فاصلته عن منبع العين فإنه سوف يتعرض للنقصان، وبسبب كثرة استعماله من قبل الناس فسوف يفقد بعض صفائه ونقائه، بخلاف ما إذا كان قريباً من مصدره، فإنه سيكون مصوناً ممّا ذكر.

فالآخرون من الممكن أن يستفيدوا من هذه العيون والأنهار القرآنية، إلاّ أن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يأخذون هذا القرآن ويتلقونه من الله تعالى ﴿وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾

ولهذا فإن الله تعالى قد ذكر نبيه بعنوان انه مفسّر لهذا الكتاب إذ يقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم﴾[2] أي أنك أنت الذي تجعل

---

(١) سورة النمل، الآية (٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٤٤).

هذه العين تتصل بالنهر والساقية، أنت الذي تروي العطشان فيما لو كان مرتبطاً بك.

والحاصل أن الوحي إنما يلقى إليك من عينه الصافية، وأنت (أيها النبي) الواسطة في ايصاله للبشر.

لقد اتّضح ممّا تقدم ان النبي ﷺ لم يأتِ بعلم من مكان آخر لكي يبيّن به القرآن، إذ أنه بما أنه كان بصير القلب، مرتبطاً بالقرآن، فقد أخذ من القرآن وبلغه الناس ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾. فبما انه (أي القرآن) بيّن بذاته، ومبيّن لجميع المعارف، فهو غنيّ عن أي مصدر يعتمد عليه من الخارج لإبراز مقاصده.

هذا طريق الوصول إلى القرآن.. والحصيلة: إنّ المعلّم بالذات هو الله تعالى ﴿الرحمن * علم القرآن﴾، وإنّ النبي والأئمة عليهم السلام ـ بواسطة الأمر الإلهي ـ هم مبيّنون ومفسّرون للقرآن الكريم بمقتضى آية التطهير.

ونفس الكتاب، بما انه يهدي إلى الحق، فهو لا يعتريه الوهن لا من الداخل ولا من الخارج، والشخص الذي لم يحط علماً بالقرآن، ولم يعرفه، لا من داخله ولا من خارجه، قد يمكنه أن يدّعي أحياناً أنّه قد قرأ القرآن، إلاّ أنّه لم يعرف القرآن، لأنه لم يكن مرتبطاً بالمعلّم والذي هو الله، ولا بالمفسّر والذي هو النبي ﷺ.. إنه لا يعرف ان القرآن إنما أنزل لبيان حقائق العالم، ولأجل هداية الفطرة، كما تقدم تفصيله فيما سبق.

وبما أن القرآن قد نزل لبيان حقائق العالم، وحقائق العلم لا تقبل التبدّل، وبما أنه نزل لهداية الفطرة، والفطرة تأبى التحوّل والتغيّر، فبالضرورة سوف لن يصح القول بأن القرآن قد صار قديماً.

ومعنى ثبات العالم من البداية الى النهاية، وثبات فطرة الناس في كل عصر ونسل، هو ان قوانين العالم من البداية الى النهاية ثابتة لا تتبدل.. يعني ان الطبيعة في حالة حركة وسير نحو الكمال، وإنسانية الإنسان وفطرته طالبة للكمال، وهي تتحرك نحوه، وتحتاج إلى من يقودها ويرشدها. والقرآن هو الرابط بين فطرة الإنسان وحقيقة الخارج، فهو يعرّف حقائق العالم والوجود إلى الفطرة، كما أنه يبيّن للفطرة حقائق الوجود والعالم. ومثل هذا الكتاب من المحال أن يصير يوماً ما رجعياً، أو قديماً، أو أسطورة، أو متزلزلاً، أو أمثال ذلك.

ولذا فإننا نجد أن هذين الأصلين وهما (دوام القرآن، وكليته) قد كانا مطروحين منذ أول نزول القرآن، أي في عتائق القرآن ـ على حد تعبير العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) ـ أي في أوائل السور النازلة في مكة في بداية البعثة. إذ إنه يستفاد منها ان القرآن للجميع وإلى الأبد ﴿نذيراً للبشر﴾[1] ﴿ذكرى للعالمين﴾[2] فهو من حين نزوله يصرّح بأنه عالميّ أبديّ، ليس دوره هو هداية جماعة خاصة، ولا انه لزمن مخصوص، إذ إنه لا شغل له بالأقاليم، ولا الأنساب، ولا الطبائع والآداب والسنن.. إذ إنّه مرتبط من الداخل مع الفطرة، ومن الخارج مع العالم والوجود، أي أنه فتح أبواب عالم الوجود للفطرة، بحيث تفتحت وتفتّقت الفطرة، وصار هو عالمياً. فلو كان القرآن إنّما نزل لأجل طائفة أو فئة معيّنة، لما كان قابلاً للدوام والكلية، إلاّ أنه صرّح في بداية ظهوره بأنه لا اعتبار عندي للأقاليم والألسن والأعراق، فإنني عالمي، وإنما أتيت من أجل الفطرة، ولتبيين

---

(١) سورة المدّثر، الآية (٣٦).
(٢) سورة الأنعام، الآية (٩٠).

حقائق العالم والوجود.

ولهذا فهو ﴿يهدي إلى الحق﴾ وما لم يكن هو في نفسه حقاً، فسوف لن يكون هادياً إلى الحق.. والحقيقة هي الثبات المحض، والثابت لا يتزلزل، إذ إنّ الزلزال لا يجتمع مع الثبات.

وعلى هذا فإن كان هناك في التفسير مطلب فيه شيء من الغموض أو النقص، فذلك النقص يعود إلى المستمع أو المتكلم لا إلى نفس القرآن، إذ إنه تبيان، ونور، وشفاء، وغير ذي عوج.

والخلاصة: إن الخطوط الكلية للقرآن يتكفل نفس القرآن ببيانها. فالمعلّم بالذات هو الله تعالى، ومفسره هو رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وذوو القلوب الطاهرة من تلامذتهم، ومجاله هو كل العالم.

وبهذا تتّضح شرائط إدراك القرآن الكريم ومعرفته، ويتعين من هو مفسّره، ويتحدد معلّمه بالذات، والذي هو الله تعالى.

آمل في ظل عناية الله تعالى وتحكيم الارتباط مع ذاته المقدسة، وفي ظل العبودية والخضوع له تعالى، وتوطيد روابطنا مع النبي الأكرم وآله عليهم السلام، في ظل الانقياد لقيادتهم الربّانيّة، أن تصير قلوبنا مؤهّلة لتقبّل القرآن، لكي نحظى بهذا الفيض الإلهي اللامتناهي.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس الثالث

الخطوط العامة للمعرفة في القرآن الكريم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين؛ سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء . .

من أجل توضيح البحوث السابقة وتهيئة الأرضية للبحوث اللاحقة رأينا من المناسب ان نشير الى بعض استنتاجات الدروس الماضية وعلى النحو الآتي:

١ ـ بحكم ان الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن . . الذي هو كلامه تعالى، لذا فانه تعالى أفضل العارفين بالقرآن من سائر الموجودات، وهو تعالى أليق وأجدر بوضع تعريف للقرآن من كل عارف . . بل لا يمكن قياس لياقة الذات الإلهية المقدسة لتعريف القرآن مع صلاحية الآخرين، وذلك اما لكونهم غير عارفين بالقرآن أصلاً، أو انهم قد تعرفوا على القرآن في ضوء التعاليم الإلهية. وعلى هذا الأساس فان أفضل تعريف هو التعريف الذي بينه الله تعالى بشأن هذا الكتاب السماوي العظيم.

٢ ـ ان الله سبحانه وتعالى عرّف القرآن الكريم بأنه نور للعالمين حيث قال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[١] و﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[٢] .

وتعني هذه الخاصية أي نورانية القرآن انه بالاضافة الى كون معارفه وتعاليمه واضحة ولا لبس فيها ولا غموض، فقد جاء أيضاً لينقذ المجتمعات البشرية من كل أنواع الجهل العقائدي والانحراف الاخلاقي، وازالة الابهام والغموض والنية والضياع في تحديد الطريق السوي وترجيح الهدف المقصود والأخذ بأيديهم الى الصراط المستقيم والى الهدف الحق، الا وهو جنة عدن ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور﴾[٣] .

وحالة التناسب للتجلي الإلهي في القرآن الكريم تقتضي وجود مثل هذه الخاصية لهذا الكتاب السماوي؛ لأن هذا الكتاب هو كلامه تعالى الذي هو ﴿نور السماوات والأرض﴾ فلا بد ان يكون نوراً يستضاء به .

٣ ـ ان الله تبارك وتعالى وصف القرآن بأنه(تبيان لكل شيء) : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[٤] .

وتعني هذه الآية ان الله تبارك وتعالى قد بين في كتابه كل شيء له أثر في تحقيق السعادة؛ فقد أمر باتيان الأعمال الموجبة لسعادة وتكامل الانسان ونهاه عن ارتكاب الأعمال الموجبة لشقائه وعنائه؛ كما اشتمل القرآن الكريم

---

(١) سورة النساء، الآية (١٧٤).
(٢) سورة المائدة، الآية (١٥).
(٣) سورة ابراهيم، الآية (١).
(٤) سورة النحل، الآية (٨٩).

على جميع المعارف والأخلاق والأحكام الالهية وعرضها بشكل واضح وميسر للذكر وبعيداً عن الغموض واللبس والابهام التي لا تنسجم مع قانون الحوار وأساليب التربية والتعليم. وذكر الله تبارك وتعالى بهذا الصدد بأن القرآن يحتوي على جميع الأصول الاسلامية عندما وصفه﴿تبياناً لكل شيء﴾ فالقرآن الكريم كامل لا نقص فيه يستوجب اكماله من الخارج؛ فلا نقص في القانون والاحكام البشرية، ولا نقص في العلوم والمعارف الاسلامية، ولا يوجد أي قصور في بيان هذه المعارف. اي انها غنية وغير محتاجة بلحاظ المحتوى والمضمون الى مضامين اجنبية، كما انها غنية في التعليم والتفهيم، حيث انها مبينة وموضحة ومفصّلة ومستغنية عن بيان الآخرين وغير محتاجة لأقلام الناس، اذ ان هذه هي خاصية ﴿تبياناً لكل شيء﴾.

٤ ـ ان الله سبحانه وتعالى عرّف نفسه بأنه هو المعلم بالذات وبالأصالة لهذا الكتاب السماوي، وهو المعلم الحقيقي الأول والأخير للقرآن للانسانية جمعاء وفي كافة العصور والأمصار. قال تعالى: ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان﴾[١]، ولتوضيح أهمية العلوم القرآنية يمكن ان نشير الى هذه النقطة وهي ان الله تعالى هو المبدأ لكل النعم المادية والمعنوية (المجردة).. الظاهرية والباطنية، والتي ذكرها في سورة الرحمن ودعا جميع المكلفين للاعتراف بها، وسدّ الطريق امام جميع المكذبين والمنكرين لها.

وذكر من هذه النعم نعمة تعليم القرآن، وتعليم البيان للانسان الذي هو من ثمرة تعليم القرآن.

---

(١) سورة الرحمن، الآية (١ ـ ٤).

ويدل اسم الرحمن الذي هو من اسمائه الحسنى على جامعيته لجميع شؤون الرحمة. وهذا الاسم المبارك له قدسية خاصة كإسمه تعالى ﴿الله﴾ عند بعض أرباب الشهود، وهو جامع لسائر اسمائه الحسنى. وقد جعل هذا الاسم ﴿الرحمن﴾ المبدأ في تعليم القرآن لكي تتعلم الانسانية دروس الرحمة المطلقة في مدرسة الرحمن من أجل تحرير الانسانية من قيود الانتقام وتخليصها من أغلال الغضب وفكها من أسر السخط واخراجها من سجن الظلمة ليصبحوا مثل حامل هذا الكتاب محمد ﷺ: **﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[1] ويكونوا مثل أصحابه الصادقين **﴿رحماء بينهم﴾**[2] الذين هم رحماء على أنفسهم قبل أن يترحموا على غيرهم.. يترحمون على ضعف أبدانهم، اذ لا طاقة لأرواحهم على تحمل **﴿نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾**[3]، كما لا قدرة لأجسامهم على تحمله **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾**[4].

٥ ـ ان الله تبارك وتعالى كسا كتابه الكريم ومن بداية التنزيل والى نهايته بكسوة الحق وجعله بصحبة الحقيقة، لكي يستقر في مكانه الأصيل الذي هو قلب الانسان الكامل، ويتحقق فيه وبه: **﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾**[5]، **﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾**[6].

وقبل نزول القرآن الكريم على القلب المبارك للانسان الكامل، والانتقال

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٢) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٣) سورة الهمزة، الآية (٦و٧).

(٤) سورة النساء، الآية (٥٦).

(٥) سورة الاسراء، الآية (١٠٥).

(٦) سورة الشعراء، الآية (١٩٣و١٩٤).

بعدها من هذا المكان المطهر الى سائر الناس، لا يمكن ـ أبداً ـ ادراك معارفه بلا واسطة، من قبل الناس العاديين؛ وذلك لأن لكل قلب وعاء يختص به ولا يمكن ان تتحمل مثل هذه القلوب القرآن، الذي يصفه الله تعالى في كتابه بأنه ثقيل **﴿انّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**[1] .

من هنا اختصت مسألة تعليم وتبيين مفاهيم القرآن بالرسول الأكرم ﷺ الذي يمثل المظهر التام الإلهي؛ ولذا عرّفه الله تعالى كمعلم للكتاب والحكمة ومبين لأحكام القرآن الكريم وتعاليمه **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾**[2] .

ويستفاد من قوله ان النبي الأكرم الذي يحمل القرآن يعلمكم (أيها الناس) ما لا تستطيعون معرفته بأنفسكم. ان العقل البشري وان تمتع بالنورانية لانتخاب الطريق الا انه لا يكفي وحده أبداً لأن هناك أموراً لازمة لتحقيق سعادة الانسان لا يمكن لأي انسان تحقيقها بفكره المحدود. وهذا المفهوم تبينه الآية الكريمة: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما﴾**[3] وهي من الأدلة على ضرورة النبوة العامة؛ فلو كان العقل البشري كافياً لوحده لما وجدت ضرورة للرسل، ولتمت حجة الله على البشرية بواسطة عقولهم فقط؛ مع ان الله تعالى يقول: **﴿ولو انّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى﴾**[4] .

---

(١) سورة المزمل، الآية (٥).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٥١).
(٣) سورة النساء، الآية (١٦٥).
(٤) سورة طه، الآية (١٣٤).

والخلاصة ان ما يعلمه الرسول الأكرم ﷺ للمجتمعات البشرية لم يكن يصل اليه فكرهم أبداً. . وبما ان الرسول الأكرم ﷺ يأخذ جميع العلوم الإلهية من القرآن وبدون واسطة ولا تصل اليه أيدي الآخرين، لذا فقد اختصت وظيفة تفسير وتبيين هذا الكتاب بالرسول ﷺ: **﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾**(١) .

وعلى هذا الأساس ان جميع الناس وفي كل عصر مكلفون بالاقتداء بسنة وسيرة الرسول الأكرم ﷺ وفي جميع شؤون حياتهم؛ وبالخصوص في مجال التفسير **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب﴾**(٢) .

ولا تتنافى سمة الرسول الأكرم ﷺ في كونه مبيّنا للقرآن الكريم مع كون القرآن نوراً وتبياناً، وذلك لأن القرآن الكريم الذي هو نور ومبين في كمال الظهور يصرح بأن الرسول ﷺ هو المفسر والمبين لاحكام القرآن وان الكثير من المعارف القرآنية الواضحة لا يمكن فهمها ومعرفتها الا بالعين الباصرة والنظرة الثاقبة للرسول الأكرم ﷺ. . لا سائر الناس. فمع كون القرآن نوراً ومبيناً لكنه بحاجة الى تفسير الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام الذين هم أوصياؤه؛ ومرجع تفسير المعصومين عليهم السلام يعود الى استنباط الأحكام من باطن القرآن، ومن ثم تعليمه للناس. ولا يعني ذلك بأنهم عليهم السلام قد ادخلوا في القرآن مطالب اجنبية باسم القرآن؛ ناهيك ان عدداً لا يستهان به من الروايات الواردة في تفسير القرآن الكريم ناظرة الى تطبيق محتواها على المصاديق الخارجية، الذي هو غير التعرض لبيان

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

(٢) سورة الحشر، الآية (٧).

وتفسير الآيات الكريمة.

وحيث ان آراء المفسرين الآخرين من غير المعصومين ليست حجة فلا محذور في قبولها أو رفضها، وان كانت تحترم كرأي علمي وفني، ومن هذه الجهة أيضاً لا منافاة لذلك مع كون القرآن نوراً وتبياناً لكل شيء.

٦ ـ وصف الله سبحانه وتعالى هذا الكتاب الإلهي بأنه كتاب خالد وصالح للبقاء والدوام بمرور الدهر وانه عزيز ومصان ومحفوظ من جميع الأباطيل **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**[١] .

وهناك شبهة ترد ان النسخ في بعض الآيات لا ينسجم مع خلود وأبدية الأحكام الإلهية، وذلك لأن نسخ حكم او قانون معين هو بمثابة ابطال ذلك الحكم والقانون. وبما ان النسخ موجود في بعض آيات القرآن، فهناك مجال للبطلان في القرآن اذن؛ فكيف يصحّ هذا مع الادعاء بعدم وجود طريق للبطلان الى احكام القرآن الكريم؟!

والجواب على ذلك انه وان كان نسخ القانون او الحكم من قبل بعض المقننين أو الحكام يعني ابطال ذلك الحكم او القانون، ولكن هذا الأمر هو من خصائص المورد وليس من لوازم حقيقة النسخ؛ ولتوضيح ذلك نقول: قد يضع المقنن ـ جهلاً او نسياناً ـ قانوناً غير سليم، واثناء التطبيق يظهر خطأ هذا الحكم؛ وحينها يعلن المقنن او الحاكم الغاء ونسخ هذا الحكم ويستبدله بحكم آخر.

وقد يضع المشرع قانوناً خاصاً بما تقتضيه الظروف والأوضاع، وإلى حين تغيير هذه الظروف، مع العلم بأن هذا القانون محدد ويختص بظروف

---

(١) سورة فصلت، الآية (٤٢).

خاصة، وعندما تتبدل هذه الظروف (وكما كان المشرع يعلم ويتوقع ذلك من قبل) فيعلن نسخ القانون القديم بآخر جديد يحل محله. وروح النسخ بهذا المعنى يعني تحديد القانون بفترة معينة؛ ولكن حيث انه كان الظاهر من القانون هو الدوام والشمول يظن مثل هذا انه نسخ للقانون مع ان مرجعه ـ في الواقع ـ الى تخصيص زماني للحكم، لا نسخ له.

وعلى هذا الأساس لا يكون النسخ ناتجاً عن نسيان او جهل المشرع لقانون ما. وعندما يتضح بطلانه يعمل على الغائه ونسخه؛ بل ان جميع النسخ في القرآن هو من هذا القبيل (أي تخصيص زماني) لأن المشرع هو الله تعالى؛ ولكون ذاته المقدسة هي عين العلم والشهادة بذاته وبحقائق جميع الأشياء، لذا فلا سبيل للجهل ولا النسيان الى ذاته المقدسة **﴿وما يَعْزُبُ عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾**[1] **﴿وما كان ربك نسيا﴾**[2].

وهذا المعنى في أنه روح النسخ في القوانين الإلهية (يعني التخصيص الزماني) تارة يذكر في متن القانون السابق، اي حين يوضع القانون الأول ـ يذكر بأن هذا القانون انما يطبق الى اشعار آخر ـ ومن ثم سوف يبدل بآخر يحل محله، ومثل ذلك كمثل الطبيب الحاذق الواعي المطلع على جميع أعراض المريض وكيفية علاجه التدريجي. فيقوم بارشاده الى استخدام علاج معين لحين اعلان النتيجة. ومن الممكن احيانا بان لا يطلع الطبيب المريض على ان هذا العلاج موقف ومحدد بفترة معينة؛ والمراد انه لم يؤخذ في حقيقة النسخ لزوم جهل او نسيان المشرع مما يؤدي لابطال القانون الأول الذي وضع خطأ او نسياناً؛ بل من الممكن ان يكون المشرع مطلعاً،

---

(١) سورة يونس، الآية (٦١).
(٢) سورة مريم، الآية (٦٤).

والمصلحة الواقعية توجب وضع قانون مؤقت الى ان تتغير الظروف، وعندها يتم وضع قانون جديد يحل محله. وقد يذكر المشرع هذا التوقيت في متن القانون السابق؛ كما قال تعالى بصدد النساء اللواتي يأتين الفاحشة: ﴿فأمسكوهن في البيوت... او يجعل الله لهن سبيلا﴾[1].

وتعني الآية ان حكم الحد هو الحبس المؤبد الى ان يجعل الله سبيلاً بوضع حكم جديد، ومثل هذا التعبير كمثل القول عند وضع القانون الأولي: يعمل بهذا القانون حتى اشعار آخر (تفصيل ذلك في كتاب الحدود).

٧ ـ ذكر الله تبارك وتعالى ان ادراك وفهم معاني هذا الكتاب يختص بأولي الألباب حيث يرى الله سبحانه ان القلب هو مركز العلم الحقيقي. اما أولئك الذين قد فقدوا قلوبهم او صارت قلوبهم مريضة فهم محرومون من فهم الأسرار القرآنية. والمقصود من القلب في التعابير العربية اما الفؤاد او تلك الروح المجردة اللطيفة التي اودعها الله سبحانه وتعالى في الانسان، ولها الاستعداد الكامل لتقبل كل أنواع الكمال. وان اي انحراف او فساد او تعلق بالدنيا يبعث على اسقاطها من أوج الكمال أو اللياقة لذلك الى الهاوية.. ويبعث ايضاً على اسدال الحجب الغليظة عليها، فتحجبها عن رؤية الحقائق الربانية، فلا ترى سوى الأهداف الشيطانية التي تنشأ من القوى الباطنية والوساوس الشيطانية وتسعى جاهدة لتحقيقها.

وبما ان العلم والفكر هما موجودان مجردان (معنويان) فلا يكون حصولهما عن طريق العقل او القلب الماديين اللذين يوجدان في جميع الحيوانات بل يختصان بالروح الانسانية المجردة. اذ من المعلوم ان الجهاز

(١) سورة النساء، الآية (١٥).

المادي للعقل ونحو ذلك يختص بانجاز وتأدية الأعمال الفيزياوية ومقدماتها المادية. اما الوجود غير المادي (الميتافيزيقي) فيختص فقط بالروح المجردة.

وعلى الرغم من اننا سنوكل البحث التفصيلي لتجرد الروح وكون استعمال كلمة القلب الواردة في القرآن والحديث تعني نفس الروح المجردة الانسانية، الى المحل المناسب؛ لكن سوف نتعرض هنا الى بعض القرائن التي تدلل على ان المقصود من القلب هو الروح المجردة.

أ ـ ان القرآن الكريم قد نزل على قلب الرسول الكريم ﷺ : **﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾**[1] .

ولا شك ان المعارف والعلوم والأخبار الغيبية التي يشتمل عليها القرآن هي مجردة من الطبيعة والمادة، وكذلك جبرئيل عليه السلام فهو منزه عن الطبيعة والمادة أيضاً، وليس من الممكن ان تترك هذه الأمور المجردة عن المادة والمنزهة عن حدود الطبيعة على القلب الصنوبري او العقل المادي للانسان، مع انه أحياناً عند نزول بعض السور يتم تشييعها بآلاف الملائكة الى ان تستقر في مكانها الأصيل الذي هو القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ . ولا يمكن تفسير النزول بأنه أمر مادي ابدا، او الاعتقاد بأن النازلين بالقرآن ماديون أيضاً.

اذن، فالقلب الذي هو محل لتجلي تلك العلوم والحاملون لتلك المعارف كلهم موجودات مجردة بلا شك.

ب ـ ويعتبر كتمان الشهادة في محكمة العدل اثما قلبيا **﴿ولا تكتموا**

---

(١) سورة الشعراء، الآية (١٩٣و١٩٤).

الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾[1] .

ولا شك في ان الطاعة والمعصية انما يختصان بالروح الآدمية ولا يتعلقان بالأعضاء والجوارح التي هي عبارة عن آلات الامتثال او العصيان للأوامر والنواهي؛ كما وان القلب الطبيعي المادي الذي يقوم بوظيفة ضخ الدم وسائر الأعمال الطبيعية الأخرى لا يوجد هناك تشريع خاص لطاعته أو عصيانه.

اذن، فالمراد من القلب في مثل هذه الموارد هو الروح الانسانية التي تتمثل بها حقيقة الانسان وليس القلب المادي.

ج ـ القلب الذي يتبع الهوى يكون غافلاً عن ذكر الله **﴿ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾**[2] . فلا ريب في كون ذكر الحق تعالى ليس أمراً ماديا؛ ولا تكون الغفلة عنه تعالى أمراً طبيعياً ومحسوساً أيضاً، وان كان منشأها التعلق بعالم الطبيعة المادي، وحيث ان الله مجرد من كل مادة فيكون ذكر الله تعالى والذي هو التوجه اليه والاعتقاد به منزها من المادة بصورة قاطعة، كما يكون القلب الذاكر لله قلبا مجرداً ـ من المادة حتما، حيث ان القلب الذي يغفل عن ذكره تعالى يحرم من تجرده وتحجب الروح المجردة للانسان الغافل بحجاب الباطن، كما ان الانسان الذاكر يكون محفوظاً ومصاناً عن حجب الوهم والخيال. **﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾**. وتنسب الآية الكريمة ذكر الله تعالى الى النفس وهي النفس الانسانية الناطقة التي تختص بذكر الله تعالى والمسؤولة أيضاً عن غفلة

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٣).

(٢) سورة الكهف، الآية (٢٨).

الانسان عنه تعالى.

في المنظور القرآني لا توجد اية علاقة ورابطة للسلامة والمرض مع القلب المادي بينما يعدّ سبحانه وتعالى بعض الموارد أمراضاً للقلب، ويصف ـ أحياناً ـ بعض القلوب بالمرض؛ فتارة يرى العقائد المنحرفة والأفكار الباطلة والايمان غير السليم مرضا، وأخرى يعتبر الأخلاق السيئة والعلاقات الاجتماعية غير السليمة أمراضاً للقلب، وثالثة يعتبر المعاملات السيئة في العلاقات السياسية مرضاً للقلب؛ فيعد مثل النفاق ـ الذي يعتبر من العقائد القبيحة ـ مرضاً **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾**؛ وكذلك انجذاب الانسان لصوت المرأة الأجنبية يعده مرضا. وقد أمر الله سبحانه وتعالى ازواج النبي بأن لا يرقفن اصواتهن اثناء الكلام لكي لا يطمع الذي في قلبه مرض **﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾**[1]. ومنها الميول السياسية السيئة بتولّي الكافرين والأجانب على المسلمين، حيث عدها تعالى مرضاً للقلب، وحذّر أصحابها من أنها ستكون سبباً في ذلتهم.

يقول تعالى: **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله ان يأتي بالفتح او أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾**[2].

في الموارد السابقة الذكر وما شابهها حيث يوجد منها الكثير في القرآن الكريم المراد من القلب هو الروح الانسانية، والا فلا يتمكن اي متخصص حاذق للقلب من تشخيص اثر هذا المرض في قلب المنافق، ولا يمكن لجميع علماء القلب ان يشاهدوا اثر مرض الطمع بالمرأة الأجنبية في قلوب

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٢).
(٢) سورة المائدة، الآية (٥٢).

(من كان بهم مرض)، كذلك لا يمكن لأي طبيب محقق عمل لسنين متمادية في حقل الأمراض القلبية المختلفة، وتعرف على علاج كل مرض ضمن اختصاصه ان يشخص المرض السياسي في قلب رجل السياسة الخائن أو العميل بل قد تكون جميع الفئات التي ذكرناها اما في عنفوان الشباب وتتمتع بسلامة القلب الكاملة او قد وصلوا الى مرحلة الكبر، لكنهم بقوا مصانين من جميع الأمراض المادية للقلب.

فيتضح ان المقصود من القلب في هذه الموارد حيث يوصف تارة بالمرض وأخرى بالسلامة **﴿اذ جاء ربه بقلب سليم﴾**[1] **﴿الا من أتى الله بقلب سليم﴾**[2] هو النفس الناطقة للانسان. وكما لاحظنا في ذيل الآية الكريمة التي تعد الميول السياسية الباطلة أمراضاً للقلب **﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾** ان المراد بالقلب هنا ـ أيضا ـ هو الروح الانسانية المجردة.

٨ ـ ذكر الله سبحانه وتعالى بان القرآن الكريم هو تبيان لكل شيء، ومن الممكن ان يكون المقصود من **﴿تبياناً لكل شيء﴾** هو احتواء القرآن من الناحية العلمية على كل ما هو موجود في العالم التكويني والعالم الخارجي؛ حيث ان هذا الكتاب العظيم تنزل من المقام الأعلى، حيث يوجد في ذلك المقام وجود جمعي لكل الحقائق **﴿وان من شيء الا عندنا خزائنه﴾**[3].

وعلى هذا الأساس، وكما يوجد للقرآن ظاهر أنيق فله باطن عميق أيضا. وتؤيد بعض الروايات ايضا مسألة اشتمال القرآن على كافة علوم عالم

---

(١) سورة الصافات، الآية (٨٤).
(٢) سورة الشعراء، الآية (٨٩).
(٣) سورة الحجر، الآية (٢١).

الوجود. ولكن المحور الرئيسي للقرآن هو تزكية النفس وتعليم الانسان العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، من أجل تحقيق سعادته وايصاله الى هدفه المنشود الا وهو لقاء الله تبارك وتعالى.

واما سائر العلوم المادية والعلوم والصنائع التجريبية والحرف الفنية والآداب والرسوم ونحو ذلك، فانها بعيدة عن الهدف الأصيل للقرآن؛ لذا فان هذا الكتاب الإلهي اهتم وبصورة خاصة بأصل المعرفة وتحديد موازينها ومعاييرها الأساسية وبيان طراز التعقل والتفكير السليم وكيفية استنباطه من المقدمات العقلية، وتجنب التقليد الأعمى والمغالطة في التفكير.. وما الى ذلك من شروط التفكير السليم.

وقد تعرض القرآن الكريم الى أكثر العلوم أصالة وأهمية، الا وهو معرفة الله سبحانه واسمائه الحسنى ومعرفة اسماء الجلال والجمال التي تتصف بها ذاته المقدسة. وتعرض أيضاً الى صفات الذات وصفات الأفعال.. وبيّن التوحيد وأقسامه المختلفة كتوحيد الذات وتوحيد الصفات، والتوحيد الفعلي والتوحيد العبادي.. وتطرق القرآن أيضاً الى كيفية التدبير الإلهي للخلق بواسطة القضاء والقدر واللوح والقلم والمحو والاثبات وام الكتاب والملائكة الذين أوكل اليهم تدبير الأمور، ونظائر ذلك.

وذكر القرآن أيضاً مسألة خلق الانسان وتركيبه من الروح المجردة والجسم المادي وتطوره في العوالم المختلفة، وتتبع مراحل خلق الانسان قبل ولادته واثناء ولادته وحياته (العالم الطبيعي)، وبعد ارتحاله. وانه بالرغم من ان الانسان لم يكن يحمل شيئاً من العلوم المادية والتجريبية لكنه قد تمتع بالعلم الفطري الذي كان رأسماله في معرفة الفجور والتقوى واختيار

الطريق الحر، فلا جبر في عمله ولا تفويض.

وأشار القرآن أيضاً الى مسائل مهمة كثيرة تشكل القسم الأعظم من تعاليم القرآن الكريم. كما تعرض الى الوحي والنبوة والرسالة وسيرة الأنبياء والصالحين والجهاد مع النفس في معركة الجهاد الأكبر، وحرب الظالمين في ميادين الجهاد الأصغر. كذلك ذكر كيفية انتصار الظالمين وعلل انحطاط الظالمين والمترفين والمسرفين، وكيفية الولاية التكوينية، وكرامات ومعاجز الأنبياء العظام والأولياء الكرام.

وبيّن ـ أيضاً ـ الولاية التشريعية للصالحين من العباد، في ادارة شؤون الأمم الاسلامية وتشكيل الحكومات الإلهية، ونحو ذلك بشكل مبسوط.

٩ ـ لقد وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بالنور والهداية وسائر صفات الكمال، ويلزم من هذا التعريف ان القرآن الكريم يشتمل على جميع المعارف والقوانين التي تقود الانسان نحو السعادة والكمال، وانه بمثابة الضياء الساطع في بيانها وتوضيحها، اي انه غني في محتواه ومضمونه عن العلوم الأخرى. كما هو غني أيضاً في دلالته وبيانه؛ لذا فلا يمكن لأحد الا يزيد أو ينقص شيئاً مما جاء في القرآن الكريم، وكذلك لا يستطيع ان يحمّله أسلوباً معيناً في الفهم او دلالة خاصة. ولا يعني هذا بأن يتعامل الانسان مع القرآن تعاملاً جاهلاً، ولا يلتفت الى ما جاء فيه من العلوم والمعارف الإلهية، اي كالطفل الذي لا يعرف شيئا؛ اذ هناك فرق بين التحميل والتحمل؛ والصحيح هو انه ليس من حق احد ان يحمل على الوحي الإلهي شيئاً من الانتاج البشري وتفسير القرآن بالنتيجة حسب الأهواء والميول الشخصية. ومن المعلوم ان تحصيل العلوم الالهية يبعث على اتساع وعاء القلب وانشراح الصدر، وبالتالي تحمل وتفهم معارف القرآن ومفاهيمه

بشكل صحيح: «وان هذه القلوب أوعية فخيرها اوعاها».

كل قلب يتمتع بالعلوم الاستدلالية تكون قدرته على تحمل وتحصيل العلوم القرآنية أكبر. وكلما تدبر الانسان واطلع على آيات الكتاب التكويني لله في مدرسة عالم التكوين ازدادت قدرة تحمله واستيعابه لآيات الكتاب التدويني اذ بانشراح الصدر تتحقق تلاوة القرآن والاستماع اليه والانصات له والميل اليه.

والخلاصة انه من غير الصحيح تجميل العلوم التجريبية ونحوها ـ والتي تتبدل على مر الأزمان ـ على العلوم القرآنية المعصومة من التحول والمصونة من البطلان، وانما الجائز هو تحمل العلوم القرآنية في ظل المعارف والعلوم الانسانية.

١٠ ـ ذكر الله تبارك وتعالى بانه هو المعلم الحقيقي للقرآن الكريم، وجعل التقوى شرطاً لتعلم العلوم الحقيقية حيث قال تعالى ﴿**ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً**﴾[1] ، والفرقان هنا هو النور الذي يميز بين الحق والباطل. والقرآن الكريم هو أهم عامل في تمييز الحق من الباطل. وعند اجتماع هذين العاملين يكمل نصاب التعرف على القرآن فيرتبط قلب الانسان العابد المطهر من كل رجس بمبدأ الفيض تعالى.

وبما ان الانسان، ومثله كمثل الموجودات الأخرى فهو محتاج ذاتاً الى الله تعالى، وهذه الحاجة مقومة وجوده كما ان الغنى وعدم الحاجة عين ذات الله عز وجل.

وعلى هذا الأساس انما يستطيع الانسان ان يحظى بالفيض الالهي

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

عندما يكون مجتنباً للمعاصي والذنوب باستمرار؛ اي ان هذا الشرط كما هو دخيل في الحدوث دخيل أيضاً في البقاء والدوام. ولو فكر الانسان لحظة انه غني عنه تعالى فان هذا التفكير الملوث بالشرك يهيّىء الأرضية لسقوطه، مما يوجب غضبه تعالى ويحق عليه قوله تعالى **﴿فاهبط منها﴾**[1] ؛ وذلك لأن الشرط الوحيد للاستفادة وانتهاك العلوم القرآنية الباطنية والتعرف على ذلك النور الإلهي، هو التقوى. ومن يرى نفسه في بداية الأمر بانه محتاج وفقير الى الله تعالى، ولكن عندما يتعرف على بعض من العلوم والآيات الإلهية يظن بأنه قد استغنى عن الحق تعالى اي ينسلخ عن الآيات الإلهية ويخلد الى الأرض والى عالم الطبيعة **﴿اخلد الى الأرض﴾**[2] فهو لا يصلح أبداً للتلمذ عند الله عز وجل، لأنه ـ وكما ذكرت الآية السالفة الذكر ـ ان الله تعالى انما يعطي الفرقان للانسان المتقي، وفي حالة عدم حصول التقوى او عدم دوامها، فسوف تقطع الفيوضات الإلهية عن ذلك الانسان.

والنتيجة انه وان كان الفاعل (تعالى) تام الافاضة، ولكن قابلية القابل أيضاً امر لازم، لأنه ـ وكما يعتبر القرآن الكريم التقوى كشرط لازم للفيوضات الإلهية على الانسان ـ كذلك فانه يعتبر الطغيان والعصيان للأوامر الإلهية مانعاً عن نيل اي فيض إلهي، وقد قال في مقابل **﴿هدى للمتقين﴾**[3] : **﴿أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها﴾**[4] .

وهذا يعني ان التقوى هي أساس هداية للمتقين، والطغيان والعصيان هي أساس الحرمان والطرد من الرحمة والفيوضات الإلهية؛ اذ انه يترتب

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٣).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧٦).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢).
(٤) سورة محمد، الآية (٢٤).

على اجتناب الذنوب والمعاصي انشراح الصدر، اما عصيان الأوامر الإلهية فتكون موجبة لضيق الصدر وغلق طريق القلب وقفله **﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾**[1] .

ويمكن ان نبين هذا المطلب العميق بشكل قياس منطقي على النحو الآتي: (كل من طغى يحلل عليه غضب الله وكل من يحلل عليه غضب الله فقد هوى) فإذا كانت التقوى هي شرط الرقي والتكامل فان الطغيان أساس السقوط، فكيف يمكن للانسان ان يتمتع بفيوضات القرآن من دون ان يكون واجداً للتقوى او كان واجداً لها وقد انسلخ عنها وظن انه قد استغنى عنه تعالى، وآل الى السقوط بسبب وهمه السرابي هذا.

ان التأثير السيّىء للطغيان كبير جدا، بحيث ذكرت الآية الكريمة سقوط الظالمين بصيغة الماضي (فقد هوى). اذن، بما ان القرآن الكريم هو حبل الله المتين ولا يمكن الاعتصام به الا بالتقوى، وبالتقوى يسمو الانسان ويتكامل كما وعد الله تعالى برفع شأن المؤمنين، وخصوصاً العلماء منهم **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾**[2] .

والطغيان هو عبارة عن عدم التمسك بحبل الله المتين، وبما ان جميع النعم والمواهب هي من عند الله تبارك وتعالى، فمن لا يعتصم بحبل الله وتقواه فقد قطع ارتباطه بمبدأ الكمال والوجود، وسوف يكون مصيره السقوط.

نسأله تعالى ان يمن على الجميع بالقلب السليم والتحلي بالتقوى لكي

---

(١) سورة طه، الآية (٨١).

(٢) سورة المجادلة، الآية (١١).

يستلهموا معارف القرآن وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدرس الرابع

برهان القرآن على التوحيد دليل صدق دعوة الوحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياءِ والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان البحث في صدد التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. واتضحت الى حد ما الخطوط العريضة للتفسير وبيّنت المواصفات التي يعرّف الله القرآن بها ان أحد الأشياء المهمة التي يستند اليها القرآن، هو مسألة الادعاء والدعوة، القرآن الكريم ينطوي على ادعاء ومدعي كما ينطوي على دعوة أيضاً ادعاؤه يكمن في كونه كلام الله ودعوته تكمن في المعارف وأصول الدين.

في صدد هذين الأمرين، يعني الادعاء والدعوة يقول الله تعالى ﴿ولا ريب فيه﴾ ليس فيه اي ريب، لا في ادعاء القرآن ولا في محتوى دعوته، ففي المجال الذي يقول ان هذا الكلام كلام الله ﴿لا ريب فيه﴾ ومن حيث كونه

يدعو الى الدين والتوحيد والوحي والمعاد ﴿لا ريب فيه﴾ فالمحتوى الغني للقرآن مصون من الريب والشك ولا يحتمل الريب كما ان ادعاء القرآن كونه كلام الله لا يحتمل الريب أيضاً، فالسند، اضافة الى المتن. واستناد هذا الكلام الى الله، اضافة الى محتوى هذا الكلام ادعاؤه اضافة الى دعوته، كلها مصونة وليس فيها أية ثغرة.

في صدد إن ادعاءه مصون من الشك. قال في عدة مواضع من القرآن: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾[1] ليس هناك أي تردد في كونه كلام الله. ذلك لأنه ليس هناك انسان يتحدث بهذا الأسلوب.

لقد دعا القرآن كافة النوابغ البشرية الى منازلته ومناظرته ـ فقال ـ اذا ساوركم التردد في كون هذا الكلام كلام الله وتقولون من الممكن ان انساناً قد صنع هذا الكلام. وعمد الى نسبته لله عز وجل فأنتم أيضاً آتوا بمثل هذا. هاتوا كتاباً على شاكلة القرآن، أو عدة سور على شاكلة سور القرآن، او على الأقل سورة واحدة مثلها.

ولأنه قد ثبت شمولية القرآن وديمومته سابقاً، فان التحدي والدعوة الى المناظرة هو الآخر. شمولي ودائمي بمعنى انه يدعو كل شعوب العالم الى المناظرة وفي جميع الأعصار. بأن آتوا بمثله ولأنه ليس في مقدور أي انسان. ان يتحدث بمثل هذا الحديث، فيثبت بهذا أن هذا الكلام كلام الله بدون أي تردد ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾.

عندما يكون الحديث مستنداً الى الله. فإن اي شكل من أشكال التردد لا يجد طريقاً الى مدلوله ومحتواه بمعنى ان كلام الله يكون محكماً بالدرجة

---

(١) سورة يونس، الآية (٣٧).

التي لا يحتمل فيها الريب والشك وبالنتيجة. فان دعوته مصونة من التردد أيضاً. يعني ان القرآن يدعو الى التوحيد والوحي والرسالة والدين والمعاد. ففي صدد دعوة القرآن أيضاً يقول الله عز من قائل ليس فيه تردد. فلا التوحيد قابل للشك والتردد ولا أصل الدين والوحي. ولا المعاد.. ولا البداية ولا النهاية ولا الطريق بين البداية والنهاية.

قال عز وجل حول التوحيد: **﴿أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾**[1]. ليس هناك تردد أبداً في ربوبية الحق وان الله رب العالمين حينما لا يكون ثمة تردد في ربوبية الله. ففي خالقيته ليس ثمة تردد أيضاً. لأن الموجد لا بد ان يكون مربياً فيجب على من أوجد وخلق أن يربي وينمي واذا لم يكن هناك تردد في ربانية الله وكونه ربا للعالمين فلا تردد أيضاً في ايجاده للكون وخالقيته له. وإذا لم يكن ثمة تردد في خالقية الله. فلن يكون هناك تردد في وجود الله وكونه حقيقة موجودة أزلية، لأنه يلزم ان يكون أزلياً بالذات. حتى يستطيع ان يخلق وبعد ذلك يربي، فالتوحيد لا يحتمل الشك بشيء من التأمل يثبت ان العالم يستند الى مبدأ واحد. وبدون هذه الحقيقة المحضة.. لم يكن ليتحقق ولا ليستطيع التحرك نحو الكمال أو يتمكن من الدوام ولا بد من البحث بصورة شاملة في صدد كل واحدة من هذه الأمور.

ليس هناك تردد في شأن أصل الدين والكتاب، فالدين لا يحتمل الشك. لأنه حق. **﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾**[2]. والحق لا يعتريه الباطل.. وعلى غرار ما مرّ بحثه سابقاً ليس هناك غموض وابهام في التبيان. اذا كان هذا الكتاب حقاً والدين حقاً، فليس هناك مجال للتردد لذا قال تعالى

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (١٠).

(٢) سورة الرعد، الآية (١).

في أول سورة البقرة ﴿ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾[1] هذا الكتاب لا يحتمل الريب لا في ادعائه ولا في دعوته لا بلحاظ كونه يدعي انه كلام الله قابل للريب ولا بلحاظ دعوته فتلك الدعوة ومدارها غير قابلين للريب.

ويقول تعالى حول المعاد الذي هو الأصل الثالث أيضاً: القيامة لا تحتمل الريب ولا تقبل الشك ﴿ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾[2] فلا التردد يتسرب الى أصل القيامة، ولا ان يوم القيامة هو ظرف للشك، ذلك لأنه يوم ظهور الحق، والشك لا يجد طريقه في يوم ظهور الحق ليس هناك شك، لا في أصل القيامة ولا في الظرف الذي تتحقق فيه القيامة، في ذلك اليوم يدرك الجميع حتى الكافر والمنكر والمادي. الكل يدرك.. بأن العالم كان له مبدأ ولا يزال فيقولون ﴿ربّنا أبصرنا وسمعنا﴾[3].

وعلى هذا الأساس. فالقرآن الذي ينطوي على ادعاء ودعوة. لا تردد في ادعائه ولا في دعوته. واذا وجد شك وتردد فانما منشأه عدم أعمال الدقة والتدبر، منشأه العمى وفقدان البصر لا ضعف النور أو وجود الظلمة او الابهام، كلا. ليس هناك اي تردد في دائرة القرآن. ذلك انه اذا ادعى فانما يدعي والدليل معه واذا قام بدعوة ما ففي نطاق البرهان يقوم بدعوته، اذا كان يقول ان هذا الكلام كلام الله. فمع الدليل القاطع. يقول ذلك.. واذا قام بالدعوة الى الله والدين والقيامة، فمع البرهان يقوم بدعوته. ولهذا عبّر الله عن القرآن بأنه برهان، قال تعالى في سورة النساء ﴿يا أيها قد الناس جاءكم برهان من ربكم﴾[4] البرهان يطلق على ذلك الدليل الباهر والحجة الظاهرة

(١) سورة البقرة، الآية (١و٢).
(٢) سورة آل عمران، الآية (٩).
(٣) سورة السجدة، الآية (١٢).
(٤) سورة النساء، الآية (١٧٤).

والفصيحة والواضحة والقطعية.

البرهان يعني الظهور وهو يطلق على الشيء الذي لا يكون مبهما أو مظلما بل يكون نوراً واضحاً قال الله في شأن كليم الله موسى سلام الله عليه الذي بعث مع العصىٰ واليد البيضاء. ﴿فذانك برهانان من ربك﴾[1]. هاتان المعجزتان برهانان. كل واحدة منهما برهان لا يحتمل الشك.

القرآن برهان، يعني اذا قال بأنه كلام الله فانما يقول ذلك بالدليل القطعي وآية ذلك انه دعى كافة شعوب العالم الى منازلته. فقال آتوا بمثل هذا الكتاب ولو بسورة واحدة إن أمكن. وقال: لن يكن بمقدوركم ان تتحدثوا بمثله، واذا دعى الى التوحيد والدين والوحي والرسالة والمعاد. فإنما دعا الى ذلك مقروناً بالدليل.

وإذا اقترن محتواه بالأدلة وادعائه بالدليل، فبالضرورة ستكون دعوته مقرونة بالبرهان أيضاً.

وإذا كان الادعاء والدعوة مع البرهان. يمكن ان يقال حينئذٍ ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ لا يجد أي شك وأي ريب طريقا اليه، واذا وجد الشك فانما سببه عدم اعمال الدقة بالنسبة للمنكرين والغافلين، وقال عز وجل: ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾[2]. أولئك الذين قالوا: ﴿وانا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾[3].

ودعوة القرآن وادعائه انه ليست هناك أيُّ عقيدة لم يتحدث بصددها

---

(١) سورة القصص، الآية (٣٢).
(٢) سورة التوبة، الآية (٤٥).
(٣) سورة ابراهيم، الآية (٩).

القرآن؛ فإذا كانت على حق أيّدها، واذا كانت على باطل نفاها، ليست هناك عقيدة ترتبط بالايمان والاعتقاد، سواء في الماضي او المستقبل، الا وأبدى القرآن. وجهة نظره فيها ولم يسكت عنها لأنه بيّن جميع المعارف والعقائد البشرية التي لها دور في سعادة البشر وشقائه ﴿تبياناً لكل شيء﴾.

ليس بالامكان وجود عقيدة في العالم «سواء كانت حقاً» وباطلاً، ولم يثبتها القرآن وينفيها من خلال بيان خطوطها العريضة، ولأن هذا الكلام كلام الله بصورة قطعية وجزمية. قال: ليس إنه لم ينسب هذا القرآن الى الله افتراء فحسب بل ليس بمقدور احد ان يضع مثل هذا الحديث وينسبه الى الله أساساً حديث الله لا يقبل الوضع؛ الانسان يستطيع ان يحوك بساطاً، أو يحدث بناءً، او يخلق صناعة مبتكرة، بيد أنه لا يستطيع ان يوجد المنظومة الشمسية.

يقول: يستطيع الانسان ان يدوّن كتاباً، أو ينشيء حديثاً، ولكنه لن يستطيع ان يتكلم بحديث كالقرآن لأن القرآن عصارة عالم الوجود لا يمكن ان يقدر أحد على أن يتكلم بمثل القرآن وينسبه الى الله، لهذا قال ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾[1].

تارة يقول الانسان «لم يقم زيد» وأخرى يقول «ما كان ليقوم» هاهنا لم يكتفِ بالقول ان هذا القرآن لم يفتر على الله بل قال: انه غير قابل أيضاً لأن يفتري عليه. من المحال ان يعدّ مثل هذا الكتاب وينسب الى الله فهذا الكلام محكم ومتين الى درجة بحيث لا يستطيع أحد ان يتحدث بكلام مثله، فضلاً عن ان الآتي بهذا الكتاب كان أمياً أيضاً. ولم يكن قد تعلم وهذا يضاف الى

---

(١) سورة يونس، الآية (٣٧).

جنبة اعجازه، فبالاضافة الى ان الكلام معجزة، المتحدث بهذا الكلام معجزة أيضاً اتيان الرسول الذي لم يتعلم بمثل هذا الكتاب من قبل الله هو معجزة ونفس هذا الكتاب هو معجزة أيضاً لأنه تارة يكون الكلام معجزة وأخرى التكلم وثالثة كلاهما.

أحياناً يكون الكلام غزير المعنى ويكون كلام الله كمثل الذي سمعه كليم الله موسى عليه السلام فقد كان هذا الكلام كلام الله لا كلام غيره والذي هو كلام معجزة وأحياناً يكون التحدث نظير الذي قاله المسيح عليه السلام، ذلك لأن الصبي الذي يتحدث في المهد هو معجزة ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾[1] هنا التكلم معجزة. وفي قصة موسى كان الكلام معجزة لكن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي هو جامع لكل الكمالات بالاضافة الى كون كلامه معجزة فتكلّمه معجزة أيضاً.

فنفس هذا الكلام فريد من نوعه ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله وكذلك فالرسول الأمي الذي لم يتعلم اذا تكلم بهذا الكلام يعتبر معجزة أيضاً، لذا أشير في القرآن الى هذين النكتتين أحياناً يقول: نفس هذا الكتاب معجزة، واحياناً يقول: الآتي بهذا الكتاب الذي هو أمي ولم يتعلم باعث على الاعجاز. وهذا جمع بين هاتين المعجزتين.

عندما اتضحت الخطوط العريضة للقرآن بأن ادعائه لا يحتمل الريب ودعوته أيضاً لا تقبل التردد فلا بد من البحث بدقة في صدد دعوته لأن ادعاء القرآن حول دعوته هو كونها برهاناً أي أن كل ما ورد من كلام ومطالب فهي إنما وردت مع الدليل وبما أن المطالب الأصلية للقرآن هي نفس أصول

---

(١) سورة مريم، الآية (٢٩).

الدين وسائر المسائل لا بد ان تعود الى هذه الأصول فبالضرورة ان تطرح البحوث التفسيرية أيضاً في الخطوط العريضة وأصول الدين. يعني في التوحيد، النبوة والمعاد، وكذلك حول تلك المطالب التي ترجع الى هذه الأصول.

في صدد التوحيد اذا أثبت الله في القران وجود الذات الغنية الصرفة البسيطة فإن مشكلة الوثنيين ونظائرهم ستكون محلولة هؤلاء كانوا مستشكلين في التوحيد الربوبي يعني يتصورون ان العالم تديره عدة مبادىء. الرب والمالك والمدبر للعالم، هو عدة موجودات لكن اذا أقام البرهان على التوحيد الربوبي بأن عالم الخلائق يديره مبدأ واحد لا غير وكل الفيوضات والوجودات تصدر من رب واحد. فسوف يثبت بالضرورة ان هذا الرب الواحد غير محتاج الى الغير ذاتاً. وسيكون وجوداً أزلياً محضاً.

وهو يقيم البرهان لأجل اثبات هذا المطلب بان العالم يستند الى مبدأ واحد وخالق موحّد ويقول: اولئك الذين لا يؤمنون بالله ويعتقدون به اما يتوجب عليهم ان ينكروا نظام العلية والمعلولية. ويقولوا ان العالم يتحرك على نحو الصدفة والطالع الأعمى وأما إذا أقرّوا بقانون العلية، فلا بد ان يؤمنوا ان أية حادثة لا تحقق بدون فاعل. ولا بد أن يجيبوا على هذه الأسئلة.

قال الله عز من قائل في سورة الطور ﴿ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون * ام خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون﴾[1] .

يعني ان أولئك المنكرين لربوبية الله وبالنتيجة فهم لا يعبدونه يجب ان

(١) سورة الطور، الآية (٣٥و٣٦).

يقولوا أنهم خلقوا بأنفسهم من دون فاعل مع انه لا توجد أي ذرة دون فاعل. واذا قبلوا انه لا يوجد اي مخلوق من دون علة فاعلية فيجب ان يجيبوا على هذه الأسئلة انه من خلق الانسان ومن خلق العالم الخارجي انتم الذين لا تعتقدون بالمبدأ ولا بالدين والوحي ولا تلتزمون بأوامر السماء لما يجب ان تقولوا ان لا خالق للعالم او تقولون انه موجود ان لم يكن هناك خالق فهذا يعني انكم تنكرون قانون العلية والمعلولية وانكم قائلون بالصدفة. واذا كان هناك خلق والفعل قد حصل دون فاعل فأجيبوا على هذين السؤالين انه من خلق الانسان ومن خلق السماوات والأرض ولأن المادي والمنكر لقانون العلة والمعلول غير منكر للمادة فهو يقول: ان هذه المادة على أثر الحركة العمياء والاعتباطية ستكون لها حوادث تكون هي النتائج المترتبة عليها فعلى كل حال سوف تأتي حادثة الى الوجود، وليس هناك حساب ونظام في العالم يقول المادي والمنكر للمبدأ. ولقانون العلة والمعلول. والذي يعتبر المادة هي المبدأ يقول: هذه المادة اللاشعورية مع حركتها الغير دقيقة تنطوي على نتائج ومخلفات.

يقول القرآن: هل مفاد كلامكم انكم خلقتم بلا فاعل؟ هل هناك دور لنظام العلة والمعلول بصفتها علة فاعلية ام لا؟ اذا لم يكن من دور لقانون العلية والمعلولية فلن يتقدم اي بحث خطوة واحدة الى الامام لأن الذي يريد ان يثبت مطلباً فانه يبدأ بالحديث في دائرة قانون العلة والمعلول ذلك لأنه في اعتقاده اذا رتبت مقدمتان في جوار احداها الأخرى كانت العلة في تحقق النتيجة. في اعتقاده عندما يقوم الدليل، فان الدليل الذي هو سبب المدلول وموجده يثبت ذلك المدعى.

اذا صار احد الى انكار العلة والمعلول ولم يقبل بهذا القانون فلا

يمكنه ان يتكلم بعد، ولا يمكنه ان يستمع الى اي كلام، ولا يمكنه ان يناقش، لأن هذه كلها علة فاعلية لحصول النتيجة اللاحقة غاية الأمر أنها علة قريبة، وان كانت علة معدّة لكنها بالنتيجة فاعل ضعيف. لا أنها علة قابلة للحركة فقط فللتحدث دور في الافهام، وللاصغاء دور في الفهم، وللتدبر دور في التوصل الى الدليل، وللاستدلال دور في اثبات المدعى، وهذه كلها ادوار فاعلة لا ادوار قابلة. الحديث، علة مادية، اما التحدث وايجاد الصوت وصناعة الحديث فهي علة فاعلية واذا أنكر الانسان قانون العلية والمعلولية فلا يمكنه ان يبحث على الاطلاق. لمولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام كلام في نهج البلاغة يقول «كل قائم في سواه معلول»[1]. وعلى هذا الأساس كل موجودات العالم ما سوى الله معلولة. وهذا الكلام في الخطبة التي تبيّن فيها التوحيد بصورة معمقة. وهي من الخطب الطويلة والعميقة في نهج البلاغة. «كل قائم في سواه معلول» فكل موجود غير الله اذن معلول، الله علة لكونه عين الوجود وكل ما سواه معلول لأنه فقير ومحتاج ذاتا اذ كل ما يقوم بغيره معلول.

على هذا الأساس اذا لم يؤمن المادي المنكر لله بقانون العلية والمعلولية فلا يمكن المناقشة معه ولا يستطيع هو بنفسه ان يتدبر واذا آمن بقانون العلية والمعلولية. وتقبّل بأن كل فعل يحتاج الى فاعل والموجود الحادث يحتاج الى محدث فلا بد له ان يجيب على هذين السؤالين: من خلق البشر ومن صنع نظام النجوم والأرض؟.

لهذا في الآية الكريمة لسورة الطور اختصر المطلب في أربعة جمل: ﴿ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون * ام خلقوا السماوات والأرض بل

(1) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٨.

لا يوقنون﴾.

أولا: هل خلقوا من غير عامل ووجدوا على نحو الصدفة؟ هذا غير صحيح.

ثانياً: من خلق هؤلاء خلقوا بأنفسهم فهذا يستدعي الدور هل خلق هؤلاء من هو مثلهم فهذا يستدعي التسلسل، من أوجد هؤلاء؟ من خلق الانسان؟ الانسان بنفسه خلق الانسان؟ يعني الفعل عين الفاعل إذاً هو قبل ان يصير موجوداً لا بد ان يكون حاصلاً حتى يخلق نفسه. يعني في الوقت الذي هو معدوم. لا بد ان يكون موجوداً حتى يبدأ بالعمل. وهذا يستدعي الدور، يعني جمع بين النقيضين ام لا؟ هل خلق هؤلاء شخص آخر أو أشخاص آخرون ممن هم نظائرهم؟ الآخرون هم أيضاً محتاجون مثل هؤلاء والموجود المحتاج لن يرفع حاجة فقير آخر فالانسان إذاً لم يخلق نفسه ولم يخلقه انسان آخر أيضاً. فعلى هذا الأساس تحتاج خلقة الانسان الى سبب.

الثالث: من خلق هذا النظام الواسع لعالم الخلقة؟ أنتم الذين تعتدون بأنفسكم كثيراً ولا تحترمون اي دين؟ وغير تابعين لأي قانون سماوي أنتم خلقتم ذلك؟ **﴿ام خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾** فهؤلاء ليسوا من أهل اليقين بل لديهم شك، لا يعرفون ماذا يقولون ولا ماذا يصنعون، ولا بأي اتجاه يتحركون، ولا يدرون من اين قد أتوا.

على أساس هذا البرهان، يجب على الانسان الماركسي والمادي أما أن ينكر قانون العلية ويذهب الى القول بالطالع والصدفة. ويقول ان الظواهر مصنوعة بنفسها وهي غير محتاجة الى الفاعل، وأما ان يذهب الى القول باحتياجه الى الفاعل، واذا أنكر العلة والمعلول ولم يؤمن بنظام العلة

الفاعلية، فمن غير الممكن المناقشة معه، ولا اقناعه، ولا يستطيع هو بنفسه ان يتأمل الحقيقة. لأن التفكير عبارة عن مقدمات تكون علة لتبيّن النتيجة؛ واذا لم يتحقق القبول بقانون العلية الفاعلية فلن يكون بالمستطاع السير من المقدمات الى النتيجة.

«واذا آمن بقانون العلة الفاعلية واعتقد بأن أي حادثة لا تتحقق بدون علة الا الموجود الذي هو ليس بحادث، يعني الذي وجوده المحض عين حقيقته وهو الله، اذا أقر بهذا المعنى بأن أي موجود لا يتحقق بدون علة فاعلية فلا بد ان يجيب على هذه الأسئلة بأنه من خلق البشر؟ ومن أوجد النظام لهذا العالم الفاني؟.

السبب في ان الانسان المادي لا يخضع لقانون الله إما أنه لا يعد نفسه مخلوقاً ولا يؤمن بأصل العلية وأما لأنه يتصور انه خالق لنفسه بعد القبول بأصل العلية وأما لأنه لا يؤمن بأصل الخلقة من الأساس وكل هذه الفروض باطلة.

﴿بل لا يوقنون﴾ العلة في عصيان هؤلاء يكمن في انعدام اليقين عندهم، انكارهم أيضاً يعتريه الشك. لأنه عندما يفتقد الدليل لا يبقى هناك مورد للطمأنينة وهدوء النفس لأجل اثبات التوحيد تارة يبدأ الله من الوحدة الى الكثرة، وأحياناً من الكثرة الى الوحدة أحياناً يقول: ان ذلك الترابط والانسجام الخاص، الكائن في النظام يؤشر على وجود منظم ومنسق واحد. وأحياناً يقول: هذه الموجودات الكثيرة التي ترتبط كل منها بناحية معينة تدلل على وجود منظم ومنسق واحد في سورة الرعد استدل الله على التوحيد من خلال هذين الطريقين.

الأول: من طريق الوحدة الى الكثرة.

الثاني: من طريق الكثرة الى الوحدة.

أما الأول، قال: **﴿وهو الذي مَدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[1]. من ناحية القانون الزراعي أوجد في هذه المخلوقات الانسجام بشكل **﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾** ومن ناحية النجوم والهيئة. قام بتنظيم المنظومة الشمسية والأرض والنجوم على النحو الذي يتحرك فيه الليل والنهار على التعاقب في نظام محدد **﴿يغشي الليل النهار﴾**.

احياناً تغطي ظلمة الليل الوجه المضيء للنهار، وأحياناً بالعكس. يعني بهذا الشكل الذي يكون الشروع فيه من نقطة واحدة محددة، ويعود مرة أخرى الى نفس النقطة المعينة ضمن نظام خاص. في بعض الأحيان يتدلى الليل في النهار من الطرفين. حتى تكون النهارات قصيرة والليالي طويلة. **﴿يولج الليل في النهار﴾**[2] وفي بعض الأحيان يتسع النهار في الليل من الطرفين **﴿ويولج النهار في الليل﴾**[3] بان يكون قوس النهار طويل وقوس الليل ضئيل وقصير. مع هذا النظام والمراقبة الخاصة يدير الليل والنهار. **﴿ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.

اما الثاني فقال: انتم تشاهدون نمطاً واحداً من الاستعدادات المتشابهة الى جانب بعضها ترون في الأرض الواحدة انه قد أحدث فيها قطع مختلفة

---

(١) سورة الرعد، الآية (٣).
(٢) سورة الحج، الآية (٦١).
(٣) سورة الحج، الآية (٦١).

من البساتين المتنوعة ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات**﴾[1] قطع متعددة من الأرض متجاورة ومتقاربة. ولكن مع ان هذه الأراضي متجاورة وتتمتع باستعداد واحد خاص. مع هذا ستكون هناك بساتين مختلفة في نفس هذه القطع المتجاورة ترفل بالخضرة اليانعة ﴿**وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾[2] . هذه الأرض مستعدة لتقبّل الفواكه المختلفة. وتتقبل اي فاكهة واي لون وطعم يعطى اليها. من هو هذا المبدأ الذي خلق هذه الفواكه المتنوعة مع هذه الأطعمة والخواص اذا كانت نفس العلة المادية كافية لطلوع ونمو الأنواع المختلفة للفواكه فهذه الأتربة على صعيد واحد في كافة البساتين. فكيف تصير هذه التربة تفاحاً عند شجر التفاح وتصير سفرجلاً عند شجر السفرجل مع ان تلك تستطيع ان تكون سفرجلاً أيضاً. وهذه تستطيع ان تكون تفاحاً فمن ذا الذي يخلق التفاح ويضفي على هذه التربة هذه الصورة ويخلق السفرجل ويضفي على تلك التربة هذه الصورة.

اذا كانت المسألة مسألة الأخذ، فالآخذ واحد في كل القطع المجاورة لهذه التربة. اذا لم يكن هناك يد من الخارج تمنح هذه الاستعدادات فيوضات خاصة. فكيف تطلع هذه الفواكه المختلفة الى الوجود لأن كل الأتربة التي توضع الى جوار بعضها تملك استعداداً خاصاً في الحصول على الفاكهة. هذه البذور التي تمثل الرابط بين التربة والصورة المستقبلية. هي الأخرى قابلة وآخذة معا إنها غير معطاءة. المعطي والمصوّر وجود آخر. هو نفس المبدأ الذي يمنح الصورة للانسان ﴿**هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء**﴾[3] ، الله يضفي على هذه الفواكه صور مختلفة ومن ماء واحد

(١) سورة الرعد، الآية (٤).
(٢) سورة الرعد، الآية (٤).
(٣) سورة آل عمران، الآية (٦).

تصبح مترعة بالخضار **﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**[1] .

اذا وجد التفكر والتعقل فبالامكان التوصل من تلك الوحدة الى هذه الكثرة والى ان الله هو المدبّر والموحّد لهذا الانسجام. وبالامكان أيضاً التوصل من هذه الكثرة الى ذلك الواحد والى ان المنعم هو الله.

الخلاصة، ان ادعاء القرآن غير قابل للتردد ودعوته لا تحتمل التردد ذلك لأن ادعاءه مقرون بالدليل والبرهان القطعي ودعوته ومحتواها أيضاً كذلك.

نأمل ان يبعث القرآن الذي هو نور الله اشعاعه على قلوب الجميع وقلوب كل المستعدين وان يعودوا بيد ملأى من مائدة القرآن بصورة كاملة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الرعد، الآية (٤).



الدرس الخامس

العالم آية وجود الحق تعالى

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

استنتجنا من بحث الجلسة السابقة ان للقرآن الكريم دعوة ودعوى؛ ودعواه انه كلام الله، ودعوته: الى المعارف والأصول الدينية، أي: التوحيد والوحي والرسالة والنبوة والمعاد.

قال تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ اي لا ريب في دعوته ولا في دعواه؛ فهو محق في دعوته صادق في دعواه، لأنه يدعو الى الحق، فخلاصة دعوته هي أصول الدين والتي تتبعها وتنبثق عنها المسائل الاخلاقية والأحكام أيضاً.

وقد أقيم الدليل على توحيد الله في الجلسة السابقة؛ وموضوعنا في هذه الجلسة هو ان القرآن يعتبر التوحيد مسألة واضحة بيّنة، ويرى الشك في ذلك قريناً للشرك وملازماً له، اي ان الشرك لا ينهض بدليل. . . فإذا ما أقام مشرك او مادي دليلاً، فهو وهم يحسبه دليلاً وليس دليلاً حقاً؛ فلا المسائل

التوحيدية تقبل الشك ولا المسائل المادية والشرك تستند الى دليل. قال عن التوحيد: **﴿شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾**[1] .

فالالوهية تشهد بالوحدانية، اي ان حقيقة الوجود تشهد بوحدتها كما ان كل موجود في العالم يشهد بوحدانية الله سبحانه وتعالى.

وحول شهادة أصل وجود الباري على وحدانيته وفردانيته لا بد من طرح بعض المطالب يقول القرآن الكريم عن الشرك والثنائية وأمثالها: **﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾**[2] .

(أي: من يتخذ مبدءاً أو إلهاً غير الله، والذي لازمته عدم الدليل فحسابه عند الله) فانعدام الدليل ملازم للشرك حسب التعبير القرآني، ولا يستند انكار الباري الى دليل، فلازمة الشرك الشك وانعدام الدليل كما ان لازمة التوحيد هو الدليل والبرهان.

قال في سورة آل عمران ان حقيقة الحق تشهد على وحدانيته، والملائكة وأولو العلم يشهدون أيضاً ولا ريب ان شهادة الله على وحدانيته تختلف عن شهادة الملائكة وأولي العلم، الأمر الذي يمكن الاستفادة منه من القرآن كشاهد كوني هو ان القرآن الكريم يعتبر كل ما سوى الله ـ كائناً ما كان ـ آية وعلامة أو دليلاً عليه، ولا يوجد شيء في عالم الخلق لا يكون آية او علامة او دليلاً على الله، او أن يكون من جهة آية ودليلاً ولا يكون كذلك من جهة أخرى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (١١٧).

فالآية والعلامة على أقسام:

الأول: الآية والعلامة الاعتبارية أو الوضعية، والتي تعود الى اعتبار مجتمع خاص واصطلاحه ووضعه، كالعلم ذي الألوان الثلاثة يجعل رمزاً للأمة، او النجوم المعدنية دليلاً على رتبة عسكرية معينة، او الاشارات الضوئية المستخدمة في المرور فكل هذه العلامات وضعية وجعلته يعتد بها تارة ولا يعتد بها أخرى، أي حسب الوضع والاتفاق فيختلف اعتبارها بحسب الأزمان والمناطق.

وهذا النوع من العلامات غير معتبر من وجهة العلوم العقلية.

القسم الثاني: الآية التكوينية والواقعية [ولكن في موضع خاص] مثل اخضرار العشب، ونمو النبتة، وتفتّح الزهرة، ونضج الثمرة دليلاً على الارتواء؛ فإذا ما اخضر عشب او نمت شجرة او نبتة او وردة دل ذلك على وجود الماء والارتواء، بخلاف ذلك عندما تذبل النبتة وتيبس الثمرة فلا يعود هناك دليل على وجود الماء.

وهكذا ارتفاع الدخان من مكان دليلاً على النار.. فمثل هذه العلامات ليست وضعية، فنمو النبات والثمار والازهار دليل على الماء في كل زمان ومكان، وكذلك الدخان على النار، ولا يتبع مقررات منطقة معينة او اتفاق مجموعة من الناس؛ لأنه أمر تكويني لا يخضع للاتفاق والاعتبار بل هو آية موسمية ودلالة فصلية.

أما في نظر القرآن فجميع المخلوقات وعالم الامكان آيات وعلامات على وجود الله سبحانه. فهي آيات تدل على وجود الله تعالى، ولكن لا من قبيل القسم الأول من العلامات، ولا من قبيل القسم الثاني، بل بهذا

المعنى: اذا كان الماء دليلاً على وجود الله فمن جهة ان الله هو الذي خلقه، ولو كان الانسان آية من آيات الله فلأن الله هو الذي أنشأه، وان كانت الأرض والنجوم علامات على وجود الاله الواحد فذلك لأنه هو الذي ابتدعها جميعاً.

وهذا النوع من الدلالة ليس اصطلاحياً أو اعتبارياً، فلم يوقّع اتفاق على ان تكون النخلة دليلاً على خالق النخل.. وهكذا سائر ظواهر العالم، بل بما أنها مفتقرة - ذاتاً - الى ذات غير مفتقرة فقد كانت دليلاً عليه وآية وعلامة فالانسان بما أنه مفتقر ومحتاج فهو دليل على وجود خالقه الغني والمنزه عن النقص والاحتياج.

وهكذا فكل واحدة من هذه العلامات ليست من قبيل القسم الثاني الذي تكون الدلالة فيه موسمية وفصلية. فما دامت الشجرة نامية فهي دليل على الماء، وما دامت خضراء دلت على الماء، أما لو ذبلت وضعفت فلا تعود دليلاً على الماء أيضاً، ولو يبست وصارت حطباً واحترقت واستحالت رماداً لم تعد دليلاً على الماء. ولكن نفس هذه الشجرة - مثلاً - وفي كل الحالات، شجرة كانت او حطباً ورماداً، وبأية كيفية وكمية.. ومع فقدان أية صفة او اكتساب صفة جديدة.. آية من آيات الله القادر المتعال؛ لأنها مفتقرة في جميع الأحوال، ويحيطها الفقر والحاجة من كل جانب.

فهذه الآية والعلامة تدل على الله تعالى دوماً، لا أنها تكون علامة وآية في بعد منها ولا تكون كذلك في بعد آخر؛ أي كأن تكون في صفتها محتاجة ومفتقرة الى الله ولا تكون كذلك في الذات؛ لأنها ان لم تكن في ذاتها مفتقرة الى الله يلزم من ذلك ان تكون مستقلة من حيث الذات، ولا تستند الى جهة، وهذا محال. وكما أشار العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) في تفسيره

القيم (الميزان) فان ما يستفاد من القرآن الكريم ويفهم: ان جميع الموجودات محتاجة الى الله تعالى في ذواتها وصفاتها، ولم يستثن القرآن الكريم بعداً او جهة فيها من اتخاذها آية وعلامة ودليلاً. ان القرآن الكريم يعتبر كل ما في السماوات والأرض آية لله القادر المتعال فكل المخلوقات آيات وعلامات لله. ولو لم يكن شيء آية من جهة لكان مستقلاً بنفسه من تلك الجهة ـ حتما ـ ولا يجتمع الاستقلال في الوجود مع الفقر الذاتي أبداً.

وبناء على هذا، فالتوحيد لا يقبل الشك، وكل موجود لم يكن ثم كان، او كل موجود وجوده ليس عين ذاته، يجب ان ينتهي الى مبدأ إفاضة الوجود، بلا واسطة او مع الواسطة. وكل كمال لا بد منتهٍ الى المبدأ المتعال...

ووفقاً لهذا التحليل، ما من بعد في العالم الا وهو آية لله تعالى فلو بنينا مؤسسة وغطينا سقفها وسطحها بعلم البلاد ذي الألوان الثلاثة فكل ما نرى فيها يدل على استقلال البلاد. فالجميع دليل على موضوع واحد ومطلب واحد.

فالانسان المؤمن والعارف والموحد الذي غاية أمله معرفة الله، كما ورد في دعاء كميل عن أمير المؤمنين علي عليه السلام «يا غاية آمال العارفين»، مثل هذا الانسان يرى في كل ما يشاهد آية ودليلاً الى الله؛ سواء كان سفره داخل نفسه وغوصه في أعماق ذاته: «عرفت الله بفسخ العزائم»[1] و«من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2] أو خارج نفسه وذاته. فكل ما يراه موجودات وجودها ليس عين ذاتها، وهي محتاجة الى من يهبها الوجود والذي هو عين

---

(١) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ الحكمة ٢٥٠.
(٢) الغرر والدرر.

الوجود والذي لا يمكن الا ان يكون واحداً.

وهذا التوحيد لا يقبل الشك كما ان الشرك أيضاً لا يقبل البرهان. ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾[1].

وقد أوضحت بعض المطالب من القرآن الكريم حول اثبات المبدأ ونفي الشرك في الجلسات السابقة؛ فقد ذكر القرآن الكريم انه ما من عقيدة في العالم كان لها دور سلبي أو ايجابي في اسعاد البشر في الماضي او في المستقبل الا واعطى القرآن رأياً فيها، ان كانت صحيحة فبالاصابة وان كانت باطلة فبالنفي والابطال.

ولأن الله سبحانه أنزل هذا الكتاب للعالمين الى يوم القيامة ويؤكد دوماً على شموليته واستمراريته، ولأنه أيضاً عالم الغيب والشهادة بحق وهو مطلع على خفايا أفكار البشر من حق او باطل، فقد نظم القرآن بصورة يمكنه ان يحكم بين جميع المذاهب والمسائل البشرية المختلفة وان يكون ميزاناً صحيحاً لتمييز حقها من باطلها.

وبناء على هذا، لا يمكن القول ان القرآن نزل قبل ١٤٠٠ سنة وان عقائد ونظريات مختلفة قد طرحت من ذلك الحين الى الآن فكيف يمكن للقرآن ان يحكم بخصوص النظريات التي تلت نزوله، وأن يبين رأيه فيها؟ وذلك لأن النظريات التي عرضت بعد نزول القرآن الكريم لم تكن نظريات بكراً فرغم رقي العلوم البشرية وتقدمها الا ان المسائل الاعتقادية والفكرية والآراء المتعلقة بأصل الطبيعة وما وراءها التي طرحت بعد نزول القرآن ان لم تكن لجميعها سابقة في العصور الماضية فإن لأغلبها سابقة في تلك

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (١٠).

العصور.

وقد أشار القرآن الكريم الى الخطوط العامة لهذه النظريات والرؤى وقد عرض كثيراً من هذه العقائد بصورة صريحة، وأيدها ان كانت صحيحة ونفاها ان كانت باطلة، لأن هذه النظريات المطروحة اما ان تنتهي الى التوحيد او تنتهي الى الشرك، وأدلتها اما ان تستند الى مبدأ العلية أو ترفضه أي اما ان تقبل ان كل ما هو موجود بالغير يجب ان ينتهي الى ما هو موجود بالذات أو ترفض هذه النظرة. فأما ان نقبل ان كل غير مستقل لا بد ان يستند الى مستقل ويعتمد عليه، أولا.

فكل فكرة تظهر اما ان تؤول في الختام الى التوحيد او الى الشرك، فأي طريق تسلك فهي لا تخرج عن هذه الخطوط العامة والأساسية، وقد استعرض القرآن الكريم اشكالات المشركين والماديين وشبهاتهم وانتقاداتهم.

ولو درسنا النظريات والأفكار التي طرحت بعد نزول القرآن الكريم أو تلك التي طرحت قبله او في عصره لما لاحظنا فرقاً في تلك الخطوط العامة، يمكن ان توجد بعض الاختلافات في المقدمات وفي تقرير بعض البراهين وأمثال ذلك، ولكن في أصل الفكرة وخطوطها العامة لا يوجد هنالك اختلاف.

لقد حدد القرآن الكريم الطرق التي تؤدي الى التوحيد، والانحرافات التي تنتهي الى الشرك؛ ووقف امام الانحرافات واغلق الطريق عليها وفتح الباب أمام التوحيد وان استجد مذهب إلحادي بشبهات جديدة واجهه القرآن أيضاً؛ لأن الأسلوب الاعجازي لهذا الكتاب السماوي يختلف عن كتب

البشر، ولهذا فهو يرسم الصورة المناسبة لكل عصر وجيل ويظهر لهم بالمظهر الخاص لهم.

فمتكلم هذا الكلام هو الله سبحانه المطلع على جميع افكار القرون والعصور الماضية والآتية؛ والأسلوب الأمثل الجامع لكل الآراء والأفكار الصحيحة والخاطئة هو التحليل العقلي لمسائل العقيدة والنظرة الكونية وارجاعها الى أصل (استحالة اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما) ويعرّف كل موجود ويصدر تجاهه حكم عقلي بالاستناد الى قانون العلية كما جاء في نهج البلاغة «كل قائم في سواه معلول».

يفيد نظام العلة والمعلول بأن كل ظاهرة أو موجود ليس وجوده عين ذاته يجب ان ينتهي الى موجود بالذات، إن بالواسطة او بلا واسطة. فالانسان ممكن، وهكذا جميع ما يصدر عنه؛ ويجب ان تنتهي أخيراً الى ذلك المبدأ بالذات. يقول سبحانه: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فهو خالق لكل شيء اما بلا واسطة او مع الواسطة ويقول أيضاً: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[1].

فأنتم وما تعملون تنتهون الى الله لأن الانسان نفسه هو أحد آثار الخالق فكما ان للماء آثاراً وللهواء آثاراً، وللأرض آثاراً ولكل موجود حي وميت آثاراً تنتهي الى الله وتؤدي اليه وتدلل عليه، فكذلك للانسان ـ أيضاً ـ آثاره.

الانسان وآثاره آيات وعلائم إلهية وهي تنتهي الى الله؛ ولو وجد بين آثار الانسان أعمال فاسدة وشرور وآثام فهي لا تعود الى الله لأن هذه الأعمال والآثار السلبية أمور عدمية ونقائص لا تذهب أبعد من الانسان، وهي في

---

(١) سورة الصافات، الآية (٩٦).

الحقيقة نتاج نقص الانسان وقصوره أو تقصيره. فهذه الشرور والمعاصي والقبائح لا وجود لها في الحقيقة: **﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾**[1].

وفي هذا الصدد ينبغي البحث في هذه المسألة بعمق وهي: هل ان هذه القبائح أمور وجودية أم لا؟ ففي المجموع ان منشأ المعصية والنقص والشر هو نقصان الانسان، ولا تصل هذه الانحرافات الى المبادىء العليا لأنها ليست وجودية. فما كان في هذا العالم له جهة وجودية يجب ان ينتهي الى الله مباشرة او مع الواسطة.

وقد أشار الله تعالى الى مسألتين؛ الأولى: ان الله تعالى خالق جميع الموجودات في العالم **﴿الله خالق كل شيء﴾**، والأخرى: ان الله خلق كل شيء ـ اذ خلقه ـ حسناً: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾**[2] فما خلقه الله خلقه جميلاً وحسناً، ولا يوجد للقبح مكان في عالم الخلقة، وانما المكان الذي لم يلجه نور الوجود يكون قبيحاً.

ومن هذين التفصيلين في القرآن الكريم يمكننا استخلاص نتيجة راسخة: ان الله خالق وموجد جميع الموجودات، وان كل ما خلق الله جميل وحسن؛ فجميع الموجودات في العالم قد انشئت ـ قهراً ـ على أساس الحسن والجمال، وحسنها في أنها جميعاً آيات على تلك القدرة الأزلية؛ فالانسان ونتائجه وآثاره الخيرة كلها من صنع الله وليس الانسان فحسب بل سائر الموجودات الأخرى وآثارها أيضاً قد خلقها الله تعالى. يقول تعالى: **﴿ولله جنود السماوات**

---

(١) سورة النساء، الآية (٧٩).

(٢) سورة السجدة، الآية (٧).

والأرض﴾[1] ؛ ولو لم يكونوا جنوداً وآيات لله من جهة ما أو بعد ما أو جانب ما للزم أن يكونوا مستقلين في تلك الجهة وغير مفتقرين الى المبدأ في حين ان الحاجة صفتهم الذاتية ولا وجود لشيء من نفسه ما لم يكتسبه من مبدأ الوجود [وعلته].

لذا يقول القرآن الكريم ان من يعتمد على ذلك الأصل الأولي لا يمكنه ان يعتمد على غير الله. فهو يقول: **﴿قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾**[2] .

فمن أراد ان يتوكل ويعتمد ويتخذ وكيلاً فليتوكل على الله وليستند الى الله، لأن ما من شيء الا وهو خلق من مخلوقاته، فوكيل ومدير كل شيء هو الله أيضاً. وأزمة جميع الموجودات بيد الحي الأزلي. والاعتماد على الغير يعني الاعتقاد باستقلالية الرابط وحسبان المحتاج واجباً والسراب ماءً.

وفي آية واحدة يشير الى مسألة التوكل الى جانب خلق العالم، فيقول بما ان الله خالق الجميع فالجميع يجب ان يعتمد عليه، ولا يمكن الاتكال على النفس ولا على الغير..

روي عن النبي الأكرم ﷺ انه قال:

«إلهي لا تكلني الى نفسي طرفة عين أبداً»، وورد في بعض الأدعية أيضاً: «إلهي لا تكلنا الى غيرك»، والسر في ذلك: انه لو أوكل أمر مخلوق محتاج الى موجود محتاج آخر حار الاثنان؛ فايكال محتاج الى محتاج مثله يسبب سقوطهما معا. فلو حرم الانسان لحظة من الفيض الإلهي فما له من

---

(١) سورة الفتح، الآية (٤).
(٢) سورة الزمر، الآية (٣٨).

السعادة الأبدية من خلاق.

فالتوحيد يشمل انحاء الوجود ويتجلى في جميع ابعاد الوجود الانساني بأكمله.

والتوحيد هو الذي يقول لنا ﴿وهو معكم اين ما كنتم﴾[1] وكل موجود - في أي وضع وحال وجهة كان - تحت قيمومة الله؛ والله يرعى الانسان ويقوم على أمره؛ ولو تركه وشأنه لسقط وهوى؛ ولهذا نرى القرآن يعبر هكذا عن الكافر والمشرك؛ يقول: ﴿فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[2] فالمشرك وهو الشخص الذي لا يستند الى قاعدة اعتقادية او دينية، كالانسان الساقط من السماء او الذي تتخطّفه الطير او تدفع به الريح في هاوية سحيقة.

ولهذا كان الرسول الأكرم ﷺ - ووفقاً للتعبير القرآني - يقول للذين ابتعدوا عن الدين والوحي والتوحيد: ﴿فأين تذهبون﴾؟ الى أية قوة تستندون؟ فكل الموجودات فقيرة ذاتاً وكلها تستند الى الغني المطلق.. الى الله تعالى.

غاية الأمر ان هناك طرقاً مختلفة لادراك هذه الحقيقة والوصول الى الله؛ لأن الناس متفاوتون من حيث الفكر والقابلية والذكاء؛ ولهذا لم يكن الخطاب القرآني في الدعوة الى التوحيد بأسلوب واحد؛ بل نراه يدعو البعض الى الحق عن طريق النصح والموعظة، ويدعو البعض الآخر بالاستعانة بمقدمات مسلمة لديهم؛ فيما يخاطب العلماء والمفكرين

---

(١) سورة الحديد، الآية (٤).
(٢) سورة الحج، الآية (٣١).

بالمقدمات العقلية الصرفة؛ على ان الجميع مسؤولون تجاه هذه الدعوة بلا فرق، وقد يصل ذو الاستعداد والمستوى الفكري المتوسط او الضعيف الى درجة تؤهله للاستفادة من الخطاب القرآني الموجه للخواص ويعرف الله بالأدلة والبراهين العقلية، الا ان القرآن الكريم يخاطب كل شخص حسب استعداده وقابليته ويعرض له الدليل المناسب.

فقد يعرض القرآن أحد المطالب بصورة معمقة على هيئة قياس استثنائي يحتاج تحليل مقدماته الى الإحاطة ببعض العلوم العقلية، بينما يعرض نفس المطلب بصورة قصة او مثل بسيط ليستفيد منه الأفراد العاديون أيضاً. أي أن مضامين الكتاب العزيز متناغمة من حيث مستوى المطالب. فهو يهدي البعض عن طريق التحذير من العواقب الوخيمة والمؤلمة التي تهددهم [ان هم لم يهتدوا] ويهدي البعض الآخر عن طريق الترغيب لنيل الدرجات المهمة والرفيعة؛ فيما يدعو البعض الآخر الذي يفكر بمستوى أعلى من الخوف والرجاء عن طريق البرهان والدليل وسنعرض تباعاً أمثلة ذلك ان شاء الله.

ففي سورة الانعام ـ مثلاً ـ عدة استدلالات وأساليب قياسية. فتارة ينبغي الايمان بالله وعبادته لأنه خالق وفاطر السماوات والأرض، وتارة لأنه يقضي جميع الحوائج، وتارة لأنه يعذب الكافر عذاباً أليماً. فهو يدعوهم الى التوحيد عن طريق الترغيب والترهيب كما يدعوهم عن طريق العقل الذي هو فوق هذه الأشياء.

والخلاصة ان القرآن يقول ان لا ريب في دعوتي، ومن دعوتي التوحيد؛ لهذا فهو يقول لا شك في التوحيد كما لا دليل على الشرك وكل ما في الوجود آيات ودلائل تكوينية وذاتية إلهية. غاية الأمر، على الانسان ان

يفتح بصيرته ليرى آيات الله، ثم يصل عن هذا الطريق الى الذات المقدسة.

نسأل الله تعالى ان يشرح صدورنا وينور قلوبنا باليقين، لنصل في ظل تعاليم القرآن الكريم الى توحيد الحق وصفات الحق وأسمائه الحسنى ونعبده وحده ولا نعبد سواه.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الدرس السادس

الغيب معيار تقييم الأفكار

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان البحث حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وقد أوضحنا الخطوط العامة للتفسير: وأن القرآن لما كان نوراً بذاته فلا يحتاج الى تنوير، وانه لما كان ﴿تبياناً لكل شيء﴾ فهو يبين كل المعارف. وعلى هذا فهو قهراً في ذاته بيّن ونيّر. ولما كان حقاً ويدعو الى الحق فهو ملازم للبرهان والدليل القطعي.

في هذا الفصل ينبغي الاشارة الى المقصود من البرهان والدليل، وهل ان الدليل الحسي هو وحده معيار تقييم محتويات القرآن الكريم؟ ام أنه الدليل العقلي فحسب؟ أم كلاهما؟ وأساساً هل ان هنالك أدلة غير الحس لها قيمة علمية ام لا؟ اي هل يمكن الاستناد الى غير الحس أيضاً ام لا؟ وبتعبير

آخر: هل ان ما يدرك بالحس والتجربة وحده الجدير بالاعتماد، أم لا؟.

الأمور التي يجدر الاعتماد عليها قسمان:

الأول: الأمور المادية التي تكتسب بالحس، وتخضع للتجربة والاختبار.

الثاني: الأمور غير المادية التي لا تكتسب بالحس والتجربة. فان نحن قلنا ان معيار التقييم هو الحس والتجربة فقط لما أمكننا تقييم المعارف القرآنية بهذا المعيار، وان نحن ذهبنا الى ان معيار التقييم ليس هو التجربة وحدها أو الحس وحده، بل ان العقل والبراهين العقلية التي ليست في متناول الحس والتجربة هي أيضاً معيار قبول او رفض الأفكار والمعارف، أمكننا ـ حينها ـ ان نتوجه الى المعارف والعلوم القرآنية.

ان الخط الذي يبينه القرآن الكريم والمعيار الذي يطرحه هو انه يمكن الركون الى غير الحس، ويمكن الاعتماد على غير التجربة والتجريبيات أيضاً. بل ان معيار التقييم هو أمر غير تجريبي. فمعيار الاعتماد على الأمور التجريبية أيضاً هو أمر غير تجريبي. وفي النتيجة ان ما هو ميزان تقييم الأفكار والعلوم هو أمر غيبي وغير قابل للحس والتجربة.

والقرآن الكريم يعتمد على هذا الجانب في تعاليمه؛ فبعد ان يقول في بعض آياته: **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾**[1] الذي بسّطنا القول فيه في الجلسة السابقة، اي أن القرآن غير قابل للشك والريب لا في أصل ادعائه انه كلام الله ولا في محتوى دعوته من انه يدعو الى الخير والسعادة، يقول ان الشخص الذي يتمكن من الاستفادة من القرآن هو الذي يؤمن بالغيب **﴿هدى**

(١) سورة البقرة، الآية (٢).

للمتقين * **الذين يؤمنون بالغيب﴾**[1] ، أي الشيء الذي لا يخضع للحس ولا يقاس بالتجربة والاختبار.

والتجربة هي تكرار الاحساس بالشيء، فلو تحسس الانسان أمراً ما مراراً سمّي ذلك بالتجربة. فالآية الكريمة تفيد ان هذا القرآن انما يهدي من كان معياره في تقييم الأفكار هو الغيب **﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾** .

هنالك جدل وبحث دائر بين المفكرين سواءً في الغرب او في الشرق، وهو هل يمكن الركون الى غير الحس والتجربة في الحصول على المعارف ام لا؟

يذهب الماديون الى انه لا يمكن الاعتماد على غير الحس والتجربة، اي ان الانسان انما يؤمن بالشيء الذي يكون محسوساً او مستنبطاً من خلال تكرار الاحساس به وهو التجربة وما عدا ذلك فهو أمر خرافي ولا ينبغي الاعتقاد به؛ ولهذا فهم يرفضون المعارف الميتافيزيقية من قبيل التوحيد والوحي والقيامة وكل الأمور التي لا تخضع للحس - بالفعل أو دائماً - ويعدون الاعتقاد بها خرافة.

أما الإلهيون فانهم يقولون انه كما يمكن قبول الأمور المحسوسة الخاضعة للتجربة، كذلك يمكن الاعتقاد بالأمور الخارجة عن نطاق الحس عن طريق البراهين والبحوث العقلية، بل انهم يعتبرون البراهين العقلية وحدها طريق المعرفة، وذلك لأن قيمة التجربة نفسها انما تثبت بالبراهين العقلية أيضاً. اي أننا لو لم نعتمد على الدليل العقلي لما أمكننا اعطاء التجربة قيمتها، وان الذين يقولون ان معيار المعرفة والفكر هو التجربة وان

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢و٣).

كل ما سواها خرافة انما يحاولون اثبات دعواهم أيضاً بالاستفادة من برهان عقلي.

وتوضيح هذا المطلب هو ان الماديين يقولون ان العقل يخطىء، والدليل عليه هو الاختلاف الموجود بين العقليين، والتناقض والتضاد الموجود بين أصحاب المذهب العقلي. ولما كان العقل يخطىء ولا مجال لما يصلح ان يكون معياراً للمعارف باسم التجربة في المسائل العقلية، اذن فلا ثقة بالمسائل العقلية اذ لا ينبغي الاعتماد على شيء الا ان يكون مصوناً عن الخطأ والاشتباه بذاته او ان يكون الى جانبه معيار يمكنه تحديد ما هو الصحيح وما هو الخطأ.

والخلاصة: لما كان العقل يشتبه ويخطىء في الأفكار وليس ثمة معيار الى جانبه لتقييم الفكر في المطالب العقلية لأن المعيار هو التجربة التي ليس لها وجود في المطالب العقلية، اذن فلا اعتبار للمسائل العقلية، والحس هو المعيار الوحيد.

يتحدث القرآن الكريم عن بعض الماديين السالفين بالصورة التالية حيث قالوا لنبي الله موسى عليه السلام ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾. وهذا هو مذهب أصالة الحس والتجربة القائل بأنه إنما يمكن الايمان بالشيء الذي يمكن رؤيته ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[1]. أي ما دمنا لم نره بشكل جلي وواضح فلن نؤمن به.

فمبدأ الانسان المادي هو انه لا يمكن الاعتقاد بشيء ما لم يخضع للحس والتجربة، وخلاصة دليله هو ما مر ذكره. الا اننا عندما نحلل دليلهم

---

(١) سورة البقرة، الآية (٥٥).

وبرهانهم نرى أنهم أرادوا التقليل من قيمة العقل بالاعتماد على العقل نفسه، وانهم أرادوا ان يثبتوا دعواهم من خلال أمر غير تجريبي لأن أياً من هذه المقدمات التي أعدوها لم تكن حسية او تجريبية؛ فهم يقولون ان العقل يخطىء. . وهذه قضية كلية وهي ان كل عقل يخطىء في بعض المسائل، ولما كان يخطىء في بعض المسائل فهو بحاجة الى معيار ومقياس.

فهذه المقدمات لم يحسوا بها او يجربوها لأن التجربة تعني تكرار أمر محسوس والاحساس المتكرر به؛ فتارة يعطي الانسان دواء ما لشخص مريض فيشفى او يتناوله هو فيشفى، فهاتان مسألتان حسيتان، الأولى خارجية وظاهرية والثانية داخلية وباطنية، فالألم الذي كان يشعر به أمر حسي، وكذلك العافية التي أحس بها بعد تناوله الدواء؛ وتارة يكرر نفس هذا العمل مع نفسه في ظروف مختلفة او مع مرضى مختلفين، ويسمى هذا التكرار بالتجربة. والتجربة بهذا المعنى أمر حسي أيضاً، غايتها أنها إنما توجد مع التكرار. أما البرهان الذي أقامه الحسيون والماديون فلم يكن كذلك. فهم يقولون: ان العقل يخطىء في أفكاره، ولما لم يكن هنالك معيار لقياس القيم العقلية، فلا يمكن في النتيجة الاعتماد على العقل. ويرد على ما ذكروه:

أولاً: ان استدلالهم هذا هو استدلال عقلي، اي انهم يقولون ان كل ما يخطىء هو بحاجة الى معيار للتصحيح؛ وهذه مسألة عقلية وأمر غير حسي، فالانسان لا يستطيع ان يرى هذه المسألة لا مرة ولا مرات، لا بالعين ولا بسائر الحواس، فهو أمر لا يخضع للحس والتجربة، بل ان العقل هو الذي يقول انه بواسطة معيار تقييم الأفكار تمتاز الأفكار الخاطئة من بين الأفكار الصحيحة. إذن، فهم حاولوا اثبات بطلان قيمة العقل بالاستناد الى دليل

عقلي.

ثانياً: كما انه يوجد الخطأ في المسائل العقلية فكذلك في المسائل الحسية، فالحس أيضاً يخطىء ـ طبعا بالمعنى المعروف عندهم، والا فالحس لا يخطىء أبداً، لأن الخطأ في الحكم. فحيث يوجد الحكم والقضاء يوجد الخطأ والصواب. الحس يدرك المفردات فقط، والحكم ليس في مرحلة الاحساس، بل ان العقل هو الذي يحكم ويخطىء أحياناً.

فعندما نرى النجم صغيراً من بعيد ـ مثلاً ـ فان أعيننا لا تخطىء، فليست الباصرة هي التي تخطىء لأن الباصرة منظمة لدرجة بحيث لو اختلفت زاوية النظر قليلاً ترى ذلك الشيء صغيراً، والعكس بالعكس. وكون العين ترى النجم الكبير صغيراً من بعيد هو العمل الطبيعي للعين، وهو عمل صحيح أيضاً. ولكن العقل هو الذي يحكم بأن النجمة صغيرة ويخطىء في ذلك. وينبغي عليه ان يقول: انني أرى هذه النجمة صغيرة لكونها بعيدة جداً. فلو ان العفل راعى في موضوع هذه القضية كل القيود الموجودة وقال بانني أرى هذه النجمة صغيرة بسبب الفاصل البعيد بيني وبينها لما كان مخطئاً في حكمه، ولكنه لو قال ان هذه النجمة هي في واقعها صغيرة لكان مخطئاً في ذلك. فالذي أدركه الحس هو رؤية النجمة بهذا الحجم مع وجود هذه المسافة البعيدة، ولكن العقل يأتي بعد ذلك ويهمل هذه القيود ولا يلحظها بعين الاعتبار فيحكم بكون هذه النجمة صغيرة ويشتبه في ذلك. ولما كان الخطأ متعلقاً بالحكم والحاكم، ولا مكان للحكم في مجال الحس، فلا مجال للاشتباه في الحس. والحس انما يتعهد بالموضوعات والمتصورات والذي يحكم هو الذي يخطىء لعدم رعاية قيود الموضوع.

وعلى أية حال، فالحس أيضاً ـ وفق اصطلاح هؤلاء ـ يخطىء أيضاً، كما ان العقل يخطىء. فإذا لم يمكن الاعتماد على العقل لاشتباهه فلا يمكن الاعتماد على الحس لاشتباهه هو الآخر أيضاً.

فان قالوا ان التجربة تطرح كمعيار الى جانب الحس، ويمكن عن طريقها تحديد الخطأ من الصواب، ولا يوجد هذا المعيار في المسائل العقلية، قلنا هل التجربة تكرار للحس ام قياس تجريبي واستدلالي؟

فان كان المقصود من التجربة تكرار الحس فان الحس يخطىء في المرة الثانية والثالثة والرابعة كما أخطأ في المرة الأولى؛ فمثلاً مهما يرفع الشخص رأسه وينظر الى السماء فانه يرى النجمة بنفس الحجم الذي رآها في المرة الأولى، فان تكرار التجربة لا يبعث على صحة الحس ومدركاته اذ انه تكرار للخطأ. ان تكرار الحس لا يسلب الحس خطأه بل ان نفس الخطأ يتكرر. واذا كان الحس يخطىء فمهما اعاد العمل وكرره فانه يعني تكرار وإعادة لنفس الخطأ مرات عديدة. اذن، التجربة ليست معياراً لمعرفة الحقيقة، لأن التجربة هنا بمعنى تكرار الحس.

اما التجربة التي هي معيار التقييم وميزان معرفة الأفكار فهي ليست بمعنى تكرار الحس بل هي قياس عقلي واستدلال خفي؛ وتوضيح ذلك:

ان الحس اذا كرر أمراً عدة مرات ووجده متناسقاً وعلى غرار واحد، حكم العقل انه لو كان هذا الأمر مصادفة ودون وجود علاقة الضرورة بين الموضوع ومحمولة لما تكرر دائماً او على الأغلب. فمثلاً: ان لم تكن هناك علاقة تكوينية أصيلة بين الدواء المعين ومرض ما، لما زال هذا المرض بواسطة هذا الدواء. فلماذا يزول المرض كلما تناول المريض المبتلى بهذا

المرض من هـذا الـدواء المعين؟ هـل هـي صـدفـة تتكـرر مـرة. . مرتين. . ثلاث. .؟ ان لم تكن هناك علاقة بين هذين الأمرين وكان الأمر يقع عن طريق الصدفة والاتفاق لما كان دائمياً ولا اغلبياً، ولكن لما كان هذا الدواء ـ على الدوام او على الأكثر ـ مؤثراً في الشفاء ـ من ذلك المرض ـ اتضح ان هذه هي خاصيته؛ فيحكم العقل بأن هذا الدواء مؤثر في الشفاء من ذلك المرض في كل مكان وزمان.

وهذا قياس تجريبي ينتج عن عدة مقات، لأننا أحسسنا مراراً ان هذا الدواء مؤثر في الشفاء من ذلك المرض؛ فلو لم تكن العلاقة بين هذا الدواء وذلك المرض تكوينية لما استمر تأثير الأول في الثاني على نحو الدوام او الأكثرية. وبمـا انـه استمـر هـذا التـأثيـر، اذن فهنـاك عـلاقـة بينهمـا تكـوينيـة وأصيلة، وهذا ما يدركه العقل لا الحس المكرر. ان هذا الأمر يفهمه الطبيب من جهة كونه صاحب أفكار فلسفية لا لأنه طبيب. وهذا الأمر يدركه صانع الدواء من ناحية الجنبة الغيبية لتفكيره لا من جهة كونه صيدلياً. . وذلك لأنه يفكـر ويقـول: لـو كـان الأمـر مصـادفـة لمـا تكـرر دائمـاً او علـى الأكثـر. لكنـه يتكـرر دائمـاً او علـى الأكثـر. اذن، فهـو ليـس مصـادفـة. وهـذه الفكـرة لـم يكتسبهـا فـي المختبـر بـل أدركهـا بـالعقـل. وهـو لـم يرَ هـذه الفكـرة بعينـه او يسمعهـا او يتـذوقهـا، بـل انـه أحسهـا بـالـروح. اذن، فـالعقـل هـو الـذي يمنـح التجربة قيمتهـا، والغيـب هـو الـذي يمنـح الحس قيمتـه، والبـاطـن هـو الـذي يمنح الظهور أهميته، والداخل هو الذي يمنح الخارج قيمته، والعقل هو الذي يعطي التجربة اعتبارها، والجانب الفلسفي في الطبيب والصيدلي هو الذي يعطي الجانب المادي أهميته وقيمته؛ فهو يظن انه أقام هذا الاستدلال مـن جهـة كـونـه طبيبـاً او صيـدليـاً لا مـن جهـة امتـلاكـه ذلـك البعـد الفلسفـي

والغيبي، في حين انه لم يمنح عمله الطبي قيمة الا من جهة اعتماده على الدليل الغيبي. فهذا هو الغيب وذلك الشهادة. والغيب هو الذي يدعم الشهادة ويساندها، والعقل هو الذي يعطي التجربة محتواها.

وبناء على هذا فان قيمة التجربة تكمن في العقل، وقيمة تلك الاستدلالات المادية تأتي من قيمة الاستدلالات العقلية؛ فأهمية المختبر والاختبار هو بذلك القياس العقلي.

يرى القرآن الكريم ان الانسان المؤمن هو الذي يستلهم من الروح الإلهية ويتكىء على الغيب ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾. أي يؤمن بما لا يرى. وفي ظل ايمانه بالغيب يرى قيمة لعالم الشهادة فهو ينظر الى العالم في ظل الايمان بالغيب. انه يرى ظواهر العالم في ظل نور الغيب، ويزن كل ما يرى بمعيار الغيب اولاً ثم يحكم إزاء ظواهره المشهورة، ولهذا فأول ما يفتح عينه ويتصل بالعالم يرى الله أولاً، وبعده يرى العالم.. يرى أولاً رسول الوحي، وبعده برامج العالم ووظائفه.

فإذا كان الطبيب واثقاً من ان هذا الدواء المعين الموجود داخل الزجاجة يشفي ذلك المريض الراقد في السرير، فهو يستند أولاً الى هذه القاعدة الكلية العقلية، وبعد ذلك يشرع في كتابة وصفة الدواء، وذلك لأنه أدرك أولاً من خلال التجربة ان هذا الدواء علاج لهذا المرض؛ وفي ظل القانون الذي استنبطه من عقله وجنبته الفلسفية يشرع بفحص المريض ومن ثم اعطاء الارشادات وكتابة الدواء..

﴿**هدى للمتقين**﴾.

لقد ذكر الله تعالى للأفراد الذين ينهلون من القرآن ويهتدون بهداه

أوصافاً منها: انهم ﴿**يؤمنون بالغيب**﴾ مبدأ العالم، وهو لا يثبت لا بالحس ولا بالتجربة. وهدف هذا العالم وهو أمر غيبي أيضاً ليس بمحسوس ولا تجريبي، وهدف هذا العالم هو يوم القيامة الواقع أمامنا والذي يتحرك نحوه هذا العالم؛ لأن هذا العالم المتحرك لن يكون بلا هدف، والحركة بلا هدف محالة، والانسان يتحرك دائماً نحو الهدف، وذلك الهدف لا يدرك بالحس ولا بالتجربة.

والوحي والرسالة التي تهدف الى رقي وتعليم البشر لا تخضع للتجربة والحس. والذي يؤمن بالغيب وبهذه الأصول الثلاثة يستطيع ان ينتفع بالقرآن، لأن القرآن الكريم إنما يتفاعل مع ذلك المعيار الأصيل.. مع ذلك المعيار الذي يعطي التجربة قيمتها.. مع ذلك الغيب الذي هو سند ودعامة جميع المشهودات وملجأها، وهو عبارة عن ذلك العقل البديهي الذي خلقه الله للانسان، حيث يدرك بالفطرة بعض الأمور الضرورية التي تمثل أساس وقاعدة سائر الاستدلالات الأخرى.

ثم ان الله تعالى يفصل هذا الغيب فيقول: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾[1]، فهؤلاء في ظل ايمانهم بالغيب يؤمنون بالوحي النازل على الأنبياء ويؤمنون بالقرآن الكريم ويؤمنون بالمبدأ والمعاد أيضاً.

وعلى هذا، فالعلة في ان المادي لا يستطيع ان ينتفع من هذا القرآن هو انه لم يفحص معيار تقييم الأفكار بشكل صحيح، ولم يلتفت الى انه هل الحس والتجربة كافيان من أجل تحديد الحق والباطل؟ ام لا بد من العقل

---

(١) سورة البقرة، الآية (٤).

الذي هو قاعدتهما! ولهذا فالمادي لا ينتفع - مع هذه النظرة والرؤية - من القرآن أبداً، وما لم تتحقق حالة الايمان بالغيب والنظرة الغيبية لدى الانسان فانه لن ينتفع من القرآن.

يقول الله تعالى لنبيه في سورة يّس حول تأثير الوحي: **﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾**[1] . فالقرآن الكريم إنما يؤثر في من كان حيا. والمادي الذي لا يؤمن بالغيب ليس حياً في نظر القرآن، ولذلك فهو لا يؤثر فيه، لأنه لا يؤثر الا في الأحياء. فالذي يقول انني لا أؤمن بشيء ما لم أره أو ألمسه، ليس موجوداً حيا من وجهة نظر القرآن، لأنه في نفس كلامه هذا انما يتكي فيه على العقل الذي هو غير مرئي.. يتكىء على ذلك القانون الكلي الخارج عن اطار التجربة والحس. فمن لا يفتح قلبه ولا يجلي فطرته الباطنية بل دفنها في وسط الميول والشهوات ومن لم يدع فطرته هذه تبرز فهو في نظر القرآن ليس بحي، ولما لم يكن حيا في نظره فانه يقول عنه انه غير جدير بالتأثر بآيات الله والوحي، ما لم يسع لاخراج نفسه من داخل ركام الميول والنزوات والأهواء.

ولهذا السبب كان أكثر القسم الإلهي في القرآن الكريم في هذا المجال. ففي سورة الشمس يقسم الله سبحانه بأحد عشر قسما فيما يتعلق بنظام الخلقة ثم يقول بعد ذلك بأن الذي يطهر نفسه ويزكيها هو المفلح والذي يدفنها وسط الميولات والنزوات هو الخاسر. يقول: **﴿والشمس وضحاها * والقمر اذا تلاها * والنهار اذا جلاها * والليل اذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من**

---

(١) سورة يس، الآية (٧٠).

دسّاها﴾[1] .

فقد أقسم الله بكل نظام الوجود وبعد ذلك قال ﴿قد أفلح من زكاها﴾ اي من زكّى نفسه ونمّاها ولم يدفنها تحت ركام المادة والطبيعة والحس والتجربة، وانتفض من قبر الطبيعة وتحرر من قيود الجسد وتجاوز الحياة القصيرة ووضع قدمه على الأمور القابلة للمس والحس والتجربة وارتقى عنها وتجاوزها يكون قد أفلح . . قد ربح . . يكون قد فاز ونجى . . اما الذي دفن نفسه وجعل نفسه مورداً للدسيسة فقد خسر وتضرر وخسر رأس ماله ﴿وقد خاب من دساها﴾ . واصل دساها دسسها، والدسيسة عبارة عن اخفاء أمر في التراب وحجبه . والدساس هو الذي يخفي نواياه وأعماله المشؤومة من خلال أعمال ظاهرية وقول جميل كي لا يستطيع الطرف المقابل ان يعرف أهدافه المشؤومة من بين هذه الأقوال والأعمال .

فالمراد من الآية ان الذي يدفن روحه بين أهواء الطبيعة خائب . . من يهيل تراب الطبيعة على رأسه ويغرق نفسه فيها ويقول ان هذا التراب هو كل ما في الأمر وكل شيء، فهو خائب . . والذي يغوص ويستغرق في هذا العالم الترابي المادي لا يمكنه النمو أصلاً .

وكما يقول صدر المتألهين في تفسيره فان على الانسان المادي ان يعلم أنه كالشجرة فهي لا ترتفع ولا تنمو لأن الذي ينمو ويتحرك هو فروعها، والا فان أصل الشجرة ولبها وجذرها ورأسها غائص في التراب . . ان الذي يسعى لبناء قصر من القصور لا ينمو، لأن فكره في الأرض ولا ترتفع الا فروعه فوق الأرض . اما هو فلم يتطور، بل سعى لأن يأخذ من

---

(١) سورة الشمس، الآية (١ ـ ١٠).

التراب ويعمر التراب ثم يذهب بيد خالية. وقد حذرنا القرآن الكريم من هذا الخطر ونهانا عن التعلق بالأهواء، والا نكون قد دفنا أنفسنا، وقد علمنا بأن كل ما هو على الأرض من بساتين وفرش وقصور وأشياء أخرى انما هي زينة الأرض لا زينة أنفسكم **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾**[1] . فكل ما على الأرض إنما هو زينة لها لا انه زينة للانسان، والقاصر من الناس وذو المحتوى الفارغ منهم هو الذي يلجأ الى التعزز والافتخار ببناء بيته وذلك لأن باطنه عار عن الزينة فهو يفتخر بالزينة الظاهرية ويتشبه في ذلك.

فالذي يبني بيتاً على الأرض انما يزين الأرض ولا يزين نفسه والذي يوجد بستاناً يجمّل الأرض ولا يكون قد جمّل روحه. فالله سبحانه يقسم بالمنظومة الشمسية وبكل نظام الوجود ان الذي يدفن نفسه وروحه في ركام الطبيعة ويقول ان الوجود ليس الا هذه الطبيعة المادية ولا شيء سوى الحس والتجربة والمادة ولا معيار غير ذلك فقد خاب وخسر ولا ينتفع من القرآن أبداً.

والخلاصة ان القرآن **﴿لا ريب فيه﴾** وهو كتاب برهاني؛ ويعتبر الغيب معيار المعرفة والأفكار لا الحس والتجربة، ويعلن ان الذي يعتبر المادة والحس والتجربة وحدها معياراً للحقيقة فقد دفن روحه الإلهية الحية وأهلكها وبالنتيجة لا يحصل على فائدة من القرآن ولا على هدى.

نسأل الله تعالى ان ينعش تلك الروح الحية فينا جميعاً كي نستطيع الانتفاع من أحسن النعم في العالم، وهو فهم المعارف الإلهية والاستئناس

---

(١) سورة الكهف، الآية (٧).

بكلام الله تعالى وفهم محتوى القرآن الكريم، وان نؤمن بما فهمناه وبما أنزل الله تعالى، ونعمل به. وان يحشرنا مع أوليائه عليهم السلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع

العلة في خضوع الالهيين واستكبار الماديين في مقابل الأنبياء عليهم السلام

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

اتضح مما سبق الخطوط العامة للتفسير، كما اتضح ان القرآن يدعو الى البرهان والاستدلال، وان معيار دعوته الغيب والعقل. وثبت ان القرآن يدعو على أساس العقل وبمعياره، ويعدّ العقل هو أساس، لا الحس والتجربة. كما اتضح بطلان أدلة الماديين واشكالاتهم، وثبت أنهم يريدون ان يثبتوا للتجربة أصالتها وقيمتها على حساب العقل وقيمته وبالاستفادة من العقل والدليل العقلي.

وبعد ان اعتبر القرآن الكريم الغيب هو الأصل بدأ بعرض معارفه ومفاهيمه. والناس ازاء القرآن فريقان:

الأول: انصار المذهب الحسي الذين لا يقبلون سوى المادة والحس والتجربة.

والآخر: هم الذين يعتبرون العقل معياراً وأساساً، وان أقاموا للتجربة وزناً فلأنها تستند الى العقل، اي ان العقل هو الذي يقول كل ما يقع دائماً أو غالباً لا يمكن ان يكون وليد الصدفة بل لا بد ان يكون نتيجة علاقة ضرورية بين شيئين باسم العلة والمعلول. وبمقتضى هذين المذهبين والمعتقدين يعتمد البعض على المعرفة الحسية اي المعرفة التي يكتسبها عن طريق الحس فقط؛ فيما يعتمد البعض الآخر على المعرفة العقلية. ويرى الفريق الأول انه لا شيء سوى عالم الطبيعة المادية، فيما يذهب الفريق الثاني الى ان عالم الطبيعة ليس الا جانباً او جزءاً من عالم الوجود الواسع. والأول يجعل الحس هو معيار المعرفة، والثاني يرى ان هذا المنصب انما هو للعقل الذي لا ينقاد للتجربة والحس.

وعلى هذا فالناس منقسمون ـ بالضرورة ـ امام آيات القرآن الكريم الى فئتين:

الأولى: من طغت عليهم المادة، والذين يقولون ان القرآن الكريم ليس أكثر من اسطورة وانه لو شئنا لسطرنا مثل آياته، فلا خبر جاء ولا وحي نزل.

والثانية: هي التي ترى بأن العقل يحكم بحاجة البشر الى المبدأ الأول، وذلك المبدأ الأول هو الذي يرسل الكتاب والوحي والميزان لأجل هداية البشر، وان القرآن الكريم هو الوحي والميزان الإلهي لأن امارات الوحي والميزانية موجودة فيه.

والله تعالى يتعرض أولاً الى ذكر أصل مسألة القرآن ثم يعرض وجهتي نظر هذين المذهبين والفريقين، ثم يقيسهما ـ بعد ذلك ـ بنفس المعايير الخاصة بالقرآن، وعند ذلك يحكم بأن أياً منهما سائر في الطريق المستقيم وأياً منهما منحرف عنه.

اما في أصل مسألة القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله﴾[1].

فلا حديث أحسن من هذا الحديث لأنه حديث الله، فهو من حيث اللفظ أحسن الحديث، ومن حيث المضمون أرقى المضامين، وذلك لأن مضامينه مؤيدة بالحق والبرهان، ولو كان هناك حديث أحسن منه ـ سواء من حيث اللفظ او من حيث المعنى، بأن كان أدق منه محتوى وأعمق مضموناً ـ لأنزله الله؛ اذ لو كان هناك حديث أحسن منه ولم ينزله الله على خاتم الأنبياء ﷺ لكان هذا التحفظ لأحد أمور ثلاثة وكلها مستحيلة؛ وهي: أما انه ـ تعالى ـ لم يعرف او لم يقدر او بخل به. وكل هذه الأمور من الصفات السلبية والتي تستحيل على الله تعالى.

فالوجود المحض يستحيل عليه الجهل، فلا يمكن ان يوجد شيء لا يعلمه الله وهو عين العلم المطلق؛ كما ان العجز غير متصور بالنسبة لله، اذ لا يمكن ان يكون لشيء صفة وجودية ولا يخضع ذلك الشيء لقدرة الله تعالى، فهو ﴿على كل شيء قدير﴾.

وكذلك البخل وعدم الجود هو نقص لا سبيل له الى الكمال الإلهي

---

(١) سورة الزمر، الآية (٢٣).

الغير متناهي.

وعلى هذا، فلا يوجد هناك كتاب أكثر إحكاماً من هذا الكتاب ولا حديث أحسن من هذا الحديث، والا لأرسله الله تعالى الى صاحب أكمل الرسالات وخاتم النبيين محمد ﷺ وذلك لأن كتابه خاتم الكتب وسوف لن ينزل الوحي بكتاب بعده. فالله تعالى قد انزل أحسن الحديث. وهذا الكتاب متشابه، اي ان تمام آياته وأبعاده شبيهة ببعضها البعض، كل منها يناظر البعض الآخر وينسجم معه ويؤيده، وآياته كلها متناسبة متعاضدة، بحيث لو حذفنا واحدة منه فكأنما حذفناه بأسره. ولو آمنا باحدى آياته وجب علينا ان نؤمن بجميعها، ولهذا لا يسع أحداً ان يؤمن بأصل من أصول القرآن وينكر الباقي او يرفضه، لأن البقية تؤكد هذا الأصل ذاته، كما ان هذا الأصل مرتبط ببقية الأصول. وبالتالي، فإن ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾[1] فقطّعوه وفرّقوه، فقبلوا بعضه ورفضوا بعضه، لم يقبلوا اي شيء من القرآن في الحقيقة.

وهذا التشابه والانسجام صفة القرآن عامة وليس هو من المتشابه مقابل المحكم لأن للمتشابه بالمعنى الثاني معنى مغايراً سيتضح عند الحديث عن المحكم والمتشابه ولزوم إرجاع المتشابه الى المحكم. فجميع آيات القرآن حكيمة ومحكمة. وحتى الآيات المتشابهة تغدو محكمة عند ارجاعها الى المحكمات: ﴿آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[2]. فالقرآن قد نزل من مقام محكم ولذا فان جميع آياته محكمة ومتناظرة يشد بعضها بعضاً ويعضد بعضها بعضاً كما ان كلا منها مرتبط بالآخر. وجميع

(١) سورة الحجر، الآية (٩١).
(٢) سورة هود، الآية (١).

الآيات مبنية على سلسلة أصول معينة ومن مبدأ واحد وتدعو الناس الى هدف واحد وغاية واحدة.

وكون القرآن مثاني هي ان تمام مضامينه تدفع نحو بعضها البعض وتجذب نحو بعضها البعض، اذ انه عندما يكون شيء من الأشياء منعطفاً لأمر من الأمور وجاذباً كذلك يقال ان له انثناء بالنسبة اليه. واي شيئين اذا كانا من سنخ واحد وكانا الى جنب بعضهما يكونان اثنين، او ان ذلك الواحد اذا ضم الى ذلك الواحد يصيران اثنين. وذلك الثاني لما كان منجذباً نحو الأول يقال له ثاني، ويقال لعمل ذلك العامل الذي أوجد التناسق بين هذين الأمرين (التثنية).

فمعنى كون جميع آيات القرآن مثاني أنها منعطفة على بعضها، تنجذب وتميل نحوها وتستند الى بعضها وتلجأ اليه. فهذه علامة الانسجام الكامل للقرآن، وهذا دليل ان الآيات الكريمة يوضح بعضها بعضاً ويفسّره. والله سبحانه وصف القرآن الكريم بقوله: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لعلّهم يتّقون﴾[1] فلفظه عربي مبين، ولا عوج او انحراف فيه من حيث اللفظ والقالب والمسائل الأدبية واللغوية ولا من حيث المحتوى والمعنى والمسائل العقلية حيث لا انحراف فيه عن الدليل والبرهان.. لا اعوجاج فيه أبداً، بل هو نفس الصراط المستقيم. فلو تجلّى الصراط المستقيم على هيئة كتاب لكان القرآن، ولو تجلى القرآن وظهر على صورة طريق وسبيل لكان بنفسه الصراط المستقيم لا انحراف ولا اعوجاج فيه أبداً؛ اذ ان القرآن هو الذي يقف بوجه كل انحراف او اعوجاج ويطلب منا تقويمه ومعالجته سواء كان انحرافاً فكرياً او عمليا. وعلى هذا فلا بد ان يكون مصوناً من كل

---

(١) سورة الزمر، الآية (٢٨).

انحراف واعوجاج، ولكن الناس وبسبب تبنيهم لمذاهب متعددة ومختلفة انقسموا امام هذا الكتاب الذي هو ﴿أحسن الحديث﴾ والذي هو منزّه عن كل زيغ او عوج او انحراف الى فريقين:

الفريق الأول: وهو يرى ان محتوى القرآن أسطورة وانه صار قديماً وذلك لأنه يفسر الظواهر الطبيعية تفسيراً غيبياً فهو يقول ان الله هو الذي يرسل الرياح والأمطار وهو الذي بيده الموت والحياة والسعادة والشقاء والقبض والبسط وأمثال ذلك، في حين ان لجميع هذه الأمور عللاً وأسباباً مادية معينة. وبعد ان اكتشف العلم علل هذه الظواهر لم يبق هناك داع لهذه الخيالات والأوهام والخرافات، ولا مجال للقول بأن الله هو الذي سبّب هذه الأسباب وخلق هذه الأشياء. فقد كشف التقدم العلمي أسباب نزول المطر ونمو النباتات والموت والمرض وحياة الانسان وأسباب السعادة والشقاء والفرح والحزن، ولا شيء من هذه الأشياء بلا علة او غير معلوم العلة لكي ننسب هذه الأمور الى الله. وبناء على هذا فان الآيات القرآنية التي تنسب هذه الأمور الى ما وراء الطبيعة أساطير ليس الا. وان نحن شئنا ان نحوك مثل هذه الأساطير لفعلنا. **﴿واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾**[1] **﴿واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾**[2]. وقد أجابوا برفع **﴿أساطير﴾** للدلالة على انكار الوحي أصلا، اذا لو لم يكونوا ينكرون الوحي لقالوا **﴿أساطير﴾** [بالنصب] أي أنزل أساطير. لكن لما أنهم كانوا ينكرون أصل الانزال والوحي رفعوا (أساطير) يقصدون انه لم ينزل شيئاً وان ما يسمى قرآناً هو أساطير فقط ولو شئنا لقلنا مثله.

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣١).
(٢) سورة النحل، الآية (٢٤).

وقد تحداهم القرآن أيضاً وقال: ﴿فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين﴾[1] فهذه نظرة الفئة التي تنكر الوحي والرسالة وبالتالي تنكر كل ما وراء الطبيعة. وانه وان كان الوثنيون وعبّاد الأصنام في الحجاز قد أنكروا الوحي والنبوة ولم ينكروا الله تعالى ولكن من ينكر الوحي ويرفضه فانه ينكر الله تعالى أيضاً، ولذا قال عنهم تعالى في سورة الأنعام ﴿وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[2].

فهؤلاء الذين ينكرون الوحي والرسالة ويقولون ان الله لم يرسل شيئاً ولم يبعث رسولاً لم يعرفوا الله حقاً، ولو عرفوا الله حقاً لأدركوا انه مدبر أمور الخلق ورب عوالم الوجود ومنها الانسان. فالانسان بحاجة الى تربية، وتربيته تتم في ظل الدين والوحي، ولهذا كان الوحي.

اذن فمن أنكر الوحي والنبوة لم يعرف الله ولم يقدره حق قدره. فلا يمكن لأحد ان يعرف الله ولا يعترف بالنبوة، ولا يمكن لأحد ان يعتقد بالله ولا يقر بالنبوة، لأن الله رب العالمين وبناء عليه فينبغي ان يربّي جميع العوالم. وتربية الانسان انما تتم عن طريق الدين فقط، وهو ما اتى به الأنبياء عليهم السلام.

الفئة الثانية هم الذين اعتقدوا وآمنوا بالقرآن مستندين في ذلك على الايمان بالغيب وعلى العقل والاستدلال العقلي، فهم لاحظوا دلائل الاعجاز في القرآن وأقروا بأن خالق الانسان والعالم هو الله، واعتقدوا أن الانسان ينبغي ان يوجه عن طريق الوحي والدين من قبل الله، وأدركوا

(١) سورة الطور، الآية (٣٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية (٩١).

بواسطة الأدلة العقلية ان الذي يدعي النبوة لا بد ان يتمتع بخصائص انسانية خاصة هي المعجزة، وأدركوا ما يميز المعجزة عن سائر العلوم الغريبة وذلك من خلال الأصول العقلية أيضاً، وعرفوا الفرق بين ما أتى به الأنبياء وما يقوم به المرتاضون ويبلغونه من خلال الرياضات والتمرينات، لأن جميع هذه الأمور مما ينبغي ان يستقل به العقل، ولذا تجدهم خاضعين خاشعين أمام القرآن على النحو الذي وصفهم الله تعالى فيه في كتابه الكريم بقوله: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾** فعندما يقف الانسان أمام شخص عظيم يحس في نفسه الضعف ولا يستطيع ان يسيطر على جوارحه، وهكذا يكون حال الانسان أمام المقام الإلهي في الرعب والضعف.

ولذا عندما يسأل هؤلاء فيقال لهم **﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾**[1].

فهؤلاء عندما يسألون **﴿ماذا أنزل ربكم﴾** يجيبون **﴿خيراً﴾** [بالنصب] أي أنزل خيراً، فهم لا ينكرون أصل الوحي والتنزيل ويعتقدون ان هذا الوحي والتنزيل هو خير. الانسان المادي ينكر الوحي ويعتبر ما أتى به الأنبياء أساطير وخرافات. أما الانسان المؤمن فيعتقد بالوحي ويعتبر ما أتى به الأنبياء خيراً ورحمة وبركة. ولما كانت نظرة الانسان الإلهي مبنية على العقل والغيب كانت نتيجته هكذا؛ كما كانت النتيجة مرة بالنسبة لنظرة الانسان المادي المبنية على الحس والتجربة، والذي يقول ـ وعلى ذلك الأساس الواهي والضعيف ـ: ان الاستدلالات العقلية تعود الى عصور ما قبل التقدم العلمي، حيث لم يكن بوسع الانسان القيام بالتجارب ولم تحقق

---

(١) سورة النحل، الآية (٣٠).

العلوم التجريبية نموها وكمالها، فزعم بظنه ذلك الانسان البدائي ان لكل شيء علة عقلية. أما اليوم وحيث التقدم الهائل في العلوم والاستدلالات التجريبية فلا حاجة الى الاستدلالات العقلية، لأن العلوم المادية والتجريبية تفسر جميع الظواهر، وقد حل العلم محل الظن والتخمين وأعطى التفسير الفلسفي والعقلي مكانه للمشاهدة التجريبية.

لقد ظن هؤلاء الماديون ان العصور والأزمان التي طواها البشر ويطوونها بالفعل كانت وما زالت مختلفة، فالعصر الأول كان عصر العقائد والمذاهب والأديان ثم تلاه عصر العقل والفلسفة، اما اليوم فمرحلة العلم والتجربة.

يقول الماديون ان الانسان وبسبب حب الاستطلاع وحالة الفضول التي لديه عندما كان يواجه ظاهرة ولا يعرف لها تفسيراً كان ينسبها الى الله والملائكة وأمثال ذلك؛ وهكذا شاع هذا المسلك وذاع وبرز بصورة دين وعقيدة. وبعد أن طوى هذه المرحلة بلغ مرحلة الفلسفة وبدأ يحوك لهذه الظواهر عللاً ليقنع حالة حب الاستطلاع الكامنة فيه ويشبعها. فعصر الفلسفة هو عصر صياغة العلل والأسباب وحياكتها. وعندما تقدم العلم على أثر التجارب المادية وحدد لكل ظاهرة من الظواهر سبباً كالمطر والسحاب والموت والحياة، واكتشف العوامل المؤثرة فيها، كما شخص أسباب النصر في الحروب والهزيمة وأمثال ذلك لم تبقَ هناك نقطة فراغ لم يكشفها العلم لكي يسدها الدين او الفلسفة؛ فالعلم ذكر الى جانب كل معلول علة وأنهى مرحلة الفلسفة، كما أنهت الفلسفة دور الدين. وعلى هذا كان عصر العلم باعثاً على انقضاء دور الفلسفة كما كانت الفلسفة باعثة على انقضاء دور الدين.

ان هذا الحكم المسبق يدل على أنهم لم يفهموا الدين ولا الفلسفة. فلو كان الانسان يبحث بفطرته عن علة لكل ظاهرة فانما كان يبحث عن العلة الفاعلية لا العلة المادية. ان العلة المادية التي تكتشف وتعرف بتقدم العلم لا تلبي حاجة الفطرة التوحيدية للانسان، فالفطرة الانسانية قائمة على ان نظام الوجود مبني على نظام العلة والمعلول، اي ان لكل معلول علة فاعلية وليس العلة القابلية فقط.

ولم ينتفِ ما قاله الدين وأيدته الفلسفة بتقدم العلوم بل ترسخ أكثر، لأن العلم لا يستطيع أبداً ان يحل مشكلات الدين والفلسفة؛ فالعلم انما يرسم حركة العلاقات المادية بين الظواهر اي يحدد مسارها الأفقي فيقول مثلا: إنّ خواصّ المادة الفلانية كذا، او كانت كذا وستكون كذا، بسبب تأثير ظواهر أخرى عليها. لكن السؤال الذي يقوم وينهض من أعماق الفطرة هو ان هذه المادة التي كانت سابقاً في وضع خاص وستكون مستقبلاً في حالة أخرى بعد أن تنتهي المرحلة والدور الذي تمر به الآن.. ان هذه المادة لا تملك وجودها إذ ليس وجودها ذاتياً، والا لما كانت عرضة للتغير، ولما كانت لا تملك وجودها، اي ان وجودها ليس منها؛ فاذن لا بد من علة خارجة عنها منحتها الوجود. وعندئذ ولكي تحدد العلة الفاعلية تطرح السؤال التالي وهو من الذي أعطى لهذه المادة وجودها.

فمثلاً: لا شك ان الشمس تبعث بحرارتها الى الأرض فتصل سطح البحر ويتبخر الماء ليرتفع عالياً مع حركة الهواء ثم يتساقط على هيئة مطر بعد أن يصعد في أعالي الجو ويصبح ثقيلاً.. كل هذا صحيح.. ولكن السؤال الذي تجب الاجابة عليه هو ان هذا الشيء الموجود في تمام حالاته والذي تعرض عليه حالات وجودية متعددة، من الذي منحه هذا الوجود بعد

الفراغ عن عدم كون وجوده عين ذاته.

اما الدين فيقول: ان جميع هذه الموجودات هي آيات ودلائل على الله تعالى، على النحو الذي نقدم بيانه فيما سبق.

وتقول الفلسفة ان هذه ممكنات، والممكن يحتاج الى الواجب. فلا الفلسفة تحل محل الدين ولا العلم يحل محل الفلسفة. فالفلسفة تفهم المسائل العقلية للدين.. الفلسفة تحقق وتوضح المسائل الأصولية للدين اي أنها تعنى بالبحث حول المسائل الأصولية للدين. فما تقوله الفلسفة وما جاء به الدين والذي هو عبارة عن الايمان بالغيب ليس تحت متناول يد العلم.

ان العلم يشرّح العلاقات بين العلل المادية. والفلسفة تحل علاقاتها الطولية وتقول ان وجود جميع الظواهر تعود الى مبدأ واحد فياض قد أفاض عليها الوجود وان هذه التحولات بأسرها هي أثر الفيض المترشح من ذلك المبدأ المصون عن التبدل والتغير.

وعلى هذا، فمجال الدين ليس متحداً مع مجال العلم، ولا ان مجال الفلسفة متحد مع مجال العلم، كما انه ليس هناك فراغ في الفلسفة كي تحتاج في سدّه الى العلم، كما ان العلم عاجز عن سد هذا الفراغ، وذلك لأن الفلسفة تدرس وتبحث عن العلل الفاعلية والغائية فيما يبحث العلم عن العلل المادية والصورية، أي عن الصورة التي كانت عليها المادة سابقاً، والتي هي عليها الآن، أو ستكون عليها في المستقبل. اما من الذي أوجدها على تلك الصورة في السابق، وسينشئها على الصورة الآتية في المستقبل، فهذه مسألة فلسفية ومسألة دينية، ومفادها ان كل محتاج مفتقر الى علة

فاعلية، ولا يكتفي بعلة قابلية كي يستطيع العلم والتجربة ان يحل لغزها نيابة عن الدين او الفلسفة.

والخلاصة ان القرآن الكريم كتاب عالمي وخالد، وقد لمح في بدء نزوله الى هاتين المسألتين:

الأولى: عالميته.

الثانية: استمراريته وديمومته؛ اي انه لكل العالم والى الأبد. فقد قال ﴿ذكر للعالمين﴾ و﴿نذيراً للبشر﴾ وأمثال ذلك. الا ان الذين ينبغي ان ينتفعوا ويهتدوا به فريقان؛ ففريق ليسوا مستعدين لتزكية فطرتهم وللتفكير بصورة صحيحة في ان الأصل هل هو انه على الانسان ان يرفض كل ما لم يره ولم يجربه ام ان الأصل هو ان على الانسان ان يرفض كل ما لم يفهمه ويتعلقه، لا ان يرفض كل ما لم يجربه؛ وذلك لأن الانسان انما يكسب التجربة قيمتها من خلال عقله على ما مر تفصيله سابقاً. فان كان هناك وزن علمي للتجربة فلأن العقل هو الذي يساندها ويؤيدها ويستدل عليها بقوله: ان هذا الأمر الذي يقع دائماً او غالباً في ظرف معين لا يخلو من علاقة ورابطة ضرورية.

ان القرآن الكريم أرسل لهداية البشر كافة، فهو عالمي وأبدي.. كلي ودائمي، الا ان مجموعة من الناس يستفيدون منه ومجموعة أخرى لا تستفيد او تهتدي به لأنهم لم يستطيعوا الملاءمة بين فطرتهم واهوائهم، وقالوا: ما لم نرَ او نلمس شيئاً فاننا لا نؤمن به. كما أنهم لم يبحثوا جيداً ويعرفوا من الذي دلّ على هذه المقولة هل هو العقل او التجربة.

ينبغي ان يقال لهؤلاء انكم لم تدركوا قيمة التجربة بالتجربة بل

بالعقل، ثم أنكم تريدون ابطال حكم العقل بواسطة حديث العقل نفسه. فالقرآن قد أرسل لهداية الناس كافة الا ان فريقاً منهم يحرم نفسه عمداً من القرآن الكريم ومعارفه العظيمة. علينا ان لا ننسى ان للتجربة قيمتها ودورها كما لا ننكر مكانة العلوم التجريبية التي أقيمت على أساسها، لكن معيار قيمة العلوم ليست التجربة، لأن التجربة نفسها تستند الى العقل، والعقل البديهي بما انه يتشكل من مقدمات ضرورية ويصاغ بقالب شكل بديهي الانتاج سواء من جهة الصورة او من جهة المحتوى، فانه يكون بديهياً وغير قابل للانكار وقيمته العلمية تكون ذاتية له. هذا وفي العلوم التجريبية أمر آخر مختفٍ يقلل من قطعيتها وهو استنادها الى الفرضيات وهي قابلة للتغير.

والخلاصة ان أصالة المعرفة من نصيب العقل لا الحس والتجربة وان النشاطات الفيزياوية لسائر الحواس هي بمثابة مقدمة للادراك. واما العلم فهو تلك الصورة الخاصة المجردة للشيء في داخل النفس والمطابقة للواقع.

فالطبيب الذي يقول بعنوان ابراز قانون طبي ان الدواء الفلاني مؤثر ضد المرض الفلاني.. والذي تعلمه واكتسبه في المختبرات بصفة الحس المتكرر هو هذا المقدار فقط. وما جاوز ذلك فهو من حدود العقل لا التجربة. اما ترتيب استدلاله وتنظيم قياسه الذي فحواه: لو كان تحقق الشفاء مصادفة ودون وجود علاقة ضرورية بين الدواء والمرض لما كان يتحقق دائماً او على الأغلب، ولكنه قد تحقق كذلك، اذن فهو لم يحدث مصادفة بل لا بد من وجود علاقة ضرورية بين هذا الدواء وذلك المرض؛ ولذلك نعطيه للمريض الآخر أيضاً.. ان استدلاله هذا لم يحصل عليه بصفته طبيباً بل بصفته مفكراً، وهو بحد ذاته قياس منطقي، ومحتواه فلسفي. انه لم

يتعلم هذا في المختبر، وليس هو انعكاس من المحيط الخارجي الى الذهن بعنوان الحس بل هو جزء من استنباطات العقل ذاته من خلال الظواهر التي شاهدها في الخارج. والعقل يستنبط ان للتجربة قيمتها، لا انه يستنبط ان هذه المسألة العقلية يمكن تحصيلها من خلال التجربة.

فرق بين ان نقول ان التجربة هي الأساس والمعيار لتقييم المعارف وأن نقول ان للتجربة قيمة ودوراً كبيراً لكن معيار قيمتها العقل. فقد نقول مثلاً ان هذا الكوب مع هذا الماء يعادل عدة غرامات، وان هذا الورق مثلاً بعد وزنه يساوي كذا. وفي كلا الحالين يكون لكل من هذين الأمرين وزناً. اما الميزان فليس هو الكوب ولا الورق بل ان عامل زنة هذه الأمور هو أمر آخر مغاير لهما، وذلك لأن الميزان غير الوزن لا نفسه ومعيار زنة الشيء غير قيمة الشيء لا نفسها، وهكذا فيما نحن فيه تارة نقول: ان للتجربة وزناً وقيمة، وتارة نقول: ان التجربة هي معيار وميزان تقيم الأفكار. والصحيح هو الحكم الأول لا الثاني. فللتجربة قيمتها وينبغي ان يستفاد منها، ولكن ذلك المعيار الذي يعطي التجربة قيمتها ووزنها هو العقل الذي لا يرى في المختبرات ولا تحدده المادة، بل هو أمر غيبي يعطي التجربة والاختبار قيمتها بصفة نوع من أنواع الاستدلال.

والنتيجة ان القرآن كلي ودائمي، ولكن الذين يهتدون به وينتفعون منه هم الذين يرون العقل معياراً للمعرفة لا الحس المادي فهو كالدواء الذي ينفع كل المرضى لكن الذي يلتزم الحمية ويستعمل ذلك الدواء يشفى بخلاف الذي لا يستعمله ولا يلتزم الحمية، وهذا لا يعني ان الدواء ليس عاما ولا ينفع كل المرضى، بل لأن المريض لم يكيف او يطبع نفسه مع الدواء؛ ولهذا فقد قال القرآن الكريم الى جانب هذا المطلب: ﴿أفمن شرح

الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم﴾[1] . فالذي يتحلى بصدر منشرح للاسلام ومنفتح يتمتع بنورانية يتمكن معها من الاستفادة من القرآن والاستعانة به. أما الذين قست قلوبهم بسبب الذنوب والتوجه نحو المادة فالويل لهم **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾** فالويل لأولئك الذين غرقوا في عالم الطبيعة ولم يتجاوزوه فانهم قد دفنوا أنفسهم وصارت قلوبهم قاسية فالويل لأولئك الذين هم عن ذكر الله غافلون. نسأل الله تعالى ان ينور قلوبنا بذكره وان يجعلها واعية لمعارف القرآن الكريم ومضامينه وان يحشرنا مع كتابه وأنبيائه وأوليائه..

---

(١) سورة الزمر، الآية (٢٢).



الدرس الثامن

مراحل التكامل من المعرفة حتى الإمامة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

تحدثنا حول المسائل التي تعين الخطوط العامة لتفسير القرآن الكريم، واستنتجنا من المحاضرة السابقة ان طريق المعرفة والنظرة الكونية عندنا غير منحصر بالحس والتجربة وان كانت التجربة بدورها مفيدة في معرفة جوانب من العالم وضرورية أيضاً ولكنها ليست كافية، وهي إحدى الطرق لذلك الا أنها لا تشكل بداية الطريق لأنها بذاتها تستند الى العقل. فلولا الاستدلال العقلي لما كان للتجربة قيمة أبداً فالتجربة لا تثبت نفسها بل يثبتها العقل. فالبرهان والدليل العقلي هو الذي يمنح التجربة قيمة، ولولا وجود ذلك البرهان العقلي، كسند للتجربة لما كان للتجربة ان تتجاوز حد الاستقراء الذي لا يفيد العلم؛ ولهذا كان التفكير العقلي أساس المعرفة وليس التجربة والتي هي متفرعة على التفكير العقلي.

ويعتمد القرآن على دور العقل كثيراً ويستند الى الدليل العقلي في براهينه ويحترم دور التجربة في ظل البرهان العقلي. وبالضرورة فعن طريق التفكير العقلي كانت بداية المعرفة الانسانية والنظرة الكونية. وحين يكون التفكير العقلي صحيحاً فان القرآن يرشد الانسان نحو السبل التي توصله الى تحقيق الهدف النهائي من الخلق ومسألة تكامل الانسان في انسانيته واحدة من الموضوعات القرآنية المهمة، لأن الانسان في نظر القرآن الكريم كائن أبدي لأنه ينتقل باستمرار من عالم الى عالم حيث بوصوله الى نهاية المسير سيكون كائنا أبدياً.

ومن أجل تربية الانسان الذي هو موجود أبدي في نظر القرآن لا بد من وسائل أبدية لا تفنى ولا تزول، وتلك هي العلم والمعرفة والعمل الصالح التي يحيي الملكات الانسانية في نفس الانسان. فقد يصل الانسان مرحلة لا سعي فيها ولا عمل: اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل[1] من الممكن ان يكون امام الانسان عالم ـ وهو القيامة ـ يرفع التكليف بالوصول إليه، لا انه لا يعمل فحسب بل لا يكون مأموراً بالعمل. الا ان حصيلته العلمية والعملية تكون حية في ذلك العالم وأبدية، أي ان ما تعلمه في الحياة الدنيا من علوم صحيحة تكون حاضرة عند ذاك وان كل ما عملت يداه وكل ما قد قام به في الحياة الدنيا من الايمان والعمل الصالح وما يمتلكه من ملكات يكون هناك حيا وموجودا أبديا؛ فالانسان من وجهة نظر القرآن الكريم له بعد علمي حي أبدي وبعد عملي واخلاقي حي أبدي.

كذلك يرى القرآن الكريم ان العلم والعمل او العقل النظري والعقل

---

(١) نهج البلاغة/ فيض الاسلام/ خ ٤٢/ ص ١٢٨.

العملي سيتحدان في نهاية الأمر وان كانا في البداية وخلال الطريق أمرين مختلفين ومستقلين. فالعقل النظري والعقل العملي للانسان الكامل سيكونان واحداً، وهي غاية المراحل الانسانية حيث المعرفة عين القدرة والقدرة عين المعرفة.

ففي أثناء الطريق تأتي المعرفة بالقدرة لكن في نهاية الأمر وآخر الطريق تكون المعرفة عين القدرة، والقدرة عين المعرفة. في تلك المرحلة الرفيعة والسامية لا تفترق المعرفة عن القدرة ولا القدرة عن المعرفة.

وقد أرشد القرآن الانسان من أجل الوصول الى تلك المرحلة النهائية والتي هي في الحقيقة الهدف من خلق الانسان، بل ربما كان الهدف أرقى منها أحيانا.

وكما اتضح لنا في المحاضرات السابقة، فان القرآن نور وتبيان، اي تبيان لجميع المعارف والحقائق؛ فبعد ان أثبت القرآن الكريم ان بداية الحركة هي المعرفة العقلية والتفكير العقلي لا التجربة والحس فقد رتب مطالب أخرى على أساس هذا الأصل؛ فبين انه لكي يصل الانسان الى ذلك المقام الشامخ والهدف النهائي لا بد له ان يجتاز هذه المراحل الخمس بنجاح كبير، الواحدة تلو الأخرى:

الأولى: مرحلة المعرفة والأفكار العقلية الأصيلة.

الثانية: الهجرة والسعي والجهاد والمثابرة.

الثالثة: السرعة في العمل، والتعجيل في الهجرة والاسراع في الحركة.

الرابعة: الآخرين في الفضائل والتقدم والاسراع في الخيرات وبلوغ الأهداف قبل الآخرين وما شابه ذلك.

الخامسة: الامامة والقيادة والأسوة والقدوة وتوجيه الآخرين وارشادهم.

لقد بين القرآن الكريم وبالتفصيل هذه المراحل الخمس: (المعرفة ـ الهجرة ـ السرعة ـ السبقة ـ الامامة).

فقال عن المعرفة: **﴿فاعلم انه لا إله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾**[1] فأمر الرسول الأكرم ﷺ ان يحيط علماً بالتوحيد ويرفض مدعي الألوهية والربوبية الكاذبين، اعلم انه لا اله الا الله فحركة الاعتقاد تقوم على محور العلم والوعي والمعرفة، ولا يقال للتقليد في التوحيد علماً.

اذا كانت مسألة بحاجة الى الحد الأوسط والاستدلال فلا يمكن للانسان ان يحيط علماً ويقيناً بها دون الوصول الى الحد الأوسط والاستدلال. وهنا يخاطب الله رسوله ويقول: **﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾**.

ليس فقط: قل **﴿لا إله الا الله﴾** بل: اعلم انه **﴿لا إله الا الله﴾**. القول حركة اثناء الطريق وليست هي البداية. البداية هي المعرفة والفكر. الوعي أولاً ومن ثم السعي، العلم أولاً ومن بعده التحرك، المعرفة أولاً ومن ثم السعي **﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾**.

فالقرآن لا يطرح التوحيد بصفته مركباً من بعدين: النفي والاثبات،

---

(١) سورة محمد، الآية (١٩).

بان ينفي صفة الألوهية عن الآلهة المزيفة أولاً ثم يثبتها لله بعد ذلك فليست كلمة التوحيد جملتي نفي واثبات بحيث تتطلب منهما سعيا وجهدا، فـ ﴿الا﴾ هنا بمعنى «غير» أي غير الله الذي تتقبله الفطرة وتسعى نحوه لا يوجد آلهة أخرى فبواسطة ﴿لا إله الا الله﴾ تتضح هذه المعرفة الفطرية التي تميل نحو الله وتتحرك صوبه، غير الله الذي تتقبله الفطرة لا يوجد آلهة أخرى؛ لأن الفطرة محتاجة وبين المحتاج والغني تجاذب تكويني عندما يكون في الوجود عطش فلا بد من وجود الماء واذا كان في العالم محتاج فلا بد من وجود الغني.

ان الانسان الذي يحس بنقصه، يتجه ـ ذاتاً ـ الى الله الغني. اذن فـ﴿لا اله الا الله﴾ ليس بمعنى الاستثناء أي ان نقول ليس هنالك من اله ثم نستثني الله سبحانه بأنه اله، فيكون الأول عقداً سلبياً والثاني عقداً ايجابياً، بل ان ﴿الا﴾ هنا بمعنى «غير». اي غير الله الذي تميل نحوه الفطرة ليس من إله آخر، اذن فأولاً اثبات الله وبعد ذلك نفي الشرك. الأول: التوحيد والاعتقاد بالله، ثم نفي الشرك ونفي الطاغوت.

فما لم يمتلك الانسان قاعدة فكرية ايجابية لا يمكنه رفض الفكرة السلبية الطارئة وما لم يلج الانسان حرم التوحيد الآمن لا يستطيع أن يرفض الشرك والطاغوت فعندما يبدأ الانسان بالمعرفة فهو قد يشرع من بداية طريق التكامل، وعلى حد تعبير مولى الموحدين الامام علي بن أبي طالب عليه السلام: أول الدين معرفته فقد عرف الله، وبعد ذلك تحرك نحوه. فما لم يلوث فطرته فان هذه الفطرة النقية هي في حركة صوب الكمال المطلق واذا اكتملت المعرفة والتفت الانسان الى نقصه وابناء جنسه، واطلع على افتقاره والآخرين وأدرك ان المبدأ الغني هو الذي أنشأه ورباه؛ تحرك نحو المبدأ

الغني المطلق. . اذا تمت المعرفة انطلق الانسان في الحركة والسير والهجرة. . . الى الله.

فإنه وان لم ترد كلمة «الحركة» في القرآن الكريم، لكن مفهوم الحركة ولوازمها قد وردت، من قبيل: ﴿يسيّركم في البر والبحر﴾ و﴿هاجروا في سبيل الله﴾. الهجرة يعني التخلص من النقائص والانطلاق نحو الكامل والكمال والحقيقة فان الهجرة هي القصد فقط وليس التخلص لأن الانسان عندما يهاجر ويتخلص من النقص وينتقل من القوة الى الفعل فهو لا يفقد شيئاً. ولئن قالوا بأن الحركة فراق ووصال فانما ذلك تسهيلاً للتعلم والتعليم والا فالحركة ليست فراقاً ووصالاً؛ فالذي يعطي شيئاً ليأخذ شيئاً لا يتحرك فمن فقد كمالاً لم يقم بحركة. فالحركة على طول الخط قصد وعروج نحو الكمال، وخروج من القوة الى الفعل، وابتعاد عن النقائص والرذائل الأخلاقية. . وهجرة. . وتحليق فوق الطبيعة. . وانعتاق من عالم المادة وانعتاق من الرذائل النفسية التي تشدّ الانسان الى الأرض وتجعله يشعر بالثقل وهي تحرر والهجرة تمنح الانسان النجاة ويقال لذلك الارتقاء «نجو» ولتلك «المرقاة» نجاة.

فبالهجرة ينجو الانسان لأنه يرتقي فوق حضيض الطبيعة والمادة. فعندما يصل الانسان الى ذلك المرتفع والمرتقى ينجو حيث ان هذا المقام مقام التجرد وما دام الانسان تائهاً في صحراء الميل للدنيا العريضة فهو بعيد عن النجاة. . وحين ينتقل من الوادي الى السهل الواسع ومن السهل الى السفح ومن السفح الى القمة والأوج، يصبح من أهل النجاة وعندها يصير من أهل المناجاة مع الله سبحانه وتعالى أيضاً، ويناجي ربه وعندها يناجيه الله كذلك.

وبنـاءً علـى هـذا، اذا انطلـق الانسـان فهـو لا يفقـد شيئـاً بـل انـه ينـال مكاسب جديدة باستمرار. فما يخلفه الانسان وراءه في حركته وهجرته هو النقص، وترك النقص كمال. فما يخسره المهاجر والمتحرك هو النقائص والأهواء المادية والطبيعية، وفقدانها هو [عين] الفضيلة والكمال؛ لأنها سلاسل وأغلال وموانع وعقبات.

عندما تبدأ الهجرة عن الرذائل ويبتعد عن الرذائل الحيوانية يمكن للانسان رؤية الطريق والصراط بوضوح، وهنا يدرك الانسان ان كثيراً من الكمالات التي كان يعدها المرحلة النهائية سابقاً موجودة في الحيوانات أيضاً، وعندما يشرع في المسير وينطلق يرى ان العالم في سعي وحركة، وان ما وجده موجود لدى الآخرين أيضاً.

فان سعى لتوفير وسائل الترفيه، من لباس فاخر وطعام لذيذ، وان يحمـل كـل هـذه الأشيـاء، وان ينمـو.. فسـوف يـرى ان هـذا المستـوى مـن الهجرة والحركة والكمال موجود في النباتات أيضاً وسوف يدرك ان الانسان الـذي كـل همـه وسعيـه لأن يـوفـر الغـذاء الجيـد ويتنـاول الغـذاء الجيـد لينمـو بشكل جيد هو ليس بأحسن حالاً من النبات.

فإذا ما توقف الانسان عند هذا المستوى يتبين ان معرفته ليست كاملة وان معنى ﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾ لم تنبت في روحه.

ان الانسان الذي همه وسعيه هو ان يأكل جيدا ويلبس جيدا ويتجمل جيداً ويجمّل جيداً لا يعدو ان يكون شجرة جيدة، فهو بمثابة نبات نام وجيد وجميل.

وهذا المستوى ليس انه لا يرتقي الى المستوى الانساني فحسب بل انه

لا يرتقي الى المستوى الحيواني أيضاً، لأن النباتات هي الأخرى تملك هذا المستوى من الهجرة والحركة والكمال.

وان تخطى هذه المرحلة وحلل بأفكاره وفهمه المسائل، وصار همه ان يؤدي الأمانة. . وان يتذوق طعم الأمانة والائتمان.

وان يسعى لتحقيق كمالات كهذه، والتي هي أول الطريق أيضاً؛ لأن أمثال هذه الخصال قد غرست في بعض الحيوانات أيضاً؛ فالذي لا يخون هو حيوان جيد لم يبلغ حد الانسانية بعد. . والذي يحمي الضعيف ومحيط بيئته هو الحيوان الجيد الذي لم يبلغ المراتب الانسانية العالية بعد.

وعلى حد التعبير الرفيع لابن سينا (الذي هو من حكماء المتألهين الاسلاميين) في الاشارات والتنبيهات: ان الكلب (المعلَّم) ليزحف وهو جائع وبأمسّ الحاجة الى الطعام، على الأرض الصخرية لالتقاط الفريسة في سفح الجبل كي يقدمها ـ بأمانة ـ الى صاحبه الصياد. . لأنه ربي على اداء الأمانة. . وانه ليجد لذة في عمله ذاك.

فان لم يخن المرء فليس معنى ذلك انه انسان كامل وانه قد بلغ المنزلة الانسانية الشامخة والرفيعة؛ لأن الذي يخون الأمانة هو أدنى مرتبة من الأنعام على حد تعبير القرآن الكريم. وعندما يعبر القرآن عن أناس أنهم ﴿كالأنعام بل هم أضل﴾[1] فليس ذلك من باب الذمّ أو السباب، بل هو التعبير الواقعي عن حقيقة ودواخل هؤلاء التي هي ادنى من البهائم. اننا نرى الدجاجة تشعر بالمسؤولية بمجرد ان تضع البيض فتبدأ برعاية فراخها والمحافظة عليها والدفاع عنها وحمايتها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٧٩).

فالدفاع عن الأدنى . . والوقوف الى جانب التابع الضعيف حالة موجودة في الحيوانات أيضاً؛ ولذا فان الذي لا يدفع عن الضعيف لهو أدنى وأضل من الحيوانات. وهذه الخصال لا تمثل درجة الانسانية الكاملة. فالانسان أسمى منها بكثير. اذا سعى امرؤ وجاهد من أجل مياهه وترابه فهو لم يبلغ الكمال الانساني بعد، اما لو سعى وجاهد من أجل عقيدته ودينه وأنبيائه وأئمته. . والخلاصة لو كان سعيه وجهاده في سبيل الله ولأجل السعادة الأبدية، عند ذلك يكون انساناً.

ولهذا، يأمرنا القرآن الكريم بالاسراع في الحركة والسعي وبذل الجهد في نيل الفضائل والخيرات، لا تقنعوا بما أنتم عليه، بل استمروا في حركتكم أسرع، **﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾**[1] .

السرعة صفة الهجرة والحركة وهي كمال، والعجلة صفة المتحرك وهي نقص. فالذي لم يحصل على المعرفة ويشرع بالحركة هو عجول، اما الذي تنوّر بالمعرفة وشرع بالهجرة والحركة، فإن تضاعفت حركته فهي سرعة، وهي أمر حسن وفي موضعه، ولهذا أوصى القرآن بالمسارعة هنا فقال: **﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم﴾**. . ها هنا يأمر القرآن بالسرعة، ويقول ان هذه السرعة ليست في التكاثر في الأموال لكي تستقبح، ان هذه السرعة ليست في الجري وراء المادة والدنيا لكي يكون استكثارها قبيحاً. **﴿ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات﴾**[2] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٣).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٤٨).

سابقوا لتفوزوا كونوا السباقين والمتقدمين فان كان الآخرون يسعون في المسائل العملية فاسعوا أنتم لكي تكونوا أعلم وان تضيفوا الى علومكم ما تستفيدونه من علوم الآخرين «أعلم الناس من جمع علم غيره الى علمه».

وان كان غيركم عادلاً فاسعوا لأن تكونوا أعدل، أو كان شجاعاً فاسعوا لكي تكونوا أشجع، أو كان تقياً فاسعوا لأن تكونوا أتقى ذلك **﴿ان أكرمكم عند الله اتقاكم﴾**[1].

سابقوا، فان هذه المسابقة مؤشر على الكوثر خلافاً للتنافس على الدنيا فهو تكاثر مذموم؛ فان الله تعالى عبّر عن الخير والعظمة بالكوثر فقال **﴿انا أعطيناك الكوثر﴾**[2] وعن القبائح بالتكاثر، فقال: **﴿الهاكم التكاثر﴾**[3].

فمن يسابق في هذه المرحلة ويتقدم ويسبق، ويصل الى الفضائل قبل الآخرين.. شيئا فشيئاً تتشكل صورة سبقه فيكون من الذين وصفهم القرآن بقوله **﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون﴾**[4] الذين لا يبلغ مرتبتهم أحد لا يرى القرآن الكريم من التحق بالاسلام بعد فتح مكة كمن آمن قبل الفتح وجاهد في سبيل تقدم الاسلام من كان من **﴿والسابقون السابقون﴾** من نصر الاسلام ونبيه عندما كانت الدعوة الاسلامية ضعيفة حتى انتشرت في الحجاز وتم فتح مكة وبقية الفتوحات الاسلامية بأمر وقيادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو في السابقين والذين التحقوا بهم فيما بعد ليسوا مثلهم اذ

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).
(٢) سورة الكوثر، الآية (١).
(٣) سورة التكاثر، الآية (١).
(٤) سورة الواقعة، الآية (١٠و١١).

اللاحق ليس مثل السابق أبداً. فالسابق قد أسرع ونال السبق وذاك تأخر فكان لاحقا. هذا كان بطيئاً وذاك كان سريعاً، كان طائرا ومتقدما ومسرعا في أمر دينه.

وحين ينتهي السباق ويفرز السابقون عن الآخرين الذين تخلفوا يكون الأسبق والأعلم والأعدل والأشجع والأعلى ادارة وتدبيراً من بين هؤلاء السابقين هو الامام.

المرحلة الخامسة: مرحلة الامامة.

قال تعالى: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** فالمتقدم من بين السابقين يكون اماماً للمتقين. التقوى اللازمة ضد الأجنبي وهي بالجهاد، والتقوى حيال الصديق هي بالعطف والرأفة؛ فان الورع عن محارم الله وعذابه يستلزم تكليفا خاصا في كل مورد، فمع المؤمنين بالرأفة والرحمة مع الكفار بالشدة **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** فالتقوى في ساحة المعركة هي الشدة، وبين المسلمين هي الرحمة.

وبناء على هذا فان المتقدم من بين السابقين والسابق أكثر من الجميع هو الامام: **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾**[1]، اذ ان الذي كان صابراً على الطاعة والمصيبة وعن المعصية يمكنه ان يصل مرحلة الإمامة.

والامام هو تلك الطريق الواسعة. فليس كل طريق يوصل الى الهدف والمقصد، كما ان القرآن لا يعتبر كل طريق امام، بل ذاك الطريق الرحب الذي يكفي في الوصول ومعرفة الهدف وهو ذاته الصراط **﴿واجعلنا للمتقين**

---

(١) سورة السجدة، الآية (٢٤).

اماما﴾، يقول الله عن أئمة الدين ﴿**وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة**﴾[1] وهذا هو الوحي التسديدي والتوفيقي لا الوحي التشريعي ووحي الاحكام. . فالرسول ﷺ يتلقى الوحي في التشريع والأحكام، الا ان أئمة الحق وقادة الخلق يمتازون بالوحي التسديدي والتأييدي.

واذا ما بلغ الانسان المهاجر السابق هذه المرحلة ودخل نطاق الامامة فلا حد لتوقفه في السير بل الامام يستطيع ان يبلغ حيث يمكن لموجود عالم الامكان ان يتقدم، ويصل ذلك الانسان الكامل الى حيث هو في ميسور الانسانية. وبين تلك المرحلة ومرحلة المعبود الحق مسافة لا متناهية وغير محدودة وليست مجرد مسافة وانما المسافة بين الممكن والواجب غير محدودة وتعد جزءاً من الصقع الإلهي.

وحتى لو بلغ مرحلة لا يشعر فيها بذاته، اي كان موجوداً لكنه لم يعِ وجوده بل ذاب في واجب الوجود، فان الفاصلة بينه وبين الواجب غير محدودة أيضاً.

وأخيراً، فان الطرق التي يرسمها القرآن متناسبة في الطول، فيبدأ بالمعرفة، حيث في القرآن الكريم اكثر من ثلاثمائة آية حول المعرفة والتفكر والتذكر والتدبّر. .

المرحلة الأولى هي المعرفة التي يجب ان تستند التجربة اليها. . والمرحلة الثانية الحركة والهجرة من النقص الى الكمال، والعزم على السير، والتخلص من عبادة الذات، والابتعاد عن الاهواء. وهو ما يعتمد على معرفة النفس أيضاً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٧٣).

المرحلة الثالثة هي المسارعة في الهجرة والحركة وعدم التواني: ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري﴾.

المرحلة الرابعة هي: المسابقة والتسابق في الفضائل والخيرات مع الآخرين.

المرحلة الخامسة: الامامة والقيادة والشعور بالمسؤولية، والتوجيه والارشاد؛ حيث الانسان يتجه نحو الكمال ليجتذب الآخرين أيضاً. ان السرعة التي لا تنتهي الى السبق لا تزال بين مراحل الطريق. وذلك السبق الذي لا يختتم بالامامة لا يزال من مراحل الطريق.. والذي لا يحس بالمسؤولية ولا يفكر الا في نجاة نفسه، دون ان يأخذ ابتلاء الآخرين بعين الاعتبار، ليس اماما، فهو لا يتحرك ـ في الحقيقة ـ نحو الهدف المنشود، فهو قد سارع ليكون اماما، وسابق ليكون اماما، وحصل على المعرفة لكي يكون اماما، وهاجر ليكون اماما، ولهذا فان الامامة هي أعلى مراتب الانسانية وأرفعها.

والامامة الأصيلة هي للأنبياء والأولياء اي الأئمة الأطهار عليهم السلام فالآخرين؛ وكل من تابع المعصومين يمكنه ان يكون بدوره اماماً لغيره بقدر ما نال من المعرفة وحقق من الحركة والهجرة والسرعة والسبقة.

نسأل الله تعالى ان يتفضل على الجميع بالانتفاع من القرآن الكريم وان نحصل على المعرفة بالشكل الصحيح فتكون معرفتنا طريقاً الى الحركة والهجرة الى الله، وان يسارع في هجرتنا ويبلغ بها السبقة فالامامة والقيادة في ظل امامة وقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وهي الغاية الممكنة في عالم الامكان.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله



الدرس التاسع

طرق معرفة التوحيد

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كانت حصيلة الدرس السابق في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ان توضيح التكامل الانساني ومراحله هي احدى الموضوعات القرآنية المهمة. وفيما يتعلق بانسانية الانسان اتضح ان القرآن الكريم يبين خمس مراحل للتكامل الانساني هي:

أولاً: المعرفة والوعي والاطلاع.

ثانيا: الحركة والهجرة والسعي والجهاد.

ثالثاً: السرعة والتعجيل فيما مر.

رابعا: التسابق والتقدم في الفضائل الانسانية.

خامساً: الامامة والقيادة والارشاد.

وان هذه المراحل مفتوحة لكل احد، ولا ينقطع خلال كل مرحلة عن المرحلة السابقة بل تكملها أيضاً، الا ان بداية كل المراحل المعرفة.

وفي بحث المعرفة اتضح ان الحس والتجربة مع كونها مفيدة ولازمة، فهي غير كافية للحصول على المعرفة، ذلك ان التجربة تقع وسط الطريق لا أوله فهي فرع وليست أصلاً، وان نحن أردنا ان نتحرك في محور الحس والتجربة فعلينا ان نعلم ان ظهير التجربة هو التفكير العقلي وهو ليس حسيا، لكنه يمنح القيمة للتجربة والحس. فلا يمكن للانسان ان يبتدىء تكامله بالتجربة كما مر تفصيل ذلك لأنه لا يستطيع ان يجد طريقه الى الكمال اللاحسي.

وحين تبتدىء الحركة من المعرفة والفكر العقلي الذي هو على درجات، فستكون المراحل القادمة على مراتب أيضاً.

وكل من كانت درجاته في المعرفة أنزل اخفق ففي اجتياز المراحل التي تليها اما هو يخفق او لا يصل الى حد الكمال المنشود، فما لم يبلغ الانسان الكمال في المعرفة لن ينجح في اجتياز المراحل اللاحقة وسيخفق حتماً.

لقد اعتبر القرآن الكريم المعرفة العقلية والبرهانية للتوحيد بداية لطي هذه المراحل فقال مخاطبا رسوله الكريم ﷺ: **﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾** أي ليس قل **﴿لا إله الا الله﴾** فقط بل أعلم انه **﴿لا إله الا الله﴾**، فقول **﴿لا إله الا الله﴾** يأتي بعد معرفة التوحيد، والتوحيد ليس على قسمين او بعدين ليكون الأول نفي الشرك والطاغوت، والثاني اثبات الله واقراره. فـ**﴿الا﴾** ـ هنا ـ بمعنى «غير» اي ان غير الله الذي تقبله الفطرة والعقل لا يوجد الهة

كاذبة ففي البدء الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه، اي الاعتراف به، ومن بعده نفي الشرك عنه.

ومن أجل اثبات المبدأ ومعرفته، طرق كثيرة - في نظر القرآن الكريم يرشد إلى بعضها. وقبل ان نشرع ببيان طرق القرآن الكريم لا بد من عرض مقدمة موجزة وهي انه يجب الالتفات اليها ان في الاستدلال والتفكير يمكن للمفكر والمستدل والذي قد بدأ حركته الفكرية ان يعطى القيمة لفكره في الاستدلال ويستفيد منه فكره، في ثلاث طرق:

أولاً: ان هذا المفكر شرع في حركة فكرية وتحرك في مسار فكري ليصل الى هدف معين. فهنا لدينا ثلاثة أمور: متحرك وهو ذات المفكر، ومسار وهو طريقه الفكري، وهدف وهو حصيلة الفكرة؛ وبتعبير آخر: سالك ومسلك ومسلوك اليه، او سائر وطريق وهدف حيث لكل منها مستقل عن الآخر.

ثانياً: يمكن ان يكون المتحرك هو عين الطريق، أي أن يفكر الانسان في نفسه فيكون هو ومسير الفكر واحداً. السائر والمسار واحداً، ويصل الى هدفه بسلوك الطريق الى نفسه.

ثالثاً: ويمكن ان يسعى المفكر والمتحرك وهو في الهدف اي يصل الى هدفه نتيجة سعيه في الهدف؛ وفي هذا القسم يكون الطريق عين الهدف؛ فبدراسة الهدف يصل الى الهدف، فيكون الطريق والهدف واحداً، والسالك منفصلاً عنهما.

وأما القسم الأول والذي يكون فيه السالك غير المسلك وغير الهدف فهو كأن يصل الانسان من خلال تأمله في الكون وملاحظته الدقة والنظام

والانسجام في المخلوقات ومن خلال التدبر في تحولات عالم الخلق التي تحير العقول. . الى الحكم بأن هذه الموجودات الناقصة العاجزة محتاجة الى غني تستند اليه وتستمد منه. . فيصل الى مبدأ الوجود.

ففي مثل هذا الاستدلال يكون الانسان المفكر سالكاً والتأمل والمطالعة في عالم الخلق طريقا، والاعتقاد بالتوحيد واثبات المبدأ هدفاً وغاية.

أما القسم الثاني والذي يكون فيه السالك عين الطريق فهو كالانسان الذي يغوص في ذاته؛ لا يفكر في الكون الخارجي بل يتأمل في العالم الداخلي: من أنا؟ وما أنا؟ من اين أتيت؟ وإلى أين أذهب؟ لماذا لا أملك ارادتي وأمري؟ لماذا لا يكون هذا التولي والتبري باختياري؟ وبإرادة من احجامي واقدامي؟ من الذي خلقني والى اين أسير؟ لماذا تفسخ اراداتي؟ لماذا تنتقض قراراتي؟ لماذا تتبدل نواياي؟ لماذا لا أستطيع حراسة بوابات ذهني وذاكرتي كي لا تمر على ذهني الذكريات المرة؟ لماذا لا أستطيع التصرف بروحي؟ لماذا لا أستطيع الاحتفاظ ببعض الذكريات العذبة التي أحب الاحتفاظ بها؟ ولا أنسى بعض الذكريات المرة التي لا أرغب الاحتفاظ بها؟ ولماذا لا أملك مفاتيح بوابات قلبي؟.

يستطيع الانسان ان يمتلك مفتاح داره، فيفتح بابها او يغلقها. . يفتحها للصديق ويغلقها بوجه العدو. وقد يصل الانسان درجة يستطيع فيها أن يسيطر على حدود دولة أو قارة فيمنع العدد من الدخول، والصديق من المغادرة، بل قد يملك زمام الغلاف الجوي للأرض فيمنع خروج شيء من مدار الأرض أو ورود شيء ودخوله فيه.

يستطيع العلم ان يتحكم في هذه الأمور لكنه لا يستطيع التحكم في القلب، فما هو هذا القلب الذي ليس في اختيارنا؟ وكيف ينصرف الانسان عن امر عزم عليه او يصرف النظر عن تصميمه ذاك؟ وكيف يصمم حيال موضوع متردد فيه؟

ان رؤية النفس هذه والتأمل في الذات ومطالعة أسرارها تعبير عن وحدة السالك والمسلك؛ وما أشار اليه مولى الموحدين علي أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم وحل العقود[1] تعبير عن وحدة السالك والمسلك. وان قوله تعالى في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾[2] يشير الى هذا المعنى أيضاً.

فهذا الانسان العالم الذي يسعى الى معرفة نفسه لا يهمه كيفية تحرك الاجرام السماوية او وجود المعدن في قلب التراب.. هذا المفكر الداخلي النظرة لا شغل له بالحيوانات البحرية وكيف نشأت وترعرعت او النباتات الصحراوية كيف نبتت.. انه يتحرك في عالم الداخل وهنا يكون المتحرك والمسافة واحداً.

اما القسم الثالث حيث الطريق عين الهدف فيعني ان الانسان المفكر، ومن دون ان يتحرك في نفسه (لأنه اجتاز هذه المرحلة) ومن دون ان يسافر في الكون (لأنه تخطى هذه المسافة أيضاً أو مر في حالة استغنى معها عنها).. هذا الانسان يدرس الهدف نفسه؛ وبتأمله هذا يعرف هدفيته ويحصلها وهنا يتوحد الهدف والطريق، ولا يكون الذهاب الى الهدف من

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الحكمة ٢٥٠.
(٢) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

غير الهدف ذاته، بل ان الهدف ينال بالتدقيق في ذات الهدف.

وفي ظل هذه المقدمة القصيرة نصل الى الهدف بنظر التفسير الموضوعي وهو ان القرآن يشرح مسألة التوحيد التي يراها بداية المراحل جميعا ﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾ من ثلاث طرق وثلاث رؤى. فتارة يدعو الانسان الى التأمل في اسرار الطبيعة ونظام الكون المحير للعقول.. والكثير من الآيات في هذا الشأن فمنها ما يقول انه تعالى هو الخالق للسماوات والأرضين او ان الذي أنشأ نظام النجوم والكواكب او ان المنظم لنظام الفصول الأربعة ومنها قوله تعالى: ﴿ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1] وقال: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[2] ﴿والذي قدر فهدى﴾[3].

وبناء على هذا فان التأمل والبحث في الانسجام والارتباط لتدبير ونظام الكون يجعل من الانسان المفكر العاقل موحدا؛ هنا يكون المفكر متحركا، والتأمل في نظام الكون طريقا، والاعتقاد بالمبدأ هدفاً.

اما قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ فيرشد الى الطريق الثاني والذي هو أعمق من الطريق الأول وأنفع وهو أن لا يتجاوز الانسان معرفة نفسه بل يسافر فيها من الجهل الى العلم، وذلك هو السفر في الروح والهجرة من الظلم الى العدل ومن الخوف الى الشجاعة ومن البخل الى الكرم، ومن المراحل المتوسطة للعلم والمعرفة الى المراحل العالية هذا كله سفر وهجرة في الروح فتخطوا المراحل هذه

---

(١) سورة طه، الآية (٥٠).
(٢) سورة السجدة، الآية (٧).
(٣) سورة الأعلى، الآية (٣).

وانشدوا الكمال. الفضيلة والانسانية. . اعلم انكم تملكون الانسانية ولا تفرطوا بإنسانيتكم، هذه الحقيقة الغالية، ولا تفكروا ما الذي يفعله الآخرون و﴿**لا يضركم من ضل اذا اهتديتم**﴾ طالما عملتم بوظائفكم الفردية وقمتم بمسؤوليتكم الاجتماعية. فان عملتم بواجبكم الفردي وأديتم وظيفتكم الاجتماعية بهداية وارشاد الآخرين فلن يلحقكم أذًى أو ضرر بسقوط الآخرين أو تخلفهم.

ان القرآن الكريم يعتبر الانسان موجوداً أبدياً ويرى له ذاتين. يقول تعالى عن الذين لم يسلكوا الطريق ولم يشرعوا من المعرفة ولم يهاجروا ولم يسارعوا ولم يسابقوا ولم يصلوا الى مرحلة الامامة انهم ﴿**نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾[1] اي بما انهم لم ينالوا المعرفة فقد نسوا أنفسهم أيضاً وأنساهم الله اياها وعن نفس هذا الفريق الذي نسى الله وترك الكمال والانسانية الأصيلة.

﴿**فنبذوه وراء ظهورهم**﴾[2] يقول: ﴿**وطائفة قد اهمتهم أنفسهم**﴾[3]. فالقرآن يرى للانسان نفسين؛ تلك التي بلغت المرحلة الحيوانية وهمها الغذاء والكساء الأمر الذي تشترك فيه مع باقي الحيوانات. فهي في هذه المرحلة في مستوى الحياة الحيوانية وتكون ذاته عبارة عن حيوان مستتر كامن في داخله.

والأخرى نفسه الأصيلة وهي التي تفهم أفضل وتعمل أفضل فقد نسيها والتفت الى نفسه الطبيعية والمادية فقط.

---

(١) سورة الحشر، الآية (١٩).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٨٧).
(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

اذن القرآن يرى نفسين وذاتين للانسان، فيقول عن الذين ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ انهم ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾.

فالذي لا يتحرك في داخل نفسه تبقى له نفسه الحيوانية فقط، أما لو هاجر من هذه النفس ومن حيوانيته ودخل حريم الانسانية فانه يجتاز هذه الفسحة الواسعة المترامية ويصل الى الامامة.

ففي هذه الآيات من سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ يدعو الله الانسان الا ينفصل عن روحه ولا يستصغرها وان لا يغفل عن حقيقة كونه انساناً، وكونه الموجود الأبدي الذي لا يزول أبداً. وهنا يكون الطريق ذات السالك ويكون هناك مسير نظري وسير عملي.. وحركة فكرية واخلاقية.. فهو يسعى لأن يتأمل في نفسه، وفي ذات الوقت يسعى لتهذيبها وتزكيتها.. ويسعى في تزكية النفس كما يسعى في معرفتها.. ويفكر لمحو الجهل وازالته وترك النقاط المظلمة والغامضة وتنوير روحه، كما يجهد في التخلص من الرذائل والتحرر منها. وان تقدم في المسيرتين العلمية والعملية اتحدت هاتان الحركتان لتغدوان حقيقة واحدة.

وكما ذكرنا في الدرس السابق فان العقل النظري والعقل العملي هما في البداية ووسط الطريق شيئان، ولكنهما يصلان في الهدف الى مكان واحد. فحين يتكامل الانسان يكون عقله النظري عين عقله العملي، وعقله العملي عين عقله النظري؛ لأن المعرفة هناك عين القدرة، والقدرة عين المعرفة. وان قطع هذه المراحل أيضاً وأراد ان تكون ﴿فاعلم انه لا إله الا الله﴾ متفتحة أكثر وحيوية أكثر فانه يتحرك في حقيقة الهدف ليدرك ذلك الهدف وهو يتأمل في اسماء الله الحسنى ليصل الى الله ويفكر في حقيقة

الوجود ليفهم حقيقة الوجود، الوجود المحض وصانع الوجود. فهو لا يتوصل الى الله عن طريق التأمل في الذات والنفس لأنه قد تجاوز هذا الطريق، ولا يتوصل اليه سبحانه عن طريق التأمل في النظام والانسجام الكوني لأنه قد تجاوزه أيضاً.. انه يفكر بضورة أعمق.

لقد تخطى مرحلة **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾**[1] وتجاوز السير الآفاقي والسير الأنفسي.. انه تجاوز صدر هذه الآية ووصل الى ذيلها **﴿او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾**[2].

انه يدقق في الشاهد المطلق ليدرك ان الشهيد المطلق هو الله: **﴿ألا انه بكل شيء محيط﴾**[3] و**﴿انت على كل شيء شهيد﴾**[4]. هنا يكون الطريق والهدف واحدا، والسالك هو الانسان العارف والمفكر.

وهو إما ان يقطع هذه الطرق بالقلب أو يتعقلها بالفكر والعقل.. فاما ان يسير بواسطة العلم الحصولي او ان يتذوق بالعلم الحضوري؛ لا يهم فهو طريق على كل حال، ان ادرك وفهم أو رأى أما ان يتعرف أولاً عن طريق الدرس والبحث وبالقول والسماع، وبعد ذلك يفهم، أو ان يدرك أولاً ثم يسمع، فتدرك روحه أولاً ومن ثم تسمع أذنه وترى عينه؛ غير ان الحكيم والمفكر يتعرف عن طريق البحث والدرس ويأنس بالقول والاستماع أولاً ليدرك بعد ذلك.

فعندما يشير القرآن الكريم في سورة النجم الى قصة الوحي الى

---

(١) سورة فصلت، الآية (٥٣).
(٢) سورة فصلت، الآية (٥٣).
(٣) سورة فصلت، الآية (٥٤).
(٤) سورة المائدة، الآية (١١٧).

الرسول الأكرم ﷺ، يشرع من القلب. يقول تعالى: **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾**[1] وبعد عدة آيات يقول: **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾**[2] لأنه **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** فلأن القلب أدرك الوحي جيداً فان البصر أدركه جيداً كذلك.

الزيغ غير الطغيان، فتارة يخرج الانسان عن مسير النظر ويرى شيئاً آخر، وتارة لا ينفصل عن المسير ويرى ذات الشيء الا انه يراه ناقصاً فتارة يرى شيئاً آخر مكان الشيء وتارة يرى نفس الشيء لكن على هيئة شبح باهت. ولا يوجد في بصر الأنبياء زيغ ولا طغيان ولا انحراف ولا ضعف، لأن الفؤاد يرى جيداً.

وعلى أي حال فاما طريق القلب او طريق الفكر.. اما ان يدرك جيداً أو يفهم جيداً، على الرغم من ان الفاصلة كبيرة بين ما يدركه (يناله) الأنبياء والأولياء وما يتفهمه المفكرون والعلماء الا ان وجهاً مشتركاً قد يكون تارة بين الحكيم والعارف وهو ان ما يدركه العارف بالروح ويتذوقه هو نفس ما يفهمه المفكر، وبالعكس.

والخلاصة انه ينبغي سلوك هذا الطريق اما عن طريق القلب او عن طريق الفكر، وبعد ذلك يصل الى ان يبحث في الهدف نفسه.

يقول صدر المتألهين في المبدأ والمعاد في شرح بيت للفردوسي الحكيم الشاعر اذ يقول الشاعر (ما معناه): إلهي أنت رب المرتفعات والمنخفضات، لست أدري ما أنت فكل الوجود أنت، أنت خالق ارتفاع

---

(١) سورة النجم، الآية (١١).

(٢) سورة النجم، الآية (١٧).

السماوات وهبوط الأرضين. . وأنت خالق الأرواح الرفيعة والأجسام الوضيعة فما هو في العلو وما هو في الحضيض خلقك، فأنت رب المرتفعات والمنخفضات هذا هو الطريق الذي يكون فيه السالك غير الطريق، وبقطع المسافة فيه يصل الى المقصد.

اما الطريق الثالث الذي يكون فيه الهدف والطريق واحداً فجاء في المصراع الثاني من قصيدة الفردوسي الذي معناه «لا أعرف ما أنت أياً كنت، فكل الوجود أنت» يعني أنت كل حقيقة لها وجود وأنت الوجود المحض، والشهيد المحض والعليم المحض والشاهد المحض والمحيط المحض لا أعرف ما أنت! لكن كل وجود وكل ما هو موجود، وتلك الحقيقة المطلقة التي هي الوجود المحض والوجود الخالص والوجود المطلق هو أنت.

أعمال الدقة هذا في الوجود المحض، ومن ثم الوصول الى هذه النتيجة وهي ان الوجود المحض هو الله، هو الطريق الثالث؛ لأن الآخرين كائنا ما كانوا فهم محدودون ومتغيرون ومحتاجون.

وكما أوضح العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله عليه ـ في تفسيره القيم (الميزان) في شرح هذا المطلب، فان بعض روايات أهل البيت عليهم السلام تشير الى ان الانسان قد يتوصل تارة الى معرفة الله سبحانه عن طريق التأمل في الله سبحانه وليس عن طريق التأمل في العالم او في نفسه.

فمرة يرد في القرآن: **﴿ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**[1].

ومرة يرد في القرآن **﴿عليكم أنفسكم﴾** وفي الحديث «من عرف نفسه

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩٠).

فقد عرف ربه».

ومرة يرد في القرآن ﴿أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾.

أي ان الله يكفي فهو الشهيد على كل شيء، وهو فوق كل مشهود، وهو ﴿نور السماوات والأرض﴾. نعرفه أولاً ثم نعرف العالم.. الخالق أولاً ثم المخلوق. ثم ينقل الحادثة التي يقول فيها الامام الصادق عليه السلام ان أخوة يوسف عندما تأملوا يوسف ونظروا اليه جيدا، ودققوا جيداً في كيفية حديثه وتعامله وآثاره الملازمة أدركوه بنفسه وسألوه «أأنت يوسف؟!» فوصلوا الى يوسف من طريق «أنت» اذ رأوه وتوصلوا الى انه يوسف فلم يسألوا الآخرين أي أنهم عندما قالوا «أأنت يوسف» كانوا قد انتبهوا الى يوسف وأدركوا انه يوسف ولهذا لم يسألوا الآخرين ليرشدوهم اليه بل سألوه نفسه ﴿قالوا أإنك لأنت يوسف﴾[1] أي أنهم عندما دققوا في يوسف وطالعوا جماله توصلوا اليه فلم يقولوا أيوسف أنت؟ وإنما قالوا أأنت يوسف؟ أي أنهم سلكوا من «أنت» فتوصلوا الى «يوسف» عبر «أنت» ومن التأمل في المخاطب ادركوا انه يوسف توصلوا الى حقيقته بالمشاهدة فعرفوه من هو فلم يسألوا الآخرين ولم يغوصوا في التفكير بل أنهم توصلوا الى أنه هو يوسف بالتأمل والمطالعة.

يقول الامام الصادق عليه السلام ان الانسان المؤمن الخالص يمكنه ان يبلغ مرحلة ومقاماً يصل الى الله بالله؛ والذي يقوله الامام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام في دعائه في عرفة «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك»[2] يشير الى هذا اي الطريق الثالث.

---

(١) سورة يوسف، الآية (٩٠).

(٢) مفاتيح الجنان/ دعاء عرفة.

ثم يقول الامام الحسين عليه السلام: «إلهي عميت عين لا تراك عليها رقيبا»[1] وهو توضيح الآية التالية: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[2].

محال ان ترى الله بالعين المادية لأن الله ليس مادة او ماديا ولا تحده الجهات ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[3] ومع ذلك يقول ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[4] لأنهم لا يفكرون، فآذانهم وأعينهم المادية هي التي تسمع وترى لكنها لا ترى ما عدا المادة والطبيعة ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

القسم الثالث والأسلوب الثالث في التفكير والذي يكون فيه الطريق ذات الهدف ويتوصل الى الله بالتأمل في جلال الله وجامعيته فهو أعلى وأرفع طريق ﴿أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد﴾.

لقد ذكرنا في الدرس السابق ان مراحل تكامل الانسان يتلخص في خمس مراحل، هي: المعرفة، والهجرة، والمسارعة، والسبق، والامامة، وان المراحل الأربعة التالية هي رهن المرحلة الأولى اي المعرفة، فكلما زادت المعرفة كانت المراحل التالية أكثر محتوى، وكلما تدنت المعرفة كانت المراحل التالية متدنية أكثر فالمهم هو المعرفة التي هي أول الدين «أول الدين معرفته»، ولذلك فان الناس يُكافأون يوم القيامة على قدر معرفتهم.

---

(١) نفس المصدر.
(٢) سورة الأنعام، الآية (١٠٣).
(٣) سورة البقرة، الآية (١١٥).
(٤) سورة الحج، الآية (٤٦).

ولما كان الانسان يحيا بالمعرفة فانه يمنح الدرجة أولاً ثم يتحد مع الدرجة شيئا فشيئا، يقول الله تعالى في سورة المجادلة: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[1] . فهذه الدرجات انما هي للمؤمن العالم، فليس للمؤمن غير العالم درجات وانما أقل من الدرجات اي درجة اما العالم غير المؤمن فلا درجة له أصلاً، لأن أعماله ﴿كرماد اشتدت به الريح﴾. ولئن ورد في سورة المجادلة ان للمؤمن والمؤمن العالم درجة ودرجات، فقد ورد في سورة أخرى انهم ﴿هم درجات عند الله﴾. اي ان نفس المؤمن المتحرك السابق ﴿والسابقون السابقون﴾ درجة.

فان تكامل الوجود واتحد العالم مع العلم (لا مع المعلوم) وتوحد المؤمن والايمان، واتحدت روح العادل مع العدل، غدت نفس الروح درجة، لأن كل وصف كمالي وجوده يتحد مع روح الانسان، اذ ان روح الانسان العاقل تتحد ـ في مرحلة العاقل والمعقول ـ مع العلم اي وجود المعلوم، لا الماهية او المفهوم مع المعلوم.

لهذا، لا حاجة لحرف «اللام» وأمثاله بأن نقول ﴿لهم درجات﴾ بل ان نفس الأشخاص المؤمنين عين الدرجات؛ فـ﴿هم درجات﴾.

فعندما يتحقق الفرد بحقيقة ما فانه يتحد معها ومع درجتها الوجودية، وكل هؤلاء درجات يواصلون وجودهم في ظل العناية والافاضة للذات المقدسة.

فالله حقيقة لا يمكن لأحد أن يجد طريقه الى بحره الواسع عدا طريق الشهود، وبمقدار ما يفهم الانسان يتحد فهمه معه ويشكل درجة خاصة له.

---

(١) سورة المجادلة، الآية (١١).

فلا يقتصر دور المعرفة في رسم خطوات المراحل القادمة بل ان دورها الأساسي هو ان تتحد مع روح المؤمن؛ وعند ذلك يصبح الانسان أبديا أما الشخص الذي لم يسلك أيا من هذه الطرق الثلاث، ولم يحصل على المعرفة ولم يعرف ويدرك نفسه الحقيقية بل أدرك نفسه الحيوانية فقط واعتنى بها وحدها فبعد ان يتم عالمه الحيواني ويخلف وراءه العالم المادي يقول عنه القرآن الكريم **﴿وأفئدتهم هواء﴾**[1] فارغة لا شيء فيها، فكل ما أعدّه قد تركه وأتى. . كل عمل كان يدور في محور الطبيعة خلفه وراءه وأتى، وتلك المعرفة التي لم تتجاوز الحس والتجربة تركها وأتى. وما كان ينبغي ان يملأ به فؤاده ويتزود به لهذا اليوم فهو منه خلوٌ وما أعده فهو مما لا يبقى، وما جمعه مما يترك، وما كان مما يبقى فلم يجمعه ولم يدخّره. وما كان يراه فغير موجود ها هنا، وما أنس به فغائب عن هذا المكان. وما موجود في هذا المكان لم يأنس به ولم يألفه، ولهذا فهو مستوحش وخالي الفؤاد.

نسأل الله تعالى ان يمنحنا التوفيق ببركة القرآن وأهل البيت عليهم السلام لأن تكون قلوبهم أوعية لمعرفة الله وأنواراً لمعرفة التوحيد، ويستقر علم التوحيد في قلوبنا لكي نستطيع بعد المعرفة التوحيدية ان نهاجر بالشكل الصحيح ونسرع في هذه الهجرة والحركة، ونذال السبق في هذه السرعة، ونصل الى المقام الرفيع للامامة وأن يمنحنا هذه البركات في ظل ولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (٤٣).



الدرس العاشر

توحيد الخالق وارتباطه بعلم الله سبحانه

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم عرضنا بعض المطالب فيما يتعلق بتحديد الخطوط العامة للتفسير وتحليل بعض الموضوعات من وجهة نظر القرآن الكريم. وما سنطرحه في هذا الفصل هو توحيد خالقية الله سبحانه أي بعد قبول مبدأ العلية، فان كل موجود ـ في نظر القرآن الكريم ـ وجوده ليس عين ذاته فهو فقير ومحتاج الى مبدأ الوجود ومفيض الوجود، وتلك الحقيقة الواهية للوجود هي الله وحده وكما انه سبحانه لا شريك له في أصل الذات، فكذلك لا شريك في خلق الكائنات.

يطرح القرآن الكريم مطالب حول التوحيد في الخالقية مؤداها ان العالم ليس له اكثر من خالق واحد، وانه ليس لغيره أي دور في انشاء العالم وخلقه، ولن يكون لأي عامل نصيب في تحقق عالم الخلق. ان القرآن

الكريم يوضح مسألة توحيد الخالق ببيانات مختلفة؛ منها ان دور غير الله في الخلقة والخلق اما ان يكون على نحو الاستقلال او الشركة، واما ان يكون من باب المساعدة والعون أو من باب الشفاعة والتوسل. وينفي القرآن الكريم الأقسام الثلاثة الأولى بشكل صريح ويثبت القسم الأخير شروطا باذنه واجازته عز وجل.

يقول تعالى ـ في سورة سبأ ـ عن التوحيد في الخلق: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾**[١]. لأن نظام الخلقة واحد وتسيّره جهة واحدة **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾**[٢].

القسم الثاني: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾[٣] فغير الله ليس فقط لا يملك بالاستقلال مثقال ذرة بل ليس له شركة في الخلق والتكوين. فلا شركة لـ في الخلق ومالكية التكوين ليكون له شريكاً؛ والملك التكويني الذي هو الخلق التكويني ذاته محضر بالله مستند اليه وحده.

القسم الثالث: ﴿وما له منهم من ظهير﴾[٤] لا يستعين اللهَ في خلق وانشاء شيء في السماوات والأرض بأحد ليكون عوناً وظهيراً أو سنداً له في الخلق.

والخلاصة ان غير الله ليس مالكا لمقدار ذرة لا بالاستقلال ولا بالمشاركة والمظاهرة في الانشاء والخلق والتربية.

---

(١) سورة سبأ، الآية (٢٢).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٨٤).
(٣) سورة سبأ، الآية (٢٢).
(٤) سورة سبأ، الآية (٢٢).

هنا تبقى مسألة واحدة فقط وهي الشفاعة وهل ان غير الله يستطيع ان يشفع في الأعمال بحيث يفعل الله شيئا في نظام الخلق بشفاعته ام لا؟

لا ينفي القرآن مسألة الشفاعة كما هو الحال في الأقسام الثلاثة الأولى؛ التي ينفيها بشكل مطلق، بل هو يثبتها بصورة اجمالية الا انه يحصرها في الآية التالية باذنه تعالى فيقول: **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له﴾**[1] أي لو أراد الشفيع ان يتوسط ويكون وسيلة لكي يشفع الله مثلا عدله برحمته بأن لا ينفذ الله عدله دون رحمته بل يقرنه بها ليتم المطلوب، وتلك هي الشفاعة، فهي أيضاً منوطة باذن الله. اذن فالقرآن يثبت الشفاعة عموماً لكنه يحصرها باذن الله.

وفي النتيجة فلا شيء ولا أحد غير الله يكون له دور في المالكية، والعلة في ذلك هو لا محدودية الحقيقة الإلهية ولا محدودية قدرته الذاتية.

عندما يعرّف الله نفسه كما ورد في القرآن الكريم ويؤيده العقل بأنه «محيط بكل شيء» و«قادر على كل شيء» فهو لا يترك شيئاً لغيره، صنما كان أم غيره، ليكون له في نظام الخلق ملك تكويني بشكل يكون فيه مستقلاً أو شريكاً أو ظهيراً لأن جميع المخلوقات ممكنة ومفتقرة والله وحده هو الغني.

وعلى أساس التوحيد في الخالقية الربوبية، فان الانسان اذا أراد ان يشاهد ربّه وخالقه، فعليه أن يزيل كل حاجب ومانع يحول دون جعله الموحد في الشهود والموحد في المعرفة والموحد في العبودية تلك الموانع التي تقف أمام هذه الرؤية التوحيدية ولا تجعل الانسان يتعرف على وحدة الخالق وتوحيد الرب، أي عليه إزالة كل ما من شأنه أن يقف في وجه عبادة

---

(١) سورة سبأ، الآية (٢٣).

الله الواحد الأحد لا غير.

تلك العوامل والعلل التي تذكر كحجب، كثيرة. فكل تعلق يحتل قلب الانسان ويوجّهه اليه هو حجاب وستار. . كل تعلق واستئناس يجذب قلب الانسان نحوه فهو حجاب اذ الانسان لا يمتلك حقيقتين وواقعتين ولطيفتين إلهيتين. ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[1].

فالانسان لا يملك أكثر من حقيقة؛ فان كانت هذه الحقيقة وهي القلب والروح الإلهية متجهة نحو غير الله فهو حجاب لا يسمح له بالتوجه نحو الله لكي يعبده حتى عبادته.

وهذه الارتباطات تكون تارة مادية كالتعلق بالمال والولد والجاه والمقام، وتارة غير مادية كالتعلق بالعلم والعبادة والعرفان والتي هي الأخرى حجب. العلم هو الحجاب الأكبر، والمعرفة حجاب أيضاً لو تعلق بها العارف: «من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني»[2] فلو كان تعلقه بالمعرفة فهو في حجاب رقيق من الغفلة وان لم يتعلق بأي أمر وكانت علاقته بذاته فقط لا بصفاته ومتعلقاته فذلك حجاب هو الآخر.

الحجاب على قسمين؛ لأن الربط والاضافة على قسمين:

الأول: الحجاب الذي يكون بين أمرين. لو استقر شيء بين أمرين كان حاجباً وحجاباً. والموجود الربطي والفقير المحض الذي يستند الى مبدأ غني لو التفت الى نفسه لكان ذلك حجاباً أيضاً.

ومن أجل توضيح هذه المسألة من ان الحجاب قسمين ينبغي ان نشرع

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤).

(٢) اشارات ابن سينا/ النمط التاسع.

في توضيح قسمي الربط والاضافة. فالاضافة قد تكون مقولية، وقد تكون اشراقية. والربط المقولي هو الذي يوجد الارتباط بين أمرين محققين سواء كان اعتبارياً كالعلاقة بين التملك والمال؛ فهذه العلاقة والاضافة الملكية والتي هي أمر اعتباري انما هي بين موجودين، احدهما الشخص والآخر المال. أو كان تكوّن العلاقة بين شخصين مثل التضايق الموجود بين الأب والابن أو الأخ والأخ وأمثالها وهذه الاضافات انما تنشأ بعد وجود الطرفين اي ينبغي وجود الطرفين اولا لكي توجد العلاقة والرابطة بينهما بعد ذلك. هذا النوع من الاضافة التي تنشأ بعد وجود طرفيها تسمى بالاضافة المقولية أو الاعتبارية.

القسم الآخر هو الربط والاضافة التي يكفي فيها المضاف اليه، والذي هو المبدأ. ويسمى الفيض الذي يظهر من ذلك المبدأ بالاضافة الاشراقية. هذه الاضافة الاشراقية هي اضافة الخلق والايجاد. اي ان الاضافة نفسها تقوم بخلق المضاف والمتعلق والعائد، فالمضاف هنا فرع على الاضافة وليست الاضافة فرعاً عن المضاف.

وكان الخطاب أيضاً على قسمين: خطاب مقولي واعتباري يكون متفرعاً على حضور المتكلم والمخاطب. اذ لا بد من وجود المتكلم والمخاطب وان يتمكن الانسان ان يخاطبه كي يتحقق الخطاب اذ الخطاب فرع المخاطب. القسم الثاني هو الخطاب التكويني الذي يكون المخاطب فيه فرعاً على الخطاب لا الخطاب فرعاً عن المخاطب. كما يقول الله سبحانه وتعالى بإرادته الأمرية ﴿كن فيكون﴾ في عالم الأمر. فعندما يريد الله سبحانه وتعالى شيئاً يقول له ﴿كن﴾ ثم يكون ذلك الشيء. وهو ليس لفظاً او صوتاً او لحناً بل انه الخطاب الذي هو الوجود والعطاء الإلهي. ويكون وجود

المخاطب فرعاً على وجود الخطاب، ويوجد فيما بعد ﴿**انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون**﴾[1] ففي التحليل العقلي الخطاب - هنا - قبل المخاطب وان كان زمن تحققهما في الخارج واحداً.

فكما ان الخطاب على قسمين فكذلك الاضافة والارتباط، وفي النتيجة: الحجاب، فالحجاب أيضاً على قسمين؛ فان كانت الاضافة اضافة مقولية او كان الخطاب خطابا مقولياً كانت حجابيته مقولية أيضاً أي لا يسمح لارتباط وإضافة شيء لشيء آخر. اما في الاضافة الاشراقية فالمضاف الذي هو عين الربط ان التفت الى نفسه فان نفس هذا التوجه الذاتي والالتفات للنفس هو عين الحجاب ولا يسمح بالارتباط مع مبدئه وخالقه لأن المعجب بنفسه لا يمكن ان يلتفت الى الله أبداً أو يتعلق به. وما قيل «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب» فهو ناظر الى هذا المعنى. فما دمت تهتم لوجودك فلن تستطيع أبداً ان تصل الى التوحيد. او ما قيل من انه: «وأنت حجاب نفسك» فلأن الاهتمام بالذات يمنع الانسان من التوجه الى الله.

فليس ثمة حجاب وحاجز بين الخالق والمخلوق يمنعه من الوصول الى الله، العجب والرضى بالنفس هو الحجاب، والا فلا مانع ولا حاجب بين المخلوق وخالقه ان الله أقرب الينا من أنفسنا. ويحيط بنا أكثر من أنفسنا، وما يمنعنا من الوصول الى وحدانية الله سبحانه في الذات.. في الصفات.. في الأفعال.. وفي العبودية هو الاعجاب بالنفس والالتفات اليها.

فان استطاع احد ان يعيش عيش الزهاد ويقلل من تعلّقه الخارجي او

---

(١) سورة يس، الآية (٨٢).

يعيش عيش العرفاء ويزيل عن نفسه صدأ الجهل ولكن كان العرفان نفسه او الزهد نفسه حجاباً له، أو أكثر من ذلك لو تجاوز هذه أيضاً وكان متعلقا بذاته فقط، فما دام متعلقاً بذاته فهو أسير الحجاب، وانما يستطيع معرفة الله بمقدار الامكان بشكل صحيح ويعبده بشكل صحيح حين يخترق كل هذه الحجب والتي مرحلتها الأخيرة (أنت حجاب نفسك) وعندئذٍ ينال النجاة.

تقول الآية الكريمة في سورة سبأ ان لا أحد غير الله يملك ذرة **﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾** لا بالاستقلال ولا على نحو الشركة ولا المعاونة والمظاهرة فقط تبقى مسألة الشفاعة التي تثبت للأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولكن باذن الله.

وعلى هذا الأساس فان الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لأنه خالق كل شيء، وكل شيء مخلوق له. وهو شاهد في كل مكان لأن كل مكان هو خلقه ونشأنه. يشهد كل خاطرة تخطر على قلب أحد لأنها وساحتها من مخلوقاته. وتلك الخاطرة والنية ان كانت خيراً وأمراً وجودياً فمرجعها الى الله، وان كانت شراً ومعصية ونقصاً فهي أمر عدمي لا يتجاوز دائرة الانسان، ولهذا قال: **﴿لله ما في السماوات وما في الأرض إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾**[1] في هذه الآية أربعة مطالب:

أولا: ان الله يعلم ما في السماوات وهي ملكه.

ثانياً: ان الله يعلم بما في الأرض وهي ملكه.

ثالثاً: ان الله يعلم ما تخفون في أنفسكم.

رابعا: انه يعلم ما تبدون وتعلنون.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٤).

هذا التنظيم الرباعي يبين أن أرواحنا بمنزلة سماء عالم خلقتنا وان أجسامنا كأرض خلقتنا الخاصة بنا. وما يطلع ويغرب في سماء أرواحنا، وما يخفى ويظهر في أرضية أجسامنا ـ يعلمه الله، فأينما يكون خلق فمالكه الله بالاستقلال وأينما يكون خلق فالله خالقه بالاستقلال ﴿الله خالق كل شيء﴾. وحيثما تحقق شيء فالله محيط به «الله بكل شيء محيط» فتارة يقول لنا ان ما قمتم به بواسطة العين يعلمه الله فيعلم ما يقوم به الانسان من خيانة بواسطة عينه فالله الخالق للعين بكل ما فيها من ابتكار يعلم ذلك، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[1] . فيعلم كل ذنب يرتكب بواسطة العين ذلك المخلوق المدهش يعلم كل ما يرتكبه من حسن وقبح وما أخفاه في صدره أيضاً.

ما يطرح كدليل في بعض الآيات على عالمية الله هو ان كل الخلق مخلوق لله ﴿الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2] أفلا يكون الخالق عالما ومطلعا والفكر والعلم من مخلوقاته والعالم من مخلوقاته والصور العلمية مخلوقاته ﴿الا يعلم من خلق﴾ فهو عالم لأنه خالق. وفوق هذا فلأنه لطيف ومجرد فهو خبير أيضاً وهو أكثر من العلم.

ولكي يثبت احاطته العلمية أكثر يقول كيفما تكونوا وفي اي وضع وحال فهو شاهدكم لأن تلك الحال والظاهرة خلق الله، فأنتم وارتباطكم بتلك الساحة والظاهرة خلق الله: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[3] .

---

(١) سورة غافر، الآية (١٩).
(٢) سورة الملك، الآية (١٤).
(٣) سورة الحديد، الآية (٣).

فالله قبل كل شيء وبعده، وظاهر كل شيء وباطنه هو الله، ولا تجد شيئاً خارجاً عن احاطة علم الله. فبداية كل شيء، ونهاية كل شيء، وظاهر كل شيء، ومحتوى كل شيء.. تحت نفوذ علم الله لأنه ﴿بكل شيء عليم﴾.

وفي سورة الحديد ذاتها خاطب الناس قائلاً ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾[1] الله معكم اينما كنتم فأنتم ومكانكم وجميع الأشياء مخلوقاته وارتباطكم مع المكان هو الآخر مخلوقه؛ اذن هو معكم. ولكي يتحدث معنا بصورة أوضح، يقول لنا في سورة المجادلة: ﴿ألم ترَ أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾[2] أي أن الأمر بديهي لدرجة ينبغي ان يرى فهو في حكم المرئيات.

فكل ما في عالم التكوين والخلق يعلمه الله وحيثما ذكر ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ وأمثال ذلك فهو كناية عن مجموع نظام الخلق لا خصوص السماوات والأرض.

ثم وبعد هذا المبدأ العام يقول: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾ فحيث يجلس ثلاثة يتناجونَ فيما بينهم يتآمرون ام لا يتآمرون فالله عالم بهم.

فما من حديث سري الا والله حاضره ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾ ﴿ولا خمسة الا هو سادسهم﴾ فهو شاهدهم ويراقب تصرفاتهم.

ويقول في آية أخرى: ﴿وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من

---

(١) سورة الحديد، الآية (٤).

(٢) سورة المجادلة، الآية (٧).

القول﴾[1] فالمنافقين الذين يعقدون اجتماعاتهم السرية ليلاً ويتحدثون بأحاديث لا ترضي الله الله حاضرها ويعرف أسرارها.

﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم اينما كانوا﴾[2] أي وان كانوا أقل من هذا العدد أو أكثر منه بأن كانوا أربعة، أو اثنين ـ مثلاً ـ وكانوا يتناجون او يتآمرون فالله حاضر معهم أيضا.. أينما كانوا.. سواء في الخارج أو في الداخل.. في السماء ام في الأرض.. وفي أية ظروف.. فهو معهم.

وهو لا يعلم بهم فحسب بل سيجازيهم على كل أعمالهم ونواياهم السيئة هذه ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة﴾ فهو سيطلعهم على أعمالهم ويخبرهم ان أعمالكم كانت كذا وكذا. وبعد احضارهم واستجوابهم سيجازيهم على أعمالهم.

﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ اذ ما من شيء ووجود الا وهو خلقه، وكل شيء خلقه فهو يعلم به.

وهنا نذكر مسألة في وسط الآية يؤيدها صدر الآية وذيلها، قال في وسط الآية: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم...﴾ وفي صدر الآية قال: ﴿ألم ترَ ان الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ وفي ذيل الآية قال: ﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ لأنه حاضر جميع أشياء العالم وفي جميع الميادين. ولأنه حاضر في جميع المشاهد فهو عالم بكل نجوى ومؤامرة وجلسة سرية.

الآية أعلاه ترتبط بالنجوى والاسرار في قسم آخر من الآيات قال:

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠٨).

(٢) سورة المجادلة، الآية (٧).

﴿وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى﴾[1] ـ أي لو لم تتناجوا بما تخفون بل أبقيتموه سراً فهو أيضاً يعلم، ذلك أن النجوى والتناجي هو الهمس بالسر للغير بصوت خافت. أما السر فهو ادق من النجوى لأنه لم يذكر بعد لأحد، لم يكتب ولم يتلفظ به، ولم يذكر لأحد حتى بصورة نجوى، ولذا قال ﴿وان تجهر بالقول فانه يعلم السر﴾ اي لو أعلنتم شيئاً وجهرتم به فالله تعالى يعرفه قبل الجهر به، وهذا هو السر. والأدق من هذا انه قد يكون المطلب مخفياً على الانسان نفسه ومخزوناً في (اللاوعي)، فلا يدري هو نفسه بما يضمره داخل قلبه او لا يعرف هو مكنون نفسه، ولا يعرف ما ينطوي عليه صدره من قبح وجمال بسبب حب الذات ولا يدري ما في داخله من أمور أدق من الأسرار.. يقول القرآن ان هذه الأمور التي هي أدق من الأسرار والتي لا يدري بها الانسان نفسه وتختفي في داخله ولا تظهر أبداً، هي الأخرى يعلمها الله ﴿وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى﴾. فما كان خفياً على الانسان ذاته ولم يطلع عليه او كان يحسبه خيراً ﴿يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[2] وتلك العلل والعوامل التي وراء ستار الأسرار تدفعه الى القيام بالعمل.. هذه وغيرها.. كلها يعلمها الله، وان كان شخص الانسان لا يعلمها لأنه سبحانه ﴿بكل شيء عليم﴾.

فان حُلت مسألة توحيد الخالقية فان توحيد الربوبية محلولة أيضا. أي: كل ما هو شيء وموجود فالله خالقه. ان كان خيراً انتهى اليه، وان كان شراً ونقصاً لم يتجاوز الانسان لأنه أمر عدمي ولا يتعلق بالله ولا ينسب الى الأسباب الطولية وكل ما له جهة وجودية وكان شيئاً فالله حاضر هناك وناظر

---

(١) سورة طه، الآية (٧).

(٢) سورة الكهف، الآية (١٠٤).

ورقيب، لأن ما سوى الله ليس مالكاً لشيء لا على نحو الاستقلال ولا الشركة ولا بالمعاونة، وعرصة عالم الخلق ساحة علمه تعالى.

ما ينبغي ان يطرح هنا أنه تعالى قال: **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا﴾** وفي النهي عن التثليث قال: «لا تقولوا ثالث ثلاثة» فهذا ما ينبغي التعرض له في فصل آخر وهو توضيح الفرق بين اثباته «رابع ثلاثة» ونفيه «ثالث ثلاثة» ولكن ما يشار اليه هنا هو: ان ساحة الخلق هي ساحة علم الله لأن توحيد الخالقية والذي يقضي بأن لا دور لأحد في الخلق غيره يقتضي ذلك، ليس فقط ان الله عالم بكل شيء بل انه ـ وعلى حد تعبير أحد فلاسفة الاسلام الكبار ـ ناظر ورقيب وبصير بكل شيء.

فالكثيرون فسروا **﴿بصير﴾** في قوله تعالى **﴿بما تعملون بصير﴾** بالعلم أي: بما تعملون عليم وقالوا أي عليم بالمبصرات؛ لكن عظماء أهل المعنى ليس فقط يلتزمون بظاهر **﴿بصير﴾** بل يؤولون **﴿عليم﴾** بـ**﴿بصير﴾** أيضاً، فان ورد **﴿ان الله بكل شيء عليم﴾** فسروه بـ: «ان الله بكل شيء بصير» و «بكل شيء شاهد»؛ فيؤولون ويرجعون العلم الى البصر لا البصر الى العلم استناداً الى العلم الحضوري لله، حيث يرون ان ساحة الخلق هي ساحة حضوره تعالى ويسمون نفس الأشياء بصفحة علمه تعالى. ووفق هذا التحليل قوله تعالى في سورة يونس **﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾**[1].

---

(١) سورة يونس، الآية (٦١).

فما ان تريدون الدخول في عمل الا نكون شاهدين وحاضرين وناظرين وهو خطاب للجميع بينما في البدء ما نتلو من قرآن كان خطاباً للنبي ﷺ وفي النتيجة لا تؤول كونه بصيراً بكونه عليما بل كونه عليما بكونه بصيراً وشاهداً.

وصفحة النظام ستكون صفحة علمه بشكل تلقائي، لأنها صفحة خلقه وملكه التكويني جل وعلا، فان تم التوحيد في الخلق على هذا الأساس فيتم العلم الفعلي للواجب على هذا الأساس أيضاً.

أما مسألة علمه الذاتي والتي هي فوق مسألة الخالقية «عالم اذ لا معلوم» فهي عين قدرته وفوق الخالقية.

وما تحصل في نهاية هذا البحث وكنتيجة له هو ان الانسان الموحد يرى نفسه في حضرة الله.. فما يعمل من عمل.. وما يدور في ذهنه من أمر - وما يحمل في قلبه من أمانٍ وآمال.. وما يتفوه به من حديث.. وما يكتب من شيء.. وما يخطو من خطوة في مسير.. فهو في مشهد وحضرة الله تعالى.

نأمل ان ينجينا هذا الحضور وهذا التوجه من كل حجاب، وان يتفضل الله علينا ويرحمنا بأن نكون دوماً في حضور ذاته المقدسة فيرى أحدنا نفسه عبداً خاصاً صرفاً محضاً لذاته المقدسة بشكل دائم.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الحادي عشر

وحدانية الله القاهرة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كانت حصيلة الدرس السابق ان الله سبحانه وتعالى ـ ولأنه وجود محض وصرف ـ فهو بكل شيء محيط، ولا يغيب عن اي شيء، لأن الوجود المطلق يتضمن الحضور المطلق، ولا مجال للغياب بالنسبة للحضور المطلق والشهود اللامحدود اذن، لا شيء غائب عن الله ـ سواء كان ماديا او غير مادي ـ وتطرقنا كذلك الى اطلاعه على النجوى وقول السر والمؤامرة وأمثال ذلك مما جاء في سورة المجادلة.

ففي القسم الأول من الآية في سورة المجادلة بين ان الموضوع من البداهة والوضوح بمكان بحيث يبلغ حد الرؤية والشهادة فقال: ﴿**ألم ترَ ان الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض**﴾[1] . وفي القسم الثاني من الآية

---

(١) سورة المجادلة، الآية (٧).

قال: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا﴾ وفي القسم الآخير من الآية قال: ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم﴾ اذن، ففي هذه الآية ثلاثة أقسام:

الأول: الاشارة الى علم الله المطلق؛ وهو ما أشار اليه القسم الثالث أيضاً وانه استناداً الى هذا العلم سيجازي الله العباد على أعمالهم يوم القيامة.

وفي القسم الثاني: ورد ان ما من نجوى وسر الا والله حاضر وشاهد عليه مما فصّل فيه القول في الدرس السابق.

وقد ذكرنا في الدرس السابق ان الله تارة يقول: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾ وتارة يقول: «لا تقولوا ثالث ثلاثة» فما هو الفرق؟ وكيف يقول الله في سورة المجادلة: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾ ويقول في سورة المائدة: ﴿لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد﴾[1] فأهل التثليث الذين قالوا الأب والابن والروح القدس ليسوا موحدين اذ التثليث لا ينسجم مع التوحيد.

فكيف نفى ان يكون الله ثالث ثلاثة وقد ثبت انه رابع ثلاثة؟ وما هو الفرق؟

الفرق ان الثلاثة (في ثالث ثلاثة) في موازاة بعضهم، فكل منهم واحد عددي: الف. باء. جيم. ومن أينما تبدأ فهم واحد. اثنان. ثلاثة. وان ابتدأت من الطرف الآخر فهم ثلاثة. اثنان. . واحد. فكل منهم واحد وفي المجموع هم ثلاث ولهم مقدار عددي.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٧٣).

وعدّ الله مسألة ثالث ثلاثة كفراً، لملازمته التحديد والتجسيم معا لأن الذي يتحمل العد هو مادة ومادي. اما الموجود غير المادي فلا يعد. العدد كم ولهذا لا يمكن معرفة العالم بالمنطق الرياضي، ان المنطق الرياضي هو التفسير الكمي للعالم وبه يمكن تفسير القسم المادي من العالم اما القسم المجرد كالروح والوحي واللوح والعقل وسائر المسائل الميتافيزيقية التي لا تقاس بالكم فغير خاضعة ولا قابلة للتفسير الكمي.

ان المسائل الإلهية والميتافيزيقية لا تحل بالمنطق الرياضي أبداً؛ ذلك ان الكمية انما تنطبق على الجسم والمادة. ولهذا فقولنا ان الله ثالث ثلاثة يجعل منه في صف موجودين آخرين ويعرض عليه العدد والكم فيكون مادة وجسما.

ومن جهة أخرى لما كان ازاء موجودين آخرين فهو الى جانبهم وهم الى جانبه، وهو في موازاتهم وهم في موازاته، ولما كانا محدودين فهو محدود أيضاً وهذا مستحيل لأن ما كان محدوداً لا يمكن ان يكون إلهاً.

الموجود المادي والجسمي ليس آلهاً. . بل ان الله وطبقاً للبراهين السابقة هو تلك الحقيقة المحضة والوجود المطلق الذي لا يحدّ أبداً. ولأنه ﴿بكل شيء محيط﴾ فالمحيط المطلق لا يحد بحدّ، ومن جهة ان الله خالق الأجسام فهو ليس بجسم. وبناء على هذا فالتثليث لا ينسجم مع الايمان بوحدانية الله تعالى أبداً.

لهذا، فان القرآن الكريم ينفي التثليث اولا في بيانات عامة مثل: ﴿ليس كمثله شيء﴾ كأن يكون الى جانبه اثنان مثله ليصيروا جميعاً ثلاثة فيكونان وثالثهم الله ليصدق عليه انه ثالث ثلاثة اذا كان محدودا فله مثيل واذا

كان جسماً ومادة فله نظير مع ان القرآن يقول ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

ومن جهة أخرى فان وحدانية الله ليست وحدة عددية ، فهو خالق العدد، وهو الواحد (لا بالعدد) لأنه خالق العدد وخالق الكم ولا يخضع للعد لكي يحكمه ولا يقبل الكم لأنه خالق الكم .

ينقل المحقق الداماد رضوان الله عليك انه عندما سئل الامام عليه السلام عن الله كيف هو؟ أجاب انه هو الذي كيّف الكيف فلا يقال له كيف؟ ولا يقال له أين؟ لأنه هو الذي أيّن الأين، وهو الذي حيث الحيث فلا حيث له . وبناء على هذا لا يمكن اعتبار الله نظيراً للموجودات الأخرى او اعتبار الموجودات الأخرى شريكاً لله : ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

ومن جهة أخرى، فان وحدة الله ليست عددية فوحدته احدية وليست عددية . وعندما يصف الله نفسه بالواحد في القرآن الكريم يقرنه بـ﴿القهار﴾ فيقول : ﴿الله الواحد القهار﴾ او ﴿لله الواحد القهار﴾ فوحدته وحدة قاهرة، وليست وحدة تتقبل الشريك . فان كان موجودا كسائر الموجودات الأخرى، لكان في مستواهم وموازاتهم وهم في مستواه وموازاته، ولكانت وحدته غير قاهرة اذن، ولا تخضع الأشياء ولا تستوعبها . وانما قال ﴿الله الواحد القهار﴾ ليبين ان وحدته قاهرة .

ووحدة القهار لا تدع مجالاً لتوهم الشريك، فهو يوازي شيئاً ولا يوازيه شيء، وانه ﴿مع كل شيء﴾ في حين لا شيء مع الله لأن هذه المعية هي معية القيومية؛ ولهذا يقول القرآن الكريم ﴿ليس كمثله شيء﴾ ويقول أيضاً ﴿الله الواحد القهار﴾ . فان نحن جعلناه في صف موجودين آخرين أي ثلثناه وقلنا انه ثالث ثلاثة : أي الأب والابن وروح القدس فان ذلك لا ينسجم

ولا يتلاءم مع الايمان والتوحيد الصحيحين لأنه سيكون له مثيل ونظير، وستكون وحدته عددية، ولا شيء منهما يتفق مع الوجود المحض لله تعالى.

اما حينما قال: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾ فهو يختلف عن قوله ﴿ثالث ثلاثة﴾ فثالث ثلاثة يعني انهم ثلاثة موجودات على صعيد واحد، من اي جهة نشرع فالثالث هو الله وفي صفهم. اما رابع ثلاثة فمعناه انهم ثلاثة وهناك واحد قيوم مع اولئك الثلاثة لا بمعنى واحد زائد ثلاثة اذ لا يصبحون أربعة بحضوره وسيبقون ثلاثة اذ ليس هو رابع أربعة حتى يكونوا أربعة بل هو رابع هذه الثلاثة مع بقاء العدد ثلاثة اما ان كانوا يصبحون أربعة لكان هو رابعهم وهذا كفر.

رابع ثلاثة بمعنى ان مع هؤلاء الثلاثة قيّماً وناظراً ولا يصبحون معه أربعة. اي هنالك قيم واحدة وثلاثة متسارّين. اما لو كان المتناجون أربعة لكان الله ناظراً اليهم وقيماً عليهم وخامسهم اي وخامس أربعة لا خامس خمسة. فهنا أربعة أشخاص لا خمسة. والله هو قيمهم وقيومهم خامس هؤلاء الأربعة لا خامس خمسة فهنا أربعة أشخاص وليسوا خمسة محيط واحد وأربعة أشخاص وناظر واحد أو قيوم واحد اي خالق واحد وأربعة مخلوقين.

وذلك الواحد، ولأنه محيط بكل هذه الأشياء، فهو ليس واحداً عدديا. فان كانوا أربعة أشخاص فكل منهم منفصل عن الآخر الا ان الله مع كل واحد منهم. «وهو معكم» اي مع الأول ومع الثاني ومع الثالث ومع الرابع ومع الأربعة جميعاً أيضاً.

فقوله في سورة المجادلة: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم﴾

فذلك يعني انه رابع ثلاثة لا رابع أربعة. ﴿ولا خمسة الا هو سادسهم﴾ أي: سادس خمسة لا سادس ستة لأنهم ليسوا ستة بل خمسة، وقيم واحد ومحيط واحد؛ لأنه اذا كان خامس خمسة فهو في صفهم وعلى صعيدهم، وان كان على صعيدهم فلن يكون مطلعاً عليهم. فان كان هناك خمسة أشخاص مجتمعين في مكان واحد فكل منهم مطلع على نفسه لكنه ليس مطلعاً على الآخر. اما الله فان حضوره في الجمع بحيث يكون مع آحادهم ومع مجموعهم.. فما دامت هناك شيئية فالله حاضر وشاهد سواء كانت فرادىٰ وجمعاً. لهذا فان ما ورد في سورة المجادلة يختلف عما ورد في سورة المائدة. فهناك ثالث ثلاثة وهو كفر؛ وهنا رابع ثلاثة وهو التوحيد والايمان. والتعبير الرفيع في سورة المجادلة أيضاً: ﴿هو معكم أين ما كنتم﴾، فاذا كان خامس خمسة لما كان مع هؤلاء اذ يمكن ان يكون شخصان معاً ولكن لا يعرف أحدهما في داخل الآخر كشخصين جالسين معاً وقلباهما مفترقان.. افكارهما مستقلة عن بعضهما.. معلوماتهما منقطعة عن بعضهما.. لا يعرف اي منهما ما يجري في قلب صاحبه الذي يجلس الى جانبه. ومثل هذه الحالة ليست: ﴿معكم﴾.

وهكذا يتبين الفرق بين «رابع ثلاثة» في سورة المجادلة و﴿ثالث ثلاثة﴾ في سورة المائدة، وأما قوله ﴿بكل شيء عليم﴾: فان للقرآن بياناً عاماً ومطلقاً في هذا المجال كما ان له بياناً خاصاً. اما بيانه العام فهو: بما انه ﴿خالق كل شيء﴾ فهو اذن ﴿بكل شيء عليم﴾. واذا لم يكن الله يعلم بمكان ما فهو اذن ليس حاضراً في ذلك المكان وبالتالي فهو محدود، وهذا غير صحيح. لأن علم الله عين ذاته فاذا لم يكن هناك علم في مكان ما فلا يكون هناك حضور للذات وهذا لا يتفق مع وحدته القاهرة لأن الله واحد قهار لا

واحد عددي أو امثال ذلك.

وهذه مسألة أشير اليها بشكل اجمالي عام في القرآن وهي أنه بما ان الله ﴿خالق كل شيء﴾ فهو ﴿بكل شيء عليم﴾ ولأنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ اذن فهو ليس ﴿محدوداً﴾ أو بما انه ﴿بكل شيء محيط﴾ و﴿بكل شيء شهيد﴾ اذن فهو ﴿بكل شيء عليم﴾ ولو احاطه بكل شيء.

اما البيان الآخر الأخص والأوسع والأكثر أبعاداً فهو ما ذكر في سورة لقمان، ففي هذه السورة وقبل ان يعرض كلمات لقمان في عظته لابنه يقول: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[1] وبما ان الله اعتبر الحكمة خيراً كثيراً وقال: ﴿ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[2] فان لقمان اذن قد أوتي خيراً كثيراً لأنه قد أوتي الحكمة. وعلى اي حال؛ فان احدى بيانات لقمان الحكيمة لولده هي: ﴿يا بني انها ان تكِ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السماوات او في الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير﴾[3]؛ فهنا بيّن لقمان لابنه انه لا مانع ولا حاجب يحول دون علم الله ما يكون حجاباً للآخرين فهو ليس حجاباً بالنسبة الى الله. وقد ذكر الحاجب هنا على أربعة أقسام. اي ان أربعة أشياء يمكن ان تسبب الاحتجاب:

الأول: الصغر والظرافة بحيث يمتنع عن الرؤية؛ فالذرة الصغيرة جداً لا ترى لصغرها او الصوت الخافت جداً لا يسمع لخفوته؛ اذن فالخفوت والتناهي في الصغر قد يكون مانعاً يحول دون الاحساس بالشيء او رؤيته.

الثاني: الاختباء خلف ستار، فلو ان شيئاً يحجب بستار ويختفي وراءه

---

(١) سورة لقمان، الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٦٩).

(٣) سورة لقمان، الآية (١٦).

فانه لا يرى؛ فالستار هنا مانع من الرؤية؛ وما هو خلف الستار أو الجدار فلن يرى.

الثالث: البعد؛ فالشيء البعيد وان لم يكن صغيراً او مستوراً فهو لا يرى أيضاً، ولهذا فان النجوم البعيدة الموجودة في السماء لا ترى فالبعد حجاب يحول دون رؤية الانسان، وكذلك خفوت الصوت.

الرابع: الظلمة فهي الأخرى تمنع الانسان من الرؤية.

وبناء على هذا، فان كان الشيء صغيراً جداً او بعيداً جداً او خلف ستار او في ظلمة فانه لا تمكن رؤيته لأن الصغر والبعد والاختباء والظلمة حجب مانعة من الرؤية؛ الا ان لقمان الحكيم وكما ورد في القرآن الكريم يقول انه لا شيء من هذه الأمور تمنع أو تحجب علم الله تعالى.

يقول لقمان لابنه ان كل ما لديك من خصال او صفات وما يستجد عندك وكل ما يخطر في بالك من خاطرة، او أمل او فكرة تدور في ذهنك وكان ما عملته او خطر ببالك يزن بمقدار حبة من الاسفنج الظريف والصغير جداً وكانت هذه الحبة داخل صخرة فان الله يعلم بها.

يقال للصخرة الممتلئة والمغلقة: الصخرة الصماء، ويقال للانسان الذي لا يسمع «الأصم» لأنه مغلق. ويقال للصديق المخلص والصادق الصديق الصميمي فالصميم هنا يعني الداخل.

هذه الحبة الصغيرة الخفيفة لو كانت داخل صخرة صماء المغلقة التي لا طريق اليها أو في أبعد نقطة في السماء او غائصة في قلب التراب فان الله يعلم بها. اذن فلا صغر الشيء ولا احتجابه داخل الصخرة ولا بعده ولا وجوده داخل التراب بمانع عن علم الله؛ لأن الله خلق أعماق الأرض كما

خلق آفاق السماء وخلق الحبة الناعمة كما خلق الاجرام الكبيرة فلا شيء يمتنع على علم الله ولا يمكن اخفاء شيء عن الله لأن الله لطيف خبير لقد استدل بكونه لطيفا ومجردا وقادرا على رؤية الذرات الصغيرة او بقدرته على خلق الشيء الظريف وهذا كله من مصاديق اللطيف فخلق الظريف ورؤية الصغير والظريف من مصاديق اللطف بما انه لطيف خبير ومطلع ففي النتيجة لا يمكن لشيء ان يكون حجاباً عن علمه تعالى. ولأنه محيط بكل شيء قال: وهو معكم. وان لم تكونوا معه، لأن المعية من جانب واحد اذ لو كنتم معه لكنتم مثله في حين انه ﴿ليس كمثله شيء﴾.

لو كنتم معه كما كان معكم لكان محدوداً ـ والحال انه ليس كذلك، ولكي يثبت ان أحدية الله ليست عددية كوحدة غيره العددية التي يظنها الوثنيون كالوحدة العددية فقد وصف هذه الوحدة بالقهر، فقال هو الله الواحد القهار.

عندما دعي وثنيو الحجاز وعبدة الأصنام الى التوحيد قالوا: ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾[1] . تصوروا أن ذلك الواحد الذي يدعوهم الرسول الأكرم ﷺ اليه هو نظير أحد هذه الأصنام، ولهذا عجبوا وقالوا ان هذا النبي ينفي الآلهة المتعددة ويدعونها لعبادة اله واحد فقط ﴿اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب﴾ فكيف ينفي كل هذه الآلهة ويثبت الها واحداً فقط؟! فأوضح لهم القرآن ان هذا الواحد ليس من قبيل وصنف اولئك بل هو ﴿الواحد القهار﴾ لا الواحد الذي له ثانٍ او ثالث ولا الواحد الذي له رقيب وشريك. الله واحد ولكن ليس كنجمة واحدة أو شجرة واحدة او انسان واحد، وامثال ذلك انهم ظنوا ان هذه الوحدة وحدة عددية وعجبوا، فبين

---

(١) سورة ص، الآية (٥).

لهم القرآن ان وحدته جل وعلا أحدية وليست وحدة عددية. اي تشمل الجميع ولا تبقي مجالاً للغير. فهو قاهر وبنفس هذه الوحدانية القاهرة يتجلى يوم القيامة: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾.

وهذا يفسر ما ورد في امهات الكتب الروائية كالكافي للمجلسي والتوحيد للصدوق ان الامام السجاد عليه السلام قال: ان الله كان يعلم انه سيأتي في آخر الزمان اناس متعمقون فأنزل سورة التوحيد المباركة والآيات الأول من سورة الحديد الى قوله: ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ لأنه مهما أراد المفكرون من البشر ان يقيموا الأدلة والبراهين على توحيد الله فان القرآن الكريم يكون قد سبقهم لأنه طرح «الأحدية» اي الوحدة القاهرة لله.

الواحد الذي تقبله للثاني فرض محال لا مفروض المحال. اي ليس ان الشريك لله محال فحسب بل ان فرض وجود هذا الشريك في الخارج محال أيضاً؛ لأننا اذا عرفنا الله بصفته واحداً ووجوداً مطلقاً فهو يستغرق كل شيء، وتشمل احاطته الوجودية والعلمية كل مكان. وعندما يكون محيطا بذهننا وفكرنا واستدلالنا وحضورنا وشهودنا وقلبنا وجسمنا وكل موجودات الكون فلا مكان ليصير ذلك الغير شريكاً لله.

ولذا فان افتراض اله ثانٍ وشريك لله محال ولا يخطر على الذهن. لا يمكن فرض موجود في مقابل الله لأنه ـ سبحانه ـ أحد واحد قاهر. فلا فراغ موجود كي يملأه الاله الثاني، ولا نقص موجود ليكمله الشريك، فيكون هنا حداً للاله الأول وما بعده تبدأ حدود للاله الثاني بل ﴿قل هو الله أحد﴾.

فلا مكان لغيره كما ان الكل بحاجة اليه فهو الصمد والغني المحض. مقصد الجميع ومقصودهم. وفي سورة الحديد معانٍ مشابهة لما ذكر قال ما

له طريق الى عالم الخلق يعلمه الله قال في اول السورة: ﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1].

فهذه السورة ابتدأت بالتسبيح. بعض السور تبدأ بالفعل الماضي مثل «سبّح» وبعضها بالفعل المضارع مثل «يسبّح» ومجموعة أخرى بالمصدر مثل ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[2] وهذا يدلل على ان جميع عالم الوجود في حالة تسبيح وتنزيه لله تعالى، وهذا التسبيح يثبت وجود الشعور العام وينسب الوعي الى جميع الموجودات، لأن التسبيح فرع من الوعي، وان لم تكن واعية لما شهدت يوم القيامة.

فالقرآن يثبت حضوراً وشهوداً ووعياً عاماً لجميع وعموم الخلق. وبعد ذلك اي بعد بيان تسبيح جميع الموجودات يضيف: ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير﴾[3].

ويسند الصفات الفعلية وانه مالك السماوات والأرض، ومالك الاحياء والاماتة، الى كونه ﴿على كل شيء قدير﴾.

ولما كانت قدرته مطلقة وعين ذاته فستكون منشأ المالكية والاحياء والاماتة وأمثال ذلك، وأما العلم، فلأنه ﴿بكل شيء عليم﴾ فهو مطلع على خواطر كل الناس. ومنشأ هذه العلوم الفعلية هي علمه الذاتي؛ كما ان منشأ تلك الأعمال قدرته الذاتية. عن احاطته المطلقة تعالى يقول: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[4] روي عن أمير

---

(١) سورة الحديد، الآية (١).
(٢) سورة الاسراء، الآية (١).
(٣) سورة الحديد، الآية (٢).
(٤) سورة الحديد، الآية (٣).

المؤمنين عليه السلام انه قال كل اول غير الله ليس بآخر، وكل آخر غير الله ليس بأول. والله هو الأول والآخر. وكل ظاهر غير الله فليس بباطن، وكل باطن غير الله فليس بظاهر والله هو الظاهر والباطن. اي انه شدة نورانيته وظهوره أدى الى بطونه، كما ان بطونه تؤدي لأن لا يدركه البشر ولا يستطيع ان يفهمه كما هو.

ولأنه ﴿**بكل شيء عليم**﴾ فهو ﴿**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها**﴾[1].

فما يلج في الأرض يعلمه الله، وبناء على هذا فلا الولوج والغوص مانع وحاجب عن علم الله ولا الظلمة ولا البعد. كما ان الذي ينزل من السماء هو في علم الله لأنه قال قبل ذلك: ﴿**هو الذي خلق السماوات والأرض**﴾ اذن فهو ﴿**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها**﴾.

فما يلج في الأرض.. والقطرات التي تغوص في التراب.. والبذور التي تنبت فيه.. وجميع الجذور التي تتغلغل في أعماقه هذه كلها يعلمها الله وكذلك ﴿**يعلم ما يخرج منها**﴾ ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ من رزق ظاهري أو علوم ومعارف معنوية ﴿**وما يعرج فيها**﴾ ويصعد، كلها في علمه ﴿**وهو معكم اينما كنتم**﴾ وحيثما كنتم.

وهذا التعبير ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ لا يتلاءم مع ان الله ـ تعالى ـ ﴿**ثالث ثلاثة**﴾ اذ لو كان الله ثالث ثلاثة لما كان مع ذينك الاثنين. لو كان ثلاثة موجودون في عرض بعضهم فانهم لا يكونون موجودين معاً أبداً، بل كل منهم منفصل عن الآخر ومستقل عنه، الا ان القرآن الكريم يقول: ﴿**وهو**

---

(١) سورة الحديد، الآية (٤).

معكم أينما كنتم﴾ فما من موجود الا والله معه . . ذلك ان له معية قيومية .

وفي القرآن الكريم معيات خاصة تتعلق بالمؤمنين : ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[1] وتلك معية خاصة ورحمة خاصة . . تلك معية العون والتوفيق والامداد وأمثال ذلك . اما هذه المعية فهي المعية العامة .

وفي هذه المعية العمومية يقول الله تعالى : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ .

ولهذا فهو لا يتفق والتثليث ، فوفقا لزعم الوثنيين والقائلين بالتثليث سيكون الله ـ عز وجل ـ موجوداً محدوداً اضافة الى تجسيمه الذي هو لازم بعض هذه الآراء .

كان وثنيو الحجاز وعبدة الأصنام هناك يتوهمون ان الله موجود واحد بالوحدة العددية ، فقالوا : «اجعل الالهة الهاً واحداً» . اما الثنوية فانهم عندما عجزوا عن حل مسألة الخير والشر قالوا ان هناك إلهاً للخير هو الرحمن وإلهاً للشر هو الشيطان . كما ان الفريق الذي لم يستطع تفسير ميلاد المسيح عليه السلام ونزاهته قالوا بالتثليث ، وذلك لأنهم تصوروا ان وحدة الله وحدة عددية ، ولهذا فان القرآن يحاجج الذين قالوا بالثنوية كما يحاجج الذين قالوا بالتثليث ويقول ان وحدته ليست وحدة عددية بل انها وحدة أحدية . . وحدة قاهرة لا تقبل الشريك ولا النظير . فليس ثالث ثلاثة وان كان رابع ثلاثة وليس خامس خمسة وان كان سادس خمسة ، وعلته انه ﴿هو معكم أينما كنتم﴾ .

ولا مجال لادراك هذه المعية القيومية التي هي مع كل موجود وكل انسان الا عن طريق التصديق يكون حقيقة الله والسر في ذلك ان اللامحدودية

---

(١) سورة النحل، الآية (١٢٨).

تنسجم مع المعية القيومية الصحيحة ولا يتعارض معها وكل مؤمن يوحّد الله بهذه النظرة يرى نفسه في حضور الله دائماً. وقد وضع الله لهذا الحضور قانوناً خاصاً، فجعل لسائر العبادات وقتاً محدوداً، اما اسم الله وذكر الله فقد أمر به على نحو الكثرة فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[1].

ليكن الله في قلبك دائماً ـ كما نوّه الله تعالى الى ذلك في سورة الأعراف ـ فان ذكر الله على اللسان فضيلة، ولكن الفضيلة الأهم وجوده في القلب وهو الذي يعصم الانسان عن الدخول الى ساحة المعاصي. وبه يقول الانسان ﴿لا إله إلاّ الله﴾ خالصاً مخلصاً. وفي الأخبار «من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة».

ثم فسر الامام الصادق عليه السلام كلمة الاخلاص بقوله: «واخلاصه ان تحجزه لا إله الا الله عما حرم الله عليه».

نسأله تعالى ان يتفضل علينا ـ جميعاً ـ بذلك الحضور.

وغفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤١).

الدرس الثاني عشر

الحياة الطيبة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

من المواضيع المهمة التي يعتبرها القرآن الكريم مما جاء به الوحي هي الحياة الطيبة، فيذكر بان هذه الحياة الطيبة هي من نصيب أهل الايمان والاعتقاد والعمل الصالح، وعلى هذا فان الأمور التي يجب ان تطرح في هذا الصدد وتبحث طبقا لتوجيه القرآن الكريم تتمثل في عدة مسائل:

احداهما: ان القرآن قد بشّر اتباعه بالحياة وبيّن ان كل من يعمل بالقرآن، يحيى.

الثانية: ان الحياة الموعودة تلك، هي حياة طيبة.

الثالثة: تصعّد هذه الحياة الطيبة، الانسان وتبلغ به مقاماً حيث يكون عند الله في تلك المنزلة.

الرابعة: نتيجة هذا الصعود والعروج، الخلود والديمومة.

الخامسة: حين يصل الانسان الى هذا المقام تصبح حياته مثمرة في جميع الأحوال، وثمة أمور أخرى تطرح في اطار هذه المسائل.

اما الأمر الأول وهو بشارة القرآن بالحياة، فهو ذكره بان من يعتقد بالقرآن ويعمل بأوامر الوحي سوف يحيى، ومن لا يعتقد بالقرآن ولا يعمل بالوحي سوف يحرم من هذه الحياة ويموت بالتأكيد، قال تعالى في سورة الأنفال: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾**[1].

ان أفضل خطاب، هو خطاب **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾**، حيث يشرف الله تعالى عباده لهذا اللقب وفي سماع هذا النداء من اللذة ما يهوّن على الانسان تحمل مشقة الأمر اللاحق، وقد روي عن الامام السادس عليه السلام، بشأن قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾**[2]، انه قال بأن لذة سماع هذا اللحن وحلاوة هذا الخطاب، تهوّن من صعوبة الصيام، فالعبد يلتذ حين يسمع ان الله تعالى يخاطبه بهذه الصفة، وهذا النداء حي الآن، والله يوجه هذا النداء في هذا الوقت كذلك، لذا من المناسب ان يقول الانسان وهو يسمع هذا النداء: «لبيك».

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾.

كان احد صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، يصلّي، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يقطع صلاته واستمر، وبعد انتهائه من الصلاة، سأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٣).

عن سبب عدم استجابته لدعوته، فقال بأنه كان منشغلاً بالصلاة، فذكّره النبي ﷺ بالآية القرآنية ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾.

ان هذا يدل على ان اجراء أمر النبي فيه ضمان للحياة. يحيي الانسان وينقذه من الموت.

والأمر الثاني هو بيان تلك الحياة، ما نوعها؟ ما هي الحياة التي يقدمها الدين؟ وما هي الحياة التي يحصل عليها الانسان عند العمل بأوامر الوحي؟ لقد ورد ذكر تلك الحياة في سورة النحل بوصفها حياة طيبة، قال تعالى: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**[1].

وهناك شرطان لبلوغ هذه الحياة الطيبة: أحدهما الحسن الفعلي والآخر الحسن الفاعلي، فالروح الحسنة اذا عملت عملا حسنا تحصل على حياة طيبة، والانسان الصالح اذا عمل صالحا يصل الى حياة طيبة. **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾**، فالشخص المعتقد والمؤمن بالمبدأ والمعاد، أي الذي لديه ايمان، ولكنه لا يعمل صالحا ويكتفي بذلك الايمان من دون عمل، لا يبلغ الحياة الطيبة، والذي يقوم بعمل حسن ولكنه غير مؤمن بالمبدأ والقيامة، وان كان يوجد لديه حسن فعلي ولكن لا يوجد حسن فاعلي فنفسه غير مؤمنة ولا معتقدة، ولذا لا ينال الحياة الطيبة.

لو قام أحد ببناء مستشفى، وهو غير معتقد بالله والقيامة، فانه سيتمتع بالنتائج المادية لهذا الاحسان، ولكنه لا يبلغ الحياة الطيبة. فالانسان غير

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٧).

المؤمن بالله والقيامة لا يحصل على تلك الحياة الطيبة أبداً، وان كان العمل الحسن الذي يفعله لا يخلو من اثر، اذ له نتائج مادية، او يؤدي الى تخفيف العذاب، ولكنه لا يصل الى الحياة الطيبة أبداً.

﴿من عمل صالحا﴾، انما يعتبر القرآن العمل صالحا فيما اذا كان متطابقا مع الوحي، والعمل الذي لا يتطابق مع ما جاء النبي ﷺ، ليس صالحا، العمل الذي لا ينطبق مع الدين، عمل غير صالح، فالعمل يجب ان يكون صالحا اي مطابقا لما جاءت به النبوة والرسالة اي للدين. كما ان الشخص يجب ان يكون مؤمناً بالمبدأ والمعاد ويقوم بالعمل على ضوء أصول الدين، حتى يصل الى الحياة الطيبة.

﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ قد طرحت هذه المسألة في جلسات سابقة وهي ان السير في طريق الكمال والبلوغ الى مقام، لا يشترط فيه الذكورة، ولا ان الأنوثة تكون عقبة، رغم ان هناك فرق بين المرأة والرجل في الاسلام من ناحية الأمور الاجرائية، حيث تتولى المرأة بعض المسؤوليات الاجرائية، ويتولى الرجل بعضها الآخر، ولكن ليس ثمة اختلاف بين المرأة والرجل في السير نحو أي كمال من الكمالات الاسلامية أو أي مقام من المقامات الانسانية، فلا كون الانسان رجلا هو شرط للكمال أو التكامل، ولا كونه امرأة يحول دون ذلك. الا ان الأعمال تقسّم حين التنفيذ واجراء المسؤوليات، فكل من يؤدي مسؤوليته بشكل أفضل وأبلغ هو أكثر قربا عند الله.

«الغنى والفقر بعد العرض على الله»[1]، فبعد ان يصل الانسان الى الله

---

(١) نهج البلاغة/ للفيض، الحكمة ٤٤٦.

ويعرّض للحساب يتضح مَن القوي ومَن الفقير؟ من الذي كان قلبه فارغاً ﴿وافئدتهم هواء﴾[1] ومن الذي يحشر ويديه مملوءتان وقلبه مملوء ونفسه مليئة وعقله مليء، هؤلاء هم الذين يتمتعون بحياة طيبة.

لذا ورد في القرآن ان ليس ثمة اي تباين بين المرأة والرجل في هذه الحياة الطيبة. فكل انسان تتوفر فيه هاتين القاعدتين ينال الحياة الطيبة، الأولى: ان يكون لديه اعتقاد وايمان كامل بالمبدأ والمعاد والثانية، هي العمل طبقا لذلك الايمان والسلوك بما يطابق ذلك الاعتقاد.

فالشخص المؤمن الذي ليس لديه أثر ايجابي، لا ينتفع بالحياة الطيبة، كما ان العمل الحسن الصادر عن انسان ليس لديه اعتقاد لا يوصله الى تلك الحياة الطيبة.

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾ هذا شرط ﴿وهو مؤمن﴾، شرط ثان، ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾.

ان الحياة الطيبة لا توجد في الطبيعة، فالعالم المحكوم بالزوال والتغيير، ليس طيبا. وليس معنى الطيبة هي ان نجعل حياته الطبيعية طيبة، وحياته الدنيوية طيبة، فالحياة الدنيوية لا يمكن ان تطيب، وانما هي كما هي عليه الآن. ولو توضّح خطوط الحياة الطيبة لاتضح ان الحياة المادية لا تطيب ابدا، وعلى حد التعبير البليغ للاستاذ العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسير الميزان القيم، ان الله لم يقل ان الانسان اذا كان مؤمنا وقام بعمل صالح، فاننا نجعل حياته طيبة، لم يقل بجعل حياته الموجودة حياة طيبة، بل قال بانه يعطيه حياة طيبة، يعطيه حياة بلا نقص، يعطيه حياة لا

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (٤٣).

يصلها التلوث.

فهناك فرق بين القول بتطييب حياته والقول باعطائه حياة طيبة، فهي حياة منفصلة وحياة جديدة ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ اي نوصله الى حياة طيبة.

﴿ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وهذه من لوازم الحياة الطيبة، وكان هذا هو الأمر الثاني القاعدة الأولى طبقا لسورة الأنفال هي إحياء من كان متّبعا للوحي، والقاعدة الثانية حسب سورة النحل اعطاء حياة طيبة منزهة عن كل لوث لكل من كان معتقداً وقام بعمل صالح طبقا للاعتقاد.

القاعدة الثالثة؛ هي ماذا تفعل الحياة الطيبة؟ والى اين تبلغ بالانسان؟ وهل الانسان الذي يبلغ الحياة الطيبة يكون كالآخرين محكوما للطبيعة ام الطبيعة محكومة له؟ وهل ان عليه العيش في أفق الطبيعة كما هو حال الآخرين، ام ان أفق الطبيعة مسخر تحت قدميه؟

لقد حدّد الله تلك القاعدة والأمر الثالث، في سورة فاطر، فقال: ﴿من كان يريد العزة فللّه العزة جميعا﴾[1]، فالانسان لا يصبح عزيزاً، ما لم يتحرك نحو الله، وقد بيّنا في بحوث سابقة ان «العزة» تقال لحالة الصلابة، «والأرض العزاز» تعني الأرض العزيزة التي لا تستسلم لشيء.

ان المؤمن لا يخضع لأي باطل ولا ينفذ فيه اي باطل، فهو عزيز، ومن لوازم صفة العزة، الانتصار والغلبة، والعزة لا تعني الغلبة، العزة تعني الصلابة وعدم امكانية النفوذ، والانتصار من لوازم الصلابة، فقال ﴿من كان يريد العزة فللّه العزة جميعا﴾، وما لم يتحرك الانسان نحو الله لا يكون

---

(١) سورة فاطر، الآية (١٠).

عزيزا، وحين نقرأ في القرآن قوله **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[1] يجب الالتفات الى ان عزة المؤمنين وعزة الرسول ﷺ هي من الله، فهي العزة بالغير والتي يجب ان تصل الى العزة بالذات.

والسؤال هو: ما هو طريق الوصول الى هذا المقام الرفيع؟ **﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**[2]، فالكلم الطيب يصل الى هذا المقام الشامخ، والكيان الطاهر هو الذي يستطيع العروج والصعود، فإذا لم يكن طاهرا فانه لا يستحق الفيض ومتى أصبح طاهراً أصبح أهلا للفيض. (شعر): النطفة الطاهرة هي التي تصير قابلة للفيض اذ لا يصير كل حجر لؤلؤا ومرجاناً.

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»، والانسان الذي يتمتع بحياة طيبة، وجوده طاهر وهو كلمة طيبة، فهذا الكائن الذي هو كلمة تكوينية وكلام عيني طيب، والله تعالى يعتبر عيسى المسيح عليه السلام كلمة، كما جاء في الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، قولهم «نحن الكلمات التامات»، فالمعصومون عليهم السلام هم كلمات الله التامة.

والكلمة تطلق على الشيء الذي يظهر المخفي ويبين الباطن، وهذا الكائن الطيب، هو الكلمة الطيبة لعالم الغيب، ونفس هذا الانسان الذي هو كلمة طيبة يصعد ويصعد اعتقاده الذي هو كلمة طيبة أيضاً وينمو ايمانه الذي هو كلام طيب كذلك **﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**، فالعمل الصالح يعين من الأسفل ويمهّد لرشد الكلم والاعتقاد الطيب، لأن العلم والنفس أرفع من العمل. والانسان المصلي أفضل من الصلاة التي

(١) سورة المنافقون، الآية (٨).
(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).

يؤديها. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه»[1] ، لأن هذا العمل الخير هو من أثر النفس، والمؤثر أقوى من الأثر على أساس نظام العلة والمعلول.

وقد تكون حقيقة الصلاة أفضل من الشخص المصلي ولكن الشخص المصلي أفضل من صلاته التي تصدر منه وقد يكون الصوم حقيقة أرفع من هذا الشخص «الصوم لي»، الا ان الانسان الصائم هو أرفع من صومه، لأن صيامه هو فعله وأثره، والأثر أضعف من المؤثر، والفعل أضعف من الفاعل.

وطبقا لبيان الحكيم الرباني البليغ، أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «فاعل الخير خير منه» فان العمل الصالح يساعد من الأسفل ويرفع الكلمة الطيبة. وهذا هو الأمر الثالث او القاعدة الثالثة. فإذا أصبح الانسان طيبا ونفسه طيبة، فانه يصعد ويعرج.

القاعدة الرابعة هي بشأن معنى الصعود وشرح المعراج، فالصعود والنزول على قسمين: فتارة ينزل شيء مادي أو يصعد، وفي مجال الطبيعة يرتفع شيء مادي ويهبط شيء مادي آخر، وأخرى في عالم الملكوت وعالم المعنى، ينزل شيء ويصعد شيء آخر، والصعود والنزول في عالم الطبيعة المحكوم بالمادة والحركة يرافقه التجافي وخلو المكان، فعندما تنزل قطرة مطر من الأعلى الى الأسفل لا يبقى لها وجود في الفضاء، وحينما كانت في السماء، لم تكن في الأرض، والآن حيث نزلت الى الأسفل فانها لم تعد موجودة في المنطقة العليا، لأنها محدودة ويصاحب حركتها، التجافي وخلو

---

(١) نهج البلاغة للفيض، الحكمة ٣١.

المكان.

الا ان الصعود والنزول في عالم المعنى والملكوت يقترن مع التجلي، وليس التجافي، فاذا نزل شيء من عالم الغيب، كنزول القرآن أو ملك الوحي أو العلم الإلهي، على شخص فهو يتنزل، لا انه ينزل نزولاً ماديا، أي أنه يظهر لنا ويتجلى في مرحلته السفلى، وفي نفس الوقت يظل موجودا في الأعلى بينما نكون نحن مع مرتبته السفلى، كما ان العمل الصالح حين يرتفع، فذلك ليس بمعنى عدم وجوده في عالم الطبيعة وتركه هذا المكان خاليا.

فعلى سبيل المثال، هناك كثير من مسائل الالهيات، يتم حلها عن طريق معرفة النفس، تلاحظون حكيما يصوغ قاعدة عقلية حكيمة في قوته العاقلة، فتحل بالنسبة له تلك المسألة فلسفية عميقة وعند ذلك يريد ان يبين هذه المسألة العقلية المهمة للآخرين، يريد بيان ما موجود في عقله، على شكل درس او كتاب، فيطرحها من خلال مقعد التدريس او عن طريق التأليف والتصنيف، باستخدام القلم او اللسان. وقبل ان يطرحها بالقلم او اللسان، يضعها في اطار خياله، ويفكر باللغة التي يرغب بيان المسألة من خلالها، فارسية، عربية، بأي لفظ، وبأي لغة يريد كتابتها أو ذكرها، ثم ينظم لهذه القضية العقلية مقدمة وأموراً وخاتمة، فيرسم هذه على صفحة خياله، ثم يتكلم أو يكتب، فينزّل ما في مرحلة الخيال على شكل مقالة او درس، وبعد ذلك تبدأ الحواس الظاهرية مع سائر القوى المادية بالعمل، في اطار بحث او رسالة او مقالة، وهذا هو التنزّل اي انه نزّل ما كان في عقله، الى مستوى الخيال ثم الى مستوى الكتاب او البيان.

ان معنى الانزال او التنزيل ليس هو نزول ما كان في عقله وخروجه

وخلوّه في القوة العاقلة، او فراغ ما خطر على صفحة نفسه ونقش في خاطره او ذكره بحيث لم يعد له أثر وانما هذا تجلي لعلم الحكيم وتنزل لقاعدة حكمته.

وفي قوس الصعود ايضاً الشخص الذي يصبح عاقلاً وحكيماً من خلال السمع او القراءة، فذلك لا يعني ان ما موجود في الطبيعة او هذه الكتابات قد تطورت وتركت خلفها فراغاً ودخلت الى العاقلة السامعة كلا، فان نفس تلك الأمور تصبح أكثر رقة وترسم خطوطها وخرائطها في الخيال وتجرّد من هناك، وعلى حد تعبير صدر المتألهين ان روح مرحلة المادة تصل الى عالم الخيال والى عالم التعقل.

وطبقاً لهذه الفكرة، فان العالم هو الذي يتحرك وليس المعلوم.

ولا دخل لمسألة التجريد والانتزاع في الموضوع، فالنفس هي التي تبلغ في كل نشأة مرحلة من المراحل، وهذا الرقي والبلوغ، لا يعني انه لم يعد ثمة شيء في الطبيعة، ولا يعني ان هذه الكائنات الطبيعية قد اجتمعت وغادرت، بل يبدأ من هنا سفر روحاني، فتترقق وتصل الى حد التخيل، وعند ذاك تصل الى مرحلة التعقل مقرونة ببارقة حكمة.

فقول الله بان الانسان الطيب يصعد الى الله بالكلم الطيب، لا يعني انه لم يعد في عالم الملك ولا هو بمعنى ان لا مجال للوصول الا بعد الموت والخلاص من قفص البدن وعبور عالم الدنيا، كلا اذ بالامكان الوصول عن طريق الموت الاختياري أيضاً، وبالاستطاعة السفر من خلال التخلص من التعلق اذ هناك امكانية للمغادرة بتقليل الارتباط والاتصال بعالم المادة، وهذا هو معنى الصعود وذلك هو معنى النزول، لا ان يقترن بالتجافي وخلو

المكان.

وقول الله ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾، ليس بالصورة التي تصعد بها الغيوم والدخان، كما ان نزول القرآن ليس كنزول المطر، وهذه هي القاعدة الرابعة ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾.

القاعدة الخامسة؛ الانسان الذي يصعد بحصوله على الحياة الطيبة ويعرج بحصوله على الحياة الطيبة، يعرج ويرقى، والآن نسأل ما هو الأمر اللازم لهذا العروج وما هي ثمرة هذا الصعود؟.

ما هي ثمرة شجرة التكامل؟ لقد بيّن القرآن الكريم عدة ثمار، اولا ان الانسان الذي يحرّك نفسه الى الله، بسبب حياته الطيبة، يكون خالدا ويتمتع بأبدية خاصة، لأنه يصبح عند الله.

قال تعالى في سورة النحل قبل آية الطيبة: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[1]، الا ان الانسان الذي يصعد عالم الطبيعة نتيجة حصوله على حياة طيبة، لا يعود محكوماً بقانون الحركة والزوال والموت وهذا الكائن سوف يكون أبدياً، لأنه ذهب عند الله، وأصبح عند الله، لذا فهو مصان من النفاد والتغيير والموت ﴿ما عندكم ينفد﴾ ولكن ﴿وما عند الله باق﴾.

ولـذا جـاء فـي الكلمـة المعـروفـة لمـولـى المـوحـديـن، أميـر المؤمنين عليه السلام: «هلك خزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر»[2]. وقال المعصومون عن أنفسهم: «يموت منا من مات وليس بميت» فالآخرون يموتون، اما نحو فنترك الأبدان ولا نموت «يموت منا من

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٦).

(٢) نهج البلاغة للفيض، الحكمة ١٣٩.

مات وليس بميت ويبلى منا من بلى وليس ببال»[1] ، فالاندثار والبلو لا يدخل في حرم الحياة الطيبة، وهذا من اللوازم المثمرة للحياة الطيبة.

نأمل أن نطرح تتمة هذا البحث في الجلسة التالية، ونسأل الله ان يوفقنا للايمان الكامل والقيام بالعمل الصالح على ضوء الايمان الكامل حتى نبلغ الحياة الطيبة ونسير في الطريق الى العزيز المطلق فنصل الى مقام العزة الشامخ، واذا ذهبنا عند الله فسوف نكون خالدين، ونسأل الله ان يعطي هذا التوفيق لجميع المؤمنين في العالم الى يوم القيامة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٨٦.

الدرس الثالث عشر

ثمرات الحياة الطيبة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

الموضوع الذي طرح في الجلسة السابقة من القرآن الكريم هو ان الايمان بالله والقيامة والنبوة والرسالة والعمل الصالح يوصل الانسان الى الحياة الطيبة، وقد لخّص ذلك البحث ضمن عدة قواعد او عدة أمور.

القاعدة الأولى: هي ان اجابة دعوة النبي، تحيي الانسان، وقد ورد ذلك في سورة الأنفال ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم**﴾[1].

القاعدة الثانية: هي ان كل من يجمع الحسن الفعلي مع الحسن الفاعلي، طبقا لآية سورة النحل ﴿**من عمل صالحاً من ذكر او أنثى وهو مؤمن**

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣٤).

فلنحيينه حياة طيبة﴾[1]، بمعنى ان يكون مؤمناً ومعتقداً بالمبدأ والمعاد من حيث النفس وينطبق عمله مع أمر النبي ﷺ، فينال هذا الشخص حياة طيبة، كما اتضح ان الله يعطيه حياة طيبة، لا أنه يطيّب حياته فتلك الحياة الطيبة ليست حياة مادية وطبيعية، وقد مر بحث ذلك بشكل تفصيلي.

القاعدة الثالثة: تؤدي هذه الحياة الطيبة الى صعود وتكامل الانسان وان الطيب هو الذي يرتفع وذلك حسب ما جاء في آية سورة فاطر حيث تقول: **﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**[2].

القاعدة الرابعة: هذا الصعود لا يعني التجافي وخلو المكان من عالم الطبيعة. وقد ذكرنا في بحث الجلسة السابقة بشكل مفصل، الفرق بين النزول والصعود المادي والنزول والصعود المعنوي، فثمة فرق بين نزول المطر ونزول القرآن، وهناك تباين بين صعود البخار والدخان وصعود الكلمة الطيبة، وقد بينا الفرق بين الصعود والنزول المادي والصعود والنزول المعنوي بشكل مبسوط.

القاعدة الخامسة: ان الصعود والكمال الانساني يستلزم خلود الانسان، حيث لا يموت ابداً ولا يزول وقد ورد ذلك في سورة النحل، لأن الانسان اذا وصل الى الرشد بسبب حياته الطيبة فانه يصبح عند الله، ويسافر الى الله وعند الله، ويستلزم هذا السير العالي صيانة الانسان من الموت، فلا يموت ولا يزول ابدا، وهذه القاعدة وردت في سورة النحل **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾**[3].

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٧).

(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).

(٣) سورة النحل، الآية (٩٦).

وقد استفدنا من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام، في نهج البلاغة للبحث حول القاعدة الخامسة.

والآن يجب البحث بشأن القاعدة السادسة وهي ان الانسان اذا نال الرشد بتأثير الحياة الطيبة، فسوف يكون لهذا الكائن الطيب والحي والمثمر، تواجد وحضور في أسفل مقام من عالم الطبيعة، الى أرفع مقام الامكان والتجرد، وقد بيّن الله تعالى، هذا المعنى في سورة ابراهيم، فقال: **﴿ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾**[1].

فالشجرة اذا يبست من الداخل، او أصابها ضرر من الخارج، فلن تكون طيبة، لأنها ستحرم من الحياة الطيبة حالها حال سائر الشجر في عالم الطبيعة. فالشجرة الطيبة في المنظار القرآني، هي التي لا ينفذ اليها التلوث، ولا تصاب باليبوسة والاهتراء، ولا تذبل، فهي مصانة من حيث التضرر وذات أساس ثابت وأصل ثابت (أصلها ثابت). ونظرا لثبات أصلها، وطيبة وجودها، لا تقف عقبة في طريق نموها، فاقتضاء النمو موجود فيها، كما ان طريق تكاملها خال من الموانع، لذا فانها تنمو ما أمكن ذلك **﴿وفرعها في السماء﴾**، لهذا تمتد هذه الشجرة من ذلك الأصل، الى السماء، وتنمو، وهي مثمرة بشراشرها ولا تماثل سائر الأشجار التي لا تثمر سيقانها، وانما أغصانها فقط، كلا فهي **﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾**[2].

فهذه الشجرة تثمر في كل زمان، تثمر وهي لا تزال صغيرة في متناول

(١) سورة ابراهيم، الآية (٢٤).
(٢) سورة ابراهيم، الآية (٢٥).

اليد، كما تثمر وهي في الحالة الوسط، وتثمر أيضاً حين تكون قد ارتفعت، كما ان كل اجزائها مثمرة، وفي جميع الأوقات.

ان الله تعالى يقول في التعريف بأشجار الجنة، انها ﴿**أكلها دائم**﴾[1] و﴿**أكل**﴾ معناه الطعام والفاكهة، وليس ﴿**أكل**﴾ بمعنى أن عملية أكلها دائمية، بل بمعنى ان طعامها دائمي ولا يتضرر.

وكبار أهل الجنة يبدأون الطعام بـ﴿**سبحانك اللهم**﴾، ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللّهم**﴾ فهم يسبحون الله، اذا أرادوا البدء بالأكل، لأنهم يدركون نقصهم، ويرون الله منزها من هذا النقص.

ان هذه الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة تؤتي الثمر في كل لحظة، ولا تخلو من الثمر آناً واحداً ويبين الله هذا المثل حتى يتذكر الناس. فعلامة الحياة الطيبة هي انها مثمرة في عالم الملك، وفي العالم العلوي وكذلك في المرحلة الأعلى.

والقول بأن المعصومين عليهم السلام ينفعون الانسان في عالم الطبيعة وينتفع بهم الملائكة في العالم الذي فوق الطبيعة، وهم مفيدون للمقربين في المقام الرفيع، أساسه ان لهم أصل ثابت وفرعهم في السماوات، وهم خالدون ويؤتون ثمرة خالدة، وذلك لأنهم عند الله.

لقد بيّن القرآن ثماراً أخرى لهذه الحياة الطيبة، فقال: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾[2] احدى بركات الحياة الطيبة هي تثبيت الانسان بالقول الثابت. وحينما يثبت الله، مكانة الانسان،

---

(١) سورة الرعد، الآية (٣٥).
(٢) سورة ابراهيم، الآية (٢٧).

فانها لا تهتز بعد ذلك أبداً ولا يتغير تفكيره عند التحولات التاريخية أبداً ولا تؤثر فيه منعطفات الدهر ولا تنفذ في نمط تفكيره التغييرات التاريخية مطلقاً.

في احدى الرسائل التي كتبها أمير المؤمنين عليه السلام، لمعاوية ذكر له، بأنه لن يعطيه الآن ما لم يعطه اياه سابقا. وانه لا يزال يعتقد بعدم لياقته للحكم، كما كان يعتقد ذلك قبل الآن، اذ لا معاوية صلح ولا الامام تغير رأيه وان الحق لا ينسجم مع الباطل بأي شكل من الأشكال. **﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾**[1].

ان القرآن أوضح الخطوط العامة للحق، وقد قال للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم **﴿قل جاء الحق﴾** ولأن الحق جاء، فلا يبقى للباطل محل بأي نحو كان، لا للباطل الجديد ولا الباطل القديم، ولا يمكن القيام بأعمال باطلة جديدة في زمان الحق وفي حكم الحق، كما لا يمكن تكرار الأعمال الباطلة السابقة **﴿قل جاء الحق﴾** وحيث قد جاء الحق فعند ذلك **﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾**، فلا الباطل البدئي ولا العودي، لا الجديد ولا القديم بقادر على مواجهة الحق. فلا يمكن تكرار الفساد السابق كما يمكن ارتكاب عمل فاسد جديد. فالحق لا يتلاءم أبدا مع الباطل ولا يقبل الباطل.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ فالانسان صاحب الحياة الطيبة، يثبته الله في الدنيا وفي الآخرة فلا يتغير كلامه في الدنيا ولا يتبدل نمط فكره الديني، وكلامه ثابت في البرزخ وفي الاجابة على الأسئلة، وكلامه ثابت في الامتحانات التي تجري بعد الموت، وهذه أمثلة على ثمر الشجرة الطيبة.

والقرآن الكريم اذ يطرح الحياة الطيبة يذكر انها تعطى للشخص الذي

---

(١) سورة سبأ، الآية (٤٩).

لديه نفس طيبة وعمل طيب، وقد بحث هذا بشكل تفصيلي في الجلسة الماضية، وذكر ان الشخص اذا كان مؤمنا، ولكنه بلا عمل ايجابي، فانه لا يبلغ الحياة الطيبة، مثلما ان من كان غير مؤمن وغير معتقد، ولديه عمل حسن، فهو لا ينال الحياة الطيبة، ولهذين الركنين دور مهم للوصول الى الحياة الطيبة. وفي ختام سورة الكهف قال تعالى **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾**[1] .

ان على المشتاق الى لقاء الله، الذي يريد الذهاب الى لقاء الله، الله الذي **﴿لا تدركه الأبصار﴾**، الذي يجب مشاهدته بحقائق الايمان بمقدار الامكان وببصر القلب، ان يحافظ على هذين الركنين:

الأول: **﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾** والعمل الصالح بمنظار القرآن هو الذي يطابق الوحي. والعمل الذي لا يوزن بميزان الوحي ومعيار الوحي ولا يدرس قبحه وجماله، لا يعتبره القرآن عملاً صالحاً. وقد أرسل ميزاناً لبيان العمل الصالح ولتمييز العمل الصالح من العمل غير الصالح **﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾**. هذا هو الحسن الفعلي والعمل الحسن.

الثاني: **﴿ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا﴾**، ان تكون نفسه موحدة ومؤمنة، ولا يريد في نفسه أحداً غير الله. ولا يطلب في نفسه شيئاً عدا رضى الحق. فإذا كان العمل صالحا والنفس معتقدة ومؤمنة يصل الشخص الى لقاء الله، وهي ثمرة الحياة الطيبة.

ومن أجل ظهور علائم الحياة الطيبة بصورة جيدة، بيّن تعالى، في سورة الروم، اثر الحياة الطيبة فقال: **﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى**

---

(١) سورة الكهف، الآية (١١٠).

قومهم فجاؤوهم بالبينات﴾.

انقسم الناس ازاء الرسل الى قسمين، بعضهم مجرم، وبعضهم مؤمن، بعض طغاة ومتمردون، وآخرون مسلمون ومنقادون. **﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾**، **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾**، فالأول وعيد، وبالامكان تغييره، فمن الممكن ان يعفو الله عن المجرم وخلف الوعيد غير محال، أما الثاني فهو وعد، وخلف الوعد، محال.

قال تعالى: **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** وهذا مثل الآية الشريفة: **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** فهو قد الزم نفسه بنفسه، اي ان مقاماً من فعل الله، ألزم مقاماً آخر من فعل الله، وهذه ليست واجبة على الله بل هي واجبة من الله.

وللحكيم المتألّه ابو علي سينا قول رائع، له من المكانة في الفلسفة الاسلامية، بحيث ان صدر المتألهين يذكر ذلك القول باعجاب واستحسان، يقول ابو علي سينا، ان وعد الله، فان ذلك الشيء يصبح واجباً على أساس القواعد الفلسفية وطبقا للعلم الالهي، وحسب التعبيرات الدينية، فان **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** وأمثال هذه العبادة، هي مما «يجب عنه»، اي ان من المؤكد ان الله يفعلها، وليست هي مما «يجب عليه»، اي أن عليه ان يعملها بالتأكيد، لأن «الوجوب» من صنع الله، والله لا يحكم بأي وجوب.

فهناك فرق بين القول ان الله سيفعل ذلك بالتأكيد، والقول ان عليه ان يفعله بالتأكيد، فالله غير محكوم بأي قانون، لأن القانون اما هو معدوم او موجود، فان كان معدوما، فهو ليس بقانون، وان كان موجودا، فهو ممكن ومخلوق من قبل الله، وجزء من النظام الذي خلقه الله، لأنه وفقاً للتوحيد

ليس هناك أكثر من واجب واحد، والموجودات لا تكون واجبة.

أجل، وهذا هو نفس الأساس القرآني، حيث يقول الله تعالى: **﴿لا يسأل عما يفعل﴾**[1]، فلا يمكن السؤال عن العلة الفاعلية، ولا عن العلة الغائية.

والسؤال الذي يطرح، اما ان يتعلق بالعلة المادية للشيء، اي مم صنع هذا الشيء؟ او يتعلق بالعلة الصورية، اي كيف صنع؟ او يتعلق بالعلة الفاعلية، اي من الذي فعل ذلك؟ أو يتعلق بالعلة الغائية، اي لماذا حصل هذا العمل، وما هو الهدف من ورائه؟

لذلك فالجواب على هذه الأسئلة، هو البرهان الذي توجد في وسطه، احدى هذه العلل الأربع؛ اما العلة المادية، او العلة الصورية، او العلة الفاعلية او العلة الغائية. وعمل الله، اي الأفعال التي تتم على المادة والصورة، هي مسألة أخرى، ولكن لا يمكن السؤال عن العلة الفاعلية فيما يتعلق بالله، لأنه الأول المحض والمبدأ الأول والفياض بالذات. كما لا يمكن السؤال عن العلة الغائية والهدف، فيقال لماذا قام الله بهذا العمل، وماذا كان غرضه؟ فالله هو الكمال المطلق واللامحدود، وهو آخر الآخرين، فهو الغاية بالذات.

ولأنه مبدأ بالذات فلا مجال للسؤال عن المبدأ الفاعلي بشأنه، ولأنه الآخر والغاية بالذات، فلا طريق للسؤال عن العلة الغائية هناك **﴿لا يسأل عما يفعل﴾**، وبما انه غير محكوم بأي قانون، فلا يمكن وزن فعل الله بالقانون، لأن القانون هو فعل الله. وهذا ليس بمعنى كون الحسن والقبح

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٢٣).

اعتباريين حسب قول الأشاعرة، فهناك آلاف الدرجات العلمية بين ذلك المعنى الباطل، وهذه الفلسفة العميقة، فهذا يقول اننا نستخرج القانون من متن النظام الأحسن، وهذا النظام الأحسن، هو «يجب عن الله»، حسب تعبير ابن سينا، وليس «يجب على الله»، وكل الضرورات ناشئة من الله، لا أنها تحكم الله.

والخلاصة: ان الله، وعد المؤمنين بالنصر، فقال **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾**، وهذه من السنن الإلهية التي قد حتمها الله فمن غير الممكن ان يحرم المؤمن الذي لديه نفس معتقدة وعمل صالح، الذي قد وصل في النتيجة الى الحياة الطيبة، من نصرة الله، لأن من لوازم الحياة الطيبة، التمتع بنصرة الله، ونظرا الى ان الله وعد بالنصر، فانه لا يخلف الوعد أبداً **﴿لا يخلف الله الميعاد﴾**، **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** هذه هي علامة الحياة الطيبة، حيث يرفع الله تعالى، كل خوف من قلوب الذين يحيون حياة طيبة.

قال تعالى في سورة المائدة: **﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون﴾** على كل شخص مهما كان فكره وهدفه وعقيدته ان يصل الى الحياة الطيبة بالمحافظة على هذه الأركان الثلاثة، ثم طرح تعالى، هذه القاعدة العامة، من دون حرف (الواو)، فقال: **﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[1].

والخلاصة، ليس المهم نوع الفكر والعقيدة لدى الانسان، بل المهم ان هناك ثلاثة اركان للوصول الى الحياة الطيبة:

الأول: الاعتقاد بالله.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٦٢).

الثاني: الاعتقاد بالقيامة.

والثالث: العمل الصالح.

والعمل الذي ينطبق مع ميزان ومعيار العصر، يعتبره القرآن، عملا صالحاً. وميزان ومعيار كل عصر هو دين النبي الموجود في ذلك العصر، ففي هذا العصر مثلا، يعتبر القرآن معياراً لتحديد العمل الصالح، وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه، في تفسير الميزان، ان العمل الصالح هو الذي يتطابق مع الاسلام. والانسان في اي أرض كان وفي أي زمان واقليم وعهد، اذا توفرت فيه هذه الأركان الثلاثة، فانه يحيى الحياة الطيبة، والأركان الثلاثة هي الايمان بالمبدأ والايمان بالمعاد، والقيام بالعمل الصالح.

العمل الصالح، من منظار القرآن، هو الذي يكون منطبقاً مع تعاليم النبي في ذلك العصر، وحجة الله في ذلك العصر. والآن يعتبر القرآن العمل صالحا اذا انطبق مع القرآن الكريم. وقد جاء القرآن بتعاليم جديدة، وصدّق تعاليم الأنبياء السابقين ﴿**مصدقاً لما بين يديه**﴾[1] أي انه صدّق ما جاء به الأنبياء الماضون، ﴿**ومهيمنا عليه**﴾[2]، أي له عليها هيمنة وسيطرة واشراف، لأن الكامل يكون تحت نفوذ الأكمل.

وبناء على هذا، فكل من لديه هذه الأركان الثلاثة، والتي تعود الى أصول الدين الثلاثة فهو مشمول بـ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[3]،

(١) سورة المائدة، الآية (٤٨).
(٢) سورة المائدة، الآية (٤٨).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (١٣).

فالآية الكريمة لا تعني ان المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى وكل من كان مؤمناً ويعمل صالحاً يبلغون مقامات عالية، اذ لم يأتِ ﴿بالواو﴾ هنا، فقال لا فرق مهما كانت عقيدة الشخص. اذ قال ﴿من آمن﴾ ولم يقل «ومن آمن» وقد ورد ذلك في موضعين من القرآن، من دون واو ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾.

والخلاصة ان الذي تتوفر فيه ثلاثة أركان، هي الايمان بالمبدأ، الايمان بالمعاد والعمل الموافق لتعاليم رسول ذلك العصر، وحجة ذلك العصر، فانه سواء كان فرداً او كانت جماعة تشمله ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فهم لا يحزنون من الماضي ولا يخافون من المستقبل. لا يحزنون على شيء فقدوه سابقاً ولا يخافون من ان يفقدوا شيئاً في المستقبل. لأن محبوبهم لا يؤخذ منهم، وما يؤخذ منهم ليس محبوبهم لهذا لا مكان للحزن ولا محل للخوف، والماضي والمستقبل لا يؤثران فيهم ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهذه هي من أفضل ثمار شجرة الحياة الطيبة، والانسان اذا بلغ هذه المرحلة فوجد محبوباً لا يزول، فانه يكون في أمان من مخالب الخوف والحزن، ويكون صاحب قلب سليم.

وأي نعمة أفضل من عدم نفوذ أي خوف الى قلب الانسان ولا نفوذ اي حزن، وأية حياة ألذ من الحياة التي تخلو من كل تعب؟ أليس الانسان متعطشاً لهذه الحياة التي ليس فيها عناء؟.

وقد قسمت الجوامع الروائية، الحياة والعالم الى ثلاثة أقسام: الدنيا والجنة والنار، ففي الدنيا يمتزج التعب والنشاط، ويختلط الحزن والسرور، ويقترن الموت مع الحياة، وأمثال ذلك. أما في جهنم فلا محل للعفو والرحمة. وقد دعا أمير المؤمنين عليه السلام، في نهج البلاغة، الى الخوف من

جهنـم التـي «قعـرهـا بعيـد وحـرهـا شـديـد وعـذابهـا جـديـد، دار ليـس فيهـا رحمـة»[1] ، لأنهـا مظهـر لغضـب وسخـط الله، وغضـب الله صفـة لفعـل الله، وليـس فـي الغضـب أيـة رحمـة «دار ليـس فيهـا رحمـة»، لأنهـا نتيجـة سيئـات وفساد الفترة الماضية.

والثـالـث، هـو عـالـم الجنـة، الـذي ليـس فيـه عنـاء وحـزن وعـذاب ﴿لا يمسّهم فيها نصب﴾[2] ، ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾[3] . وحين يمدح القرآن، أهل الجنة، ويصفهم بهذه الأوصاف، فذلك يعني ان نفوسهم صافية من كل غل وخيانة للآخرين، كما ان اشادته بالزوجات في الجنة وقوله ﴿وعندهم قـاصـرات الطـرف عيـن﴾[4] ، هـي كنـايـة عـن أنهـم لا ينظـرون ابـداً لغيـر ازواجهم.

فهـو ليـس بـالعـالـم الـذي يسـري اليـه فسـاد، لا فـي نفـوسهـم ولا فـي اجسامهم، وهم ﴿متكئين عليها متقابلين﴾[5] ، ليست هناك غيبة وانما شهود فقط، فهم لا يتكلمون في الجنة في غياب أحد، وهم متقابلون دائماً.

ان هذا الحال، خاص بحال لقاء الله. فحين يزورون الله يكونون في مواجهة بعضهم الآخر وهذا غير ممكن الا في عالم التجرد الذي تكون كل جهاته، وجه، وهذا البحث بعيد عن اطار بحثنا هذا اليوم كما ان مستواه يختلف بعض الشيء عن مستوى هذا البحث.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، الرسالة ٢٧.
(٢) سورة الحجر، الآية (٤٨).
(٣) سورة الطور، الآية (٢٣).
(٤) سورة الصافات، الآية (٤٨).
(٥) سورة الواقعة، الآية (١٦).

وعلى أي حال؛ فالجنة عالم، ليس فيه اي تعب وعناء، اما جهنم، فهي حسب قول علي بن أبي طالب عليه السلام، «دار ليس فيها رحمة»، فلا أهل جهنم يرحمون بعضهم البعض، ولا يرحمون، وقد قال تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾[1]، وقال ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾[2]، أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

في جهنم نار جديدة وجلد جديد كل لحظة، وفي الجنة حياة جديدة وثمار جديدة كل لحظة، نشاط جديد وسرور جديد ولطف جديد، كل لحظة، ولذا ليس في الجنة تعب، وليس في جهنم نشاط، اما الدنيا فخليط ومزيج، الى حين نعبر من هذا الصراط ونسافر بشكل من الأشكال، والقول بأن جهنم ليس فيها رحمة، فذلك انما هو بالمقارنة مع الجنة، اذ ان جهنم، وفق الرؤية العامة لعالم الخلق، هي رحمة الله.

العالم كله رحمة، وهو ناقص من دون جهنم، ولو لم يكن في العالم بشر مفسدون، لكان العالم ناقصاً والعالم ناقص لو لم يكن هناك انتقام من المجرمين، ولذلك حين يعدّ الله تعالى نعمة في سورة الرحمن كما يتكلم حول الجنة ويصفها أنها من نعم الله، فانه تعالى، يعتبر جهنم من ضمن نعمه أيضاً، عندما يتكلم عنها فيقول: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأي الاء ربكما تكذبان * فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي الاء ربكما تكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام * فبأي الاء ربكما تكذبان * هذه جهنم التي يكذب بها

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٩٧).

(٢) سورة النساء، الآية (٥٦).

المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي الاء ربكما تكذبان﴾[1] .

قال شيخي :

ان قلم الخلق والصنع لم يجر خطأ أبداً

فبوركت تلك النظرة الطاهرة التي قد سترت الأخطاء

فهذا المرشد قد نهج بشكل لا يبقي محل للخطأ والاشتباه في العالم إذ الخطأ في مقابل الصواب يكون خطأ قياسياً [لا مطلقاً] والغضب مقابل الرحمة غضب قياسي [نسبي] والا فلو نظر الى العالم ككل فإنه يصير رحمة ليس إلاّ، واننا لو ارتفعنا عن مستوى الجنة والنار ورأينا الرحمة المطلقة التي **﴿وسعت كل شيء﴾**، والتي تغطي الجنة والنار، وشاهدنا ذلك الفيض المنبسط وأدركنا كلمة «كن»، ونظرنا الى الشعلة التي سطعت في مرآة الجنة والنار والدنيا، لفهمنا ان الرحمة تغطي جهنم والجنة والدنيا. وتلك الرحمة تغطي الغضب، وتغطي الرحمة كذلك وتلك الرحمة المطلقة التي تصير جهنم رحمة بالاستناد اليها كما ان الجنة تكون رحمة أيضاً. وهي يعدها الله من نعم هذا العالم قال تعالى: **﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**.

والفاسقون هم الآن في حركة وطواف بين جهنم والعين الفوّارة، الا أنهم لا يعلمون ان امامهم جهنم كبيرة، وان في داخلهم جهنم صغيرة.

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٣٥ ـ ٤٥).

نرجو ان يعرّفنا الله تعالى برحمته المطلقة وبرحمته الخاصة كذلك، وان يمتعنا بالحياة الطيبة، وان يبعدنا عن شرور الطبيعة وجهنم وسائر آثار الغضب الإلهي.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الدرس الرابع عشر

حضور الأعمال في ساحة القيامة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

إن القرآن وكما ذكرنا في المحاضرات السابقة هو كلام الله الذي تجلى الله من خلاله، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[1] ، أي أن الله الذي صدر عنه هذا الحديث تجلّى لعباده في هذا الكلام، فالقرآن مظهر الفيض الإلهي. ولأن الله حق محض فإن تجلّيه وظهوره لا بد أن يكون حقاً أيضاً. ولا سبيل للباطل الى حريم هذا الكتاب مطلقاً.

ومن ناحية أخرى فان الله قد وصف هذا القرآن بالحكيم ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾[2] وأقسم بهذا القرآن الحكيم، جعل الحكمة من صفات

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

(٢) سورة يس، الآية (١و٢).

القرآن وعرّفه بها، ولا يمكن للباطل أو الخطأ أن يدخل دائرة الحكمة. فالكتاب المحكم لا يتضمن كلاماً ركيكاً وعليه فكل ما جاء في القرآن الكريم حكمة ومحكم.

حين يصادفنا مفهوم صعب في القرآن، فمن الخطأ حمله على التشبيهات الخيالية والشعرية ويوجهه على انه بنحو التمثيل أو التشبيه، لأن الخيال الشاعري لا يتفق مع كتاب الحكمة، وعدا عن أن الله سبحانه يطرح الرسول الأكرم ﷺ بصفته حكيم ذي نصيب وافر من الحكمة وبعيد كل البعد عن الشعر، فانه يدحض التهم التي كان يوجهها الأعداء اليه ﷺ وزعمهم أن النبي لا يمتلك رصيداً سماوياً، وأن كل ما يدعيه هو نسيج من الشعر والخيال، فهو شاعر وليس حكيم. فقد رد الله تعالى ذلك أيضاً وقال **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾**[1] .

إن النفس الحالمة والخيالية لا تستطيع أن تفكر بصورة محكمة وتكون لها أفكار رصينة لذا نحن ما علمناه الشعر ولا هو يليق بمقامه. كما يصف الله سبحانه القرآن بالحكمة ويقسم به في سورة يس **﴿يس * والقرآن الحكيم﴾** فإنه يمتدح الرسول الأكرم أيضاً لكونه منزهاً عن الخيال والشعر ويقول **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾** لأن التخيل لا يتضمن التصديق.

والمراد بالشعر هنا ليس الكلام المنظوم، فمن الممكن أن يكون الكلام المنظوم حاوياً للحكمة ومتصفاً بها، وليس في هذا نقص بل هو من الكمال. ففي بعض الأحيان قد يصوغ الانسان مفهوماً علمياً عميقاً في قالب الشعر، وهذا من الكمال. كان العلامة بحر العلوم (رض) قد نظم مقداراً من

---

(١) سورة يس، الآية (٦٩).

المسائل الفقهية شعراً. وفي الفلسفة الاسلامية، نظم الحكيم السبزواري (رض) مجموع الفلسفة الاسلامية شعراً، فهذا لا يعد نقصاً وإنما كمالاً. المقصود بالشعر هو الأوهام وما ينسجه الخيال وهو ما لا يليق بمقام الحكيم.

ليس في الخيال محل للتصديق، بل هو سلسلة من التصورات التي تمثل دور التصديق، وليس في القياسات الشعرية تصديق. من الفروق بين القضية والتصديق وان القضية ترد في المعايير الشعرية وكذلك صورة القضية ولكن ليس ثمة قضاء وحكم في المعايير الشعرية، إذن فليس ثمة تصديق أيضاً، الشعر هو أن ننسج بعض الأشياء ونطرحها بواسطة التشبيه والتمثيل وهذا لا يترافق الجزم والتصديق. والقرآن الكريم منزه عن هذا النقص فلا سبيل للتلفيق ونسج الخيال الى القرآن **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾**. ليس التلفيق والخيال من شأن الرسالة ولسنا نحن الذين علمناه هذا النقص، وليس هذا القرآن الذي علمناه إياه شعراً. بل **﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾**[1] إنه تذكرة تخبر الانسان عن ماضيه ومستقبله وتكشف له الحقائق.

وعليه، حين يزعم الأعداء أن الرسول الأكرم شاعر، ويروي القرآن اتهاماتهم في سورة الطور: **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾**[2] فهو في نفس الوقت يرد بمنتهى الصراحة عليهم بأن ما جاء به الرسول الأكرم ليس خيالاً وشعراً ولا هو من نسيج الأوهام ونتاج التمثيل.

وفضلاً عن هذا فإن الله يعرّف القرآن باعتباره يتحدث بالحق فيقول:

---

(١) سورة يس، الآية (٦٩).

(٢) سورة الطور، الآية (٣٠).

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[1] أي أن العلاقة بين هذا الكتاب والمبدأ الفاعل علاقة حق، وكذلك العلاقة بينه وبين المبدأ القابل. فهو قد نزل بصحبة الحق كما انه استقر في قلب الرسول الأكرم ﷺ بمصاحبة الحق، فالله نطق بالحق ورسول الله قد وجد الحق أيضاً ولم ينفصل القرآن عن الحق والحقيقة أبداً. منذ أوائل تنزله وحتى أواخره كان مصاحباً للحق ﴿وبالحق أنزلناو وبالحق نزل﴾. إن الكتاب الذي كان صاحباً للحق ومصاحباً للحق، فإن الحقيقة ترافقه أينما ذهب، ولا مكان فيه للتلفيق الشعري. إن الشعر كلما كان على باطل كان أجمل (أعذبه أكذبه)، وكلما بالغ وأمعن في الخيال كان أقوى وأمتن. أما القرآن الذي نزل بالحق وألقي في قلب الرسول الأكرم ﷺ بالحق فهو منزه عن الخيال ومطهر من الأوهام.

وتأسيساً على هذه القاعدة الكلية، فإن كل ما قاله الله في القرآن حق. حين يريد القرآن أن يروي قصة أو حادثة معينة، فإن كانت هذه القصة أو الحادثة حقيقية وواقعية، يطلق عليها إسم القصة ويقول ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾[2] وينقل حوادث الأنبياء السابقين بعنوان الوحي ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾[3]. أما حين تكون ثمة حادثة لم تقع بالفعل في العالم الخارجي، وأراد الله أن يروي هذه القصة أو الحادثة غير الواقعية، فانه يأمر الرسول الأكرم أن يرويها على شكل مثل للناس ويقول في بداية مثل هذه القصص ﴿واضرب لهم مثلاً﴾[4].

حين يريد التشبيه، يقول ان هذا الذي أرويه لكم إنما هو تشبيه وإذا

---

(١) سورة الاسراء، الآية (١٠٥).
(٢) سورة يوسف، الآية (٣).
(٣) سورة آل عمران، الآية (٤٤).
(٤) سورة الكهف، الآية (٣٢).

أراد المقارنة يقول إن هذه مقارنة أريد أن تعتبروا منها. والإشارة الى هذه النقطة حق أي أن التنبيه الى ان هذه الحادثة لم تقع بالفعل، حق. فمن المستحيل أن يروي القرآن قصة مفتعلة على أساس أنها واقعية، ليمكن أن يتضمن الباطل. بل يقول إضرب لهم هذا المثل وأجر لهم هذا التشبيه والمقارنة.

لأن ضرب الأمثال ذو تأثير كبير في فهم الأمور، فهو يرتقي بمستوى تفكير المستمع بعض الشيء، وينزل بمستوى المفاهيم بعض الشيء وبالتالي يتساوى مستوى تفكير المستمع مع مستوى المفهوم المعني ويستطيع أن يفهمه. وهذه مهمة ضرب الأمثال.

ولكنه لا يذكر المثل بصفته أمراً حدث في الواقع الخارجي وإنما يقول للرسول بيّن لهم هذا المثل.

وطبقاً لهذه الأصول الكلية، يقول القرآن الكريم «كل من عمل عملا فانه يراه» وفي هذا المجال يمكن استخلاص الأصول التالية من القرآن الكريم:

الأصل الأول: أي عمل يقوم به الانسان، سيشاهد عين ذلك العمل. ولا ينال جزاء ذلك العمل من ثواب أو عقاب. بل سيشاهد أصل ذلك العمل. وهذا نحو من الجزاء وهناك جزاء آخر يلحق به أيضاً. فالقرآن يعتبر عمل الانسان موجود حي.

الأصل الثاني: إن هذا العمل الحي والموجود يجب أن يرتبط بشخص ما في هذا العالم المنسجم. فمن غير الممكن أن يكون العمل موجوداً وما كسب الانسان حياً، ولكنه لا يرتبط ويتبع بشخص أو مكان، ففي هذه الحالة

سيكون العالم متفككاً وفوضوياً. ليس في عالم الوجود شيء غير مرتبط بمحل معين أو ليس هنالك شيء مرتبط به. ليس في العالم شيء منفصل عن قافلة الوجود.

الأصل الثالث: من وجهة نظر القرآن الكريم، يجب أن يرتبط العمل بعامله فقط وليس بشخص آخر. فعمل كل انسان مرتبط به ولا يتخلّف عنه. وقبل أن يقوم الانسان بالعمل، كان العمل في حوزة ذلك الانسان. فإذا قام به صار الانسان رهيناً بذلك العمل وخاضعاً لسلطانه. ولا تنفصم الأواصر بين العمل والانسان أبداً.

الأصل الرابع: إذا كان العمل حياً ومرتبطاً بالانسان، والانسان مرتبط بالعالم، فان الذي يحدد ويعين علاقة وارتباط الانسان بالعالم هو أعماله. أي حين يكون الانسان ذا علاقة بالعالم، فعمله هو الذي يقرر نوعية هذه العلاقة، وكونها ايجابية أم سلبية؟ وحيوية أم كئيبة؟ العمل هو الذي يوضح نوعية الارتباط، بأي نحو كان العمل وبأية كيفية.

يطرح القرآن الكريم هذه الأصول بصراحة، وإنطلاقاً من المقدمة التي تنزّه القرآن من التلفيق وصناعة الشعر، يجب ان تقوم كل هذه الأصول على اساس من الحكمة والحق، أي يجب أن يكون العمل حياً حقاً، ومرتبطاً بالانسان حقاً، والانسان مرتبط بالعالم الخارجي حقاً وواقعاً، ويجب أن يكون العمل محدداً لنوعية علاقة الانسان بالعالم الخارجي حقاً وواقعاً. فإذا كان منتفعاً من العالم فذلك نتيجة للأعمال الخيّرة وإن واجه الضرر من العالم فذلك على أثر أعماله الشريرة والقبيحة.

فيما يخص الأصل الأول وهو أن العمل حي ولا يفنى أبداً، نرى

القرآن الكريم يطرح هذه القضية في عدة أماكن وبأساليب مختلفة، احداها في سورة آل عمران حيث يقول: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾[1] ، وحين يأتي تعبير ﴿يوم﴾ و﴿يومئذ﴾ في القرآن فالمراد به غالباً يوم القيامة.

أي سيأتي يوم، يرى كل انسان ماضيه حاضراً ﴿يوم تجد كل نفس﴾ يرى كل امرىء ما عمله حاضراً، ولا تحضر أعماله الجسمية فقط ليراها، ولا تحضر خواطره الخيالية فقط، بل يحضرون له عقائده وأفكاره العقلية أيضاً. فيجد أمامه كل ما عمل وكل ما قال وكل خطوة خطاها. ويجد كل ما كتب وما سمعه بأذنيه من كلام. سيجد كل منظر رآه سواء كان قبيحاً أم حسناً، حلالاً أم حراماً. وسيرى كل أعماله حاضرة أمامه يوم القيامة.

إذن فالقرآن يثبّت هذا الأصل وهو أن العمل لا يفنى، وثانياً بما أن العمل موجود لا يفنى فلا بد أن يرتبط بمبدأ معين. وثالثاً أنه مبدأ ذلك الارتباط هو الانسان نفسه.

وعليه فالعمل حين يصدر من الانسان، لا يفنى ولا يبقى بلا ارتباط، ولا يرتبط بغير الانسان.

يجد الانسان جميع أعماله. وليس هذا من باب التشبيه كأن يتصوّر الانسان ما عمله حاضراً، فهو حين يجد الجزاء كأنه يجد العمل ذاته. إن مسألة الجزاء مسألة أخرى، والانسان يجد ذات العمل حاضراً يوم القيامة، ولهذا لا يستطيع إنكاره. يرى ذلك المكان الذي قام بعمله فيه متجسداً، ويرى تلك الحالة التي اقترف فيها العمل متمثلة. يجد أصل العمل وساحة

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٠).

العمل حاضرة، فلا يبقى له مجال للإنكار.

لا يستطيع أي إنسان أن ينكر أعماله يوم القيامة، لأن أصل العمل حاضر هناك ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾ سيرى حتى أعماله القبيحة حاضرة، ولكنه يومئذ يتمنى لو كان بينه وبين عمله القبيح هذا أمداً بعيداً، فليت فاصلة زمنية طويلة بيني وبينه لكيلا أراه ولا تعذبني رؤيته. غير أن هذه الأمنية، أمنية باطلة.

يرى عمله القبيح ويتمنى لو كان بينه وبين هذا العمل قرون متمادية كما انه سيجد يوم القيامة ذلك المحدث الداخلي، ذلك الشيطان الباطني حاضراً أمامه أيضاً، سيفهم ان كان له صاحب سوء أضلّه وكان هو مطيعاً لصاحب السوء ذاك. كانت في نفسه وساوس تشجعه بحيلها على ارتكاب الذنوب وكان أسيراً لحيل ذلك الشيطان الباطني. ولهذا يقول يوم القيامة، يا ليت بيني وبين هذا القرين أو هذا الرفيق بُعدَ المشرقين، فيكون هو في الشرق وأنا في الغرب، يا ليت بيني وبين صاحبي الداخلي كما بين المشرق والمغرب.

سيجد ويرى ويعرف ذلك الشيطان الباطني يوم القيامة ويقول ليت بيني وبين هذا الشيطان الذي معي فراسخ وفراسخ، بالاضافة الى انه سيرى تصرفاته القبيحة يوم القيامة ويقول ليت بيني وبين هذا العمل القبيح قرون وقرون.

فيتمنى الفاصلة الزمانية هنا والفاصلة المكانية هناك. في حين أنه يستطيع في الدنيا أن يتخلص من هذا الشيطان ويرجمه ويتخلى عن الأعمال القبيحة ويفصل بينه وبينها. حين يكون هذا ممكناً في الدنيا نراه لا يتمناه،

أما في الآخرة حيث الحساب بلا عمل فيتمناه ولا مجال يومئذ للأماني.

بناء على هذه الآية، فان العمل لا يفنى أبداً. وحين يقول في آية أخرى ﴿يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم﴾[1] أي لنريهم أصل ذلك العمل. ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[2].

ليس هذا من قبيل التشبيه والتمثيل وما شاكل. إن التمثُّل يختلف عن التمثيل، والانسان يشاهد أصل العمل وتتمثل له حقيقة العمل. وليست لغة الآية لغة شعرية، أو أن الانسان يرى جزاء عمله وليس أصل العمل، فما لم تكن هنالك قرينة جازمة على خلاف هذا، يجب حمل الآية على هذا الظاهر.

يجد الانسان العمل ذاته يوم القيامة، يراه حياً. وكم تزيد هذه الرؤية من مسؤولية الانسان وكم تجعلها ثقيلة؟ فلو آمن أن الأعمال لا تفنى ولا تدعه أبداً، لحاسب نفسه في كل ما يقوم به، فيدخل في ما يريد ان يدخل به دخول الحق، وإن أراد أن يخرج بنتيجة فيخرج بالنتيجة عن الحق.

يأمر الله رسوله في سورة الاسراء: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾[3]. وفّقنا اللهم لنكون صادقين في أعمالنا فندخلها بصدق ونخرج منها بصدق، وإذا دخلنا الدنيا وعالم الطبيعة فلا نخرج منها وقد لوثتنا بألوانها وأقذارها. وإذا دخلنا عالم البرزخ دخلناه بصدق وخرجنا منه إلى القيامة بصدق. واجعل الصدق أساس أعمالنا في الدنيا وأساس استفادتنا من هذه الأعمال، وليكن الصدق رفيقنا في أي

---

(١) سورة الزلزلة، الآية (٦).
(٢) سورة الزلزلة، الآية (٧و٨).
(٣) سورة الاسراء، الآية (٨٠).

مدخل ندخله وأي مخرج نخرج منه ﴿رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾.

إنطلاقاً من أن الأعمال حية ومرتبطة بالفاعل وهي الأساس في علاقة الانسان بالعالم، فان للأعمال دور مهم بالنسبة للانسان في الدنيا، ودورها المهم أنها تعينه وتساعده إذا أراد التعالي والرقي، كما إن الأعمال الشريرة والقبيحة لها دور في تسافل وانحطاط الانسان.

يرسم القرآن الكريم في سورة فاطر طريق تسامي الانسان ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾[1]، من أراد العزة فليعلم أن العزة لله جميعاً وإن طريق العزة هو قوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[2] وقد ناقشنا كلمة (الطيّب) في المحاضرة السابقة. يقول في هذه الآية أن العمل الصالح يعين الكلمة الطيبة على الصعود والانسان على التسامي ليطير من حضيض الطبيعة الى قمم ما وراء الطبيعة، فيتحرر من البدن وينجو من العلاقات المادية.

فللعمل الصالح دور خلّاق في هذا السير المعنوي، حيث يؤدي الى رفعة الكلمة الطيبة وصيرورة الانسان طاهراً مطهراً ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ وهذا هو تأثير العمل في رشد الانسان. وهكذا، فلو كانت أعماله طالحة وقبيحة فسيظل الانسان رهينها وأسيرها لأنها مرتبطة به وهو مرتبط بها ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[3].

إذن فالأعمال حية، والانسان رهين بها، وأين ما ذهب العمل جرّ

---

(١) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٣) سورة المدثر، الآية (٣٨).

صاحبه وراءه، فلو كان العمل سيئاً تحرّك باتجاه السقوط وجرّ الانسان الى الهاوية فالانسان حبيس أعماله.

يقرر القرآن مبدأ كلياً في سورة الاسراء وهو أن العمل لا ينفصل عن العامل **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾**[١]، فإن قمتم بالأعمال الخيرة وأحسنتم إلى الآخرين أو أحسنتم بصورة عامة، فهذه الأعمال لكم **﴿وإن أسأتم فلها﴾**[٢] وإن ارتكبتم السيئات فهي لكم أيضاً.

إن حرف اللام هنا يفيد الاختصاص، يعبّر القرآن احياناً **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**[٣] من عمل صالحاً فقد عمل لنفسه ومن عمل طالحاً فقد عمل ضد نفسه **﴿فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها﴾**[٤] وقد تكرر هذا المضمون في القرآن بكثرة، فمن اهتدى واختار الطريق الصحيح فقد عمل لصالح نفسه وإن ضل وعمل السوء فقد عمل عليها. فهنا جاء التعبير بـ«اللام» والـ«على» أما في سورة الاسراء فكان التعبير في الحالتين بـ«اللام» وهذه اللام لام الاختصاص.

ووفقاً لما جاء به العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسير الميزان فان من يقوم بالعمل يرتبط العمل به ارتباطاً خاصاً **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾** هذا العمل لكم، و**﴿إن أسأتم﴾** فهو لكم أيضاً ولا ينفصل عنكم أبداً. وحسب قول الشاعر (الفارسي): إن كان حملك شوكاً فقد جرحت نفسك وإن كان ريشاً فقد أنعمت نفسك.

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٧).
(٢) سورة الاسراء، الآية (٧).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).
(٤) سورة يونس، الآية (١٠٨).

تـارة تـرى الانسـان يسقـي شجـرة الشـوك وتـارة تـراه ينسـج الحـريـر والريش. إنه حين يتكبر ويظلم ويقسو ويجور فقد سقى شجرة كلها أشواك ستنال من جسده. وحين يعدل ويحسن فانه يخيط الحرير والريش لنفسه، إذن فلو كانت نتيجة حياته شوكاً فقد جرح نفسه وإن كانت ريشاً فقد أنعم نفسه **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾**.

تثبت الآية المذكورة هذه الأصول التي أشرنا اليها في بداية الحديث وهي:

أولاً: العمل لا يفنى.

وثانياً: لأنه لا يفنى فلا بد أن يرتبط بمكان معين في هذا العالم المنتظم.

وثالثاً: يرتبط العمل بفاعله دون غيره.

ورابعاً: لا يفنى العمل ولا يبقى بغير ارتباط ولا يوضع عمل شخص في حساب شخص آخر لينفصم ارتباط العمل بفاعله. بل هو الانسان وما كسبت يداه. فالعمل يرسم حدود الانسان في العالم. ويحدد ثوابه وعقابه بعد الموت، حيث يجد الانسان أعماله حية مما يحمّل الانسان مسؤولية جسيمة.

ورد عن الامام السجاد عليه السلام في دعاء ختم القرآن ضمن الصحيفة السجادية بيان مفاده أن الانسان لا يفنى عند الموت، فليس معنى الموت هو الفناء والعدم، بل إن للموت شرف وعظمة خاصة، ولهذا قال الامام عليه السلام إن الموت عبارة عن «تجلّى ملك الموت لقبضها من حجب

الغيوب»[1] .

إذن فالناس لا تفنى بعد الموت . فملك الموت يقبض حقيقتهم بعد ان يخرق حجب الغيب ويتجلى للانسان، وليس بامكان كل انسان محتضر أن يدرك هذا التجلي . فلا يتشرف كل انسان حال الاحتضار برؤية تجليات ملك الموت، بل ان الكثير من الناس لا يرون سوى جنوذ ومأموري هذا الملك .

ثم يقول، ان الانسان اذا ترك هذا العالم صارت اعماله قلادة في عنقه وسلاسل حول بدنه «صارت الأعمال قلائد في أعناقهم»[2] أي أن أعمال الانسان سلاسل وقلائد في عنقه، فالذنب سلسلة تخنق الرقاب في الآخرة ولا يمكن للبشر الخلاص من قيد أعمالهم .

وهذا يدل على ان العمل موجود لا يفنى وله ارتباط، وارتباطه بفاعله وان كان العمل سيئاً كان صاحبه في أسره ورهنه وإن كان حسناً أورث صاحبه البهاء والجلال .

حين يصرح القرآن الكريم أن الانسان سيشاهد أصل عمله يوم القيامة فليس هذا من باب التشبيه والتنظير وما شاكل . وفضلاً عن أن جزاء الأعمال يبقى محفوظاً في القيامة، فان ذات العمل سيكون حاضراً هناك . وهذا التفسير يوقظ في الانسان الاحساس بالمسؤولية والواجب فيحاسب نفسه على ما يعمل وعلى الهدف الذي يعمل من أجله . إن الله انما يتقبل الأعمال التي تكون طاهرة الأصل والروح .

كانت هنالك مراسم للحج والنحر أيام الجاهلية، كانوا يعلّقون لحوم

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٢ .

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٢ .

الذبائح على جدران الكعبة ويمسحونها بدماء هذه القرابين ليتقبلها الله. فقبّح القرآن الكريم هذا العمل وقال إن اللحم والدم لا يصل الى الله بل هو العمل الذي يصل اليه **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾**[1].

لا تعلقوا اللحوم على جدران الكعبة ولا تمسحوها بالدماء فليست هذه اللحوم والدماء هي الأعمال، بل ان العمل هو ذات الذبح والتضحية والنحر فان كان نحر الأنعام من أجل القرب من الله واستطاع أن يقربكم اليه عز وجل فهو إذن القربان، لأنه سبب في القرب، وهو ما يرتضيه الله وتصله روح هذا العمل وهي التقوى. **﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾** أما إن كان رياءً وكانت روحه ملوّثة فسيكون عامل بعد عن الله تعالى بدل أن يكون عامل قرب منه **﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾**[2].

وعلى ذلك، فالمهم أن يقوم الانسان بأعماله على أساس الاخلاص لله، وإذا علم أن ذات العمل سيتجسد غداً أمامه وأمام الجميع، فسيأخذ حذره من أن يخدع الناس بأعماله.

من المحتمل أن نتناول في المحاضرات الآتية مسألة أن كل انسان مسؤول بمقدار ما سعى، وسعي كل انسان سيتجلى له يوم القيامة، وان ارتباط الانسان بالعالم من نتائج أعماله، وباقي المسائل والأبعاد التي لم تسنح لها الفرصة الآن.

أسأل الله تعالى أن يوفّق الجميع للاحساس بواجبهم في فعل الخير،

---

(١) سورة الحج، الآية (٣٧).

(٢) سورة فصلت، الآية (٤٤).

فهذا من أفضل النعم والهبات.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الدرس الخامس عشر

العمل يحدد نوع ارتباط الإنسان بالخارج

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

إن القرآن الذي نزل على أساس الحكمة، منزه عن كل ألوان الخيال والشعر، كل مضامين القرآن مصبوبة في قالب الحكمة والحق والبرهان. ولا تمثل التشابيه الشعرية أي حكم من أحكام القرآن الكريم.

ذكرنا في المحاضرة الماضية أن إحدى الأصول القرآنية هي أن أعمال أي انسان من البشر لا تمحى أبداً بل تثبت في العالم، ولأنها لا تفنى بل تبقى موجودة في العالم لا بد أن ترتبط بمكان ما أو بشيء ما وتؤثر فيه. لأن الموجود لا يمكن أن يكون غريباً على عالم الوجود وأن لا يرتبط بشيء معين وأن لا يؤثر في شيء ولا يتأثر بشيء... الخ.

ولأن العمل موجود ومرتبط بمكان معين بلا شك، فان القرآن يحدد هذا الارتباط في سورة الاسراء وهو أن العمل يتعلق بصاحب العمل ولا

يفترق عنه أبداً، وبما أن الانسان مرتبط بهذا العمل وبالعالم الخارجي بشكل لا ينفصم فإن عمله يعين أسلوب الآصرة والارتباط بالعالم الخارجي، وما يستفاده الانسان من الخارج وما يتأثر به من الخارج يتحدد عن طريق العمل، وهذا هو الأصل الرابع.

ذكرنا بعض القضايا فيما يتعلق بهذه الأصول الثلاثة في المحاضرة السابقة أما بخصوص الأصل الرابع وهو أن الانسان مرتبط بالعالم الخارجي وأن أعماله ترسم شكل ارتباطه وعلاقته هذه، فيجب أن نستمد من الآيات القرآنية ما يعيننا على طرح وشرح الموضوع بصورة أفضل. وزبدة هذا الأصل هو أن العمل إن كان حسناً استطاع الانسان بواسطته أن يحظى ببركات العالم ويكون موجوداً مباركاً بحد ذاته وإن كان سلوكه شريراً وقبيحاً فلا يحرم من بركات العالم فحسب بل لا يستطيع ان يؤثر تأثيراً ايجابياً في العالم أيضاً.

يضرب الله مثالاً على كلا النوعين. وحول قضية الانسان لو كان عمله خيراً أو الأمة والشعب لو كانت أعمالها خيراً، فسيصلهم الخير والبركات من العالم فيقول **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات﴾**[1] فلو كان أهل البلدان والقرى مؤمنين من حيث العقيدة ومتّقين من حيث السلوك أي حين تكون ارواحهم طاهرة وأعمالهم حسنة ويتحلون بالحسن الفاعلي والحسن الفعلي في نفس الوقت، لفتحت عليهم بركات السماء سواء كانت بركات ظاهرية أم بركات باطنية ومعنوية، سواء كانت نعم مادية أو نعم معنوية **﴿وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾**[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

(٢) سورة لقمان، الآية (٢٠).

يهب الله المؤمنين نعماً ظاهرة وباطنة. يعيّن الايمان والتقوى وهما أفضل الأعمال، علاقة الانسان بالعالم كيف تكون، وكيف يتعامل الانسان مع هذا العالم. فتحل عليه البركات غزيرة بحيث يصبح بنفسه موجوداً مباركاً، يبعث البركة أينما حلّ، كما ذكر القرآن على لسان المسيح عليه السلام حيث قال ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾.

إنه جمّ البركة أينما كان، وباعث للبركة في أي أمر يدخله. ومسبب لخير وبركة أي عمل يقدم عليه. لأنه جعل علاقته بالعالم الخارجي حسنة الى درجة أن لا يصيبه من هذا العالم الا الخير وهو بدوره لا يؤثر في العالم الا خيراً. وحتى حين تحلّ به الحوادث الجليلة والبلايا المستصعبة فانه يتلقاها باعتبارها خيراً ويجتاز امتحانها بنجاح فيكون ذلك الحادث الجلل سبباً في سموّه ورفعته. وكذلك لو كانت أعمال الانسان قبيحة وشائنة فستشين علاقته وارتباطه بالعالم الخارجي، فلا يصل العالم خير منه ولا يصله خير من العالم.

يقول القرآن عن النوع الأول وهم الذين يعملون الخير فتظهر آثار أعمالهم الخيّرة في العالم ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾[1] أي لو ساروا على الضراط المستقيم ولم يفكّروا تفكيراً منحرفاً ولم يكن ثمة اعوجاج في أقوالهم وسلوكهم واتّبعوا القرآن المصون من أي اعوجاج ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾[2] لهطلت أمطار الرحمة بمحلها ونزلت ملائكة الرحمة في وقتها. فالأمطار تهطل لتضمن البركات المادية والطبيعية، وملائكة العلم والحكمة تنزل على قلوبهم لتوفر لهم البركات

---

(١) سورة الجن، الآية (١٦).
(٢) سورة الكهف. الآية (١).

المعنوية.

﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ فلو استقام المؤمنون على طريق الحق بايمانهم ولم ينحرفوا عنه **﴿لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾** فنبارك اسم في الأرض وتنبجس حولهم العيون والآبار ماء وتخضر الأرض بماء الأمطار والغيوم، وينعمون بالمياه العذبة سواء من السماء أو من الأرض.

إن كان الله قد قال في الآية السابقة **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات﴾** فهو هنا يصرح أنهم لو استقاموا لأسقيناهم ماء غدقاً. إن كان ساقي الأمة إله تلك الأمة فانه لن يتركها ظمأى أبداً بل يسقي مزارعها ومراتعها جميعاً سواء بالأمطار أو بالعيون والآبار.

هذه نعم ظاهرية، وان كان ما تتفتّق عنه الأرض قد نزل من السماء **﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾**(1) فهذا النزول هو الرزق السماوي وله بحثه الخاص الذي يقرر أن كل ما في العالم هو نازل ومتنزّل.

هذا هو الرزق الظاهري الذي يصيب الانسان، جراء حسن ارتباط الانسان بالعالم، وقد عيّن الله الرزق المعنوي فقال: **﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾**(2) فالذين قالوا الله، وكان الله منطقهم وثبتوا على هذا المنطق، أي كان الله كلامهم واستقاموا على هذا الكلام، فلم يبدّلوا في كلامهم ولم يتغيروا عن استقامتهم، بل قالوا وعملوا بقولهم وآمنوا وأصرّوا على إيمانهم **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾**(3) إن هذه العقيدة والاستقامة تعيّن بدقة نوعية ارتباط الانسان بعالم الغيب، تتنزل

---

(1) سورة الذاريات، الآية (٢٢).
(2) سورة فصلت، الآية (٣٠).
(3) سورة فصلت، الآية (٣٠).

الملائكة على الانسان المستقيم وتبشّره بألاّ يحزن ولا يخاف ﴿ألاّ تخافوا ولا تحزنوا﴾.

إذن فالعمل يرسم حدود علاقة الانسان بالعالم الخارجي. وإن أراد المرء أن يحظى بالبركات المادية فان لأعماله الصالحة دور في ذلك. وان أراد أن يحظى بالبركات الغيبية والمعنوية فإن لأعماله الصالحة دور في ذلك أيضاً.

يتحدد أسلوب علاقة الانسان بالعالم على ضوء عمله، وللحكيم المتألّه ابن سينا كلام في إلهيات الشفاء مضمونه بقليل من الاختلاف عن الأصل أن الذي لا يستطيع تفسير وتبرير صلاة الاستسقاء ولا يستطيع أن يبني هذا الأمر الإلهي على أسس فلسفية فينكر هذا العمل العبادي، فانه متفلسف ومتشبّه بالفلسفة وليس فيلسوفاً، يقول «دع هؤلاء المتشبهة بالفلاسفة» فالفيلسوف من يستطيع أن يبرهن على صلاة الاستسقاء الواردة في الدين[1].

إن الذي يقول: ما علاقة الصلاة بنزول المطر؟ إنسان متفلسف وشبيه بمن لهم أفكار فلسفية. والذي لا يتمكن أن يفسر هذه المسألة الدينية بالأصول الاستدلالية فهو ليس حكيماً ولا فيلسوفاً قط. حين يبيّن القرآن أسلوب التعامل مع المصائب الجسام ويقول ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾[2] فهذا يدل على أن للصلاة وكذلك للصبر وهما من الممارسات الاسلامية والانسانية البارزة دور رئيسي في تنظيم علاقة الانسان بالعالم الخارجي.

(١) هي صلاة طلب نزول المطر في مواسم الجفاف.
(٢) سورة البقرة، الآية (٤٥).

وعلى هذا الأساس، إذا أردنا أن تتنزل علينا الملائكة في الدنيا وفي لحظة البرزخ وهي أهم الأحوال بالنسبة للانسان، وكذلك بعد البرزخ وبعد الموت لما في تلك الأحوال من حوادث أشد وأصعب من الموت نفسه، فليس أمامنا من طريق الا العمل الصالح. اذن فالأمر بيد الانسان، واذا وجدنا ان عقبات من العالم قد سدّت طريقنا ولم ننعم بنزول ملائكة الرحمة، فهذا يعود للأعمال السوداء التي اقترفناها «يداك او كتا وفوك نفخ».

إن القرآن ومن أجل أن يهدي الانسان الى طريق السمو، شخّص له الطريق والعقبات التي تحفّ بالطريق. إذا أراد الانسان أن يسمو ويصل الى الدرجات العالية، فيصير هو درجة بحد ذاته **﴿هم درجات﴾** وليس **﴿لهم درجات﴾** فقط، فانه بحاجة الى الأعمال الصالحة لتمهد له أرضية التكامل وتعدّه له. وقد ذكرنا في المحاضرات السابقة، الآية في سورة فاطر حيث يقول **﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾**[1] إن طريق العزّة هو **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**[2].

أي أن الحقيقة الطاهرة والروح الطاهرة والعقيدة الطاهرة وهي الكلم الطيب تصعد الى الله ويساعدها في ذلك العمل الصالح **﴿والعمل الصالح يرفعه﴾** وهكذا يسمو الانسان. إذن فالعمل هو عامل التكامل وطريق رفعة البشر هو أعمالهم. وإن كان العمل سلبياً فسيؤدي الى السقوط.

إن كان الله قد قال في القرآن **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[3] فان هذا نتيجة لأعمال

---

(١) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٣) سورة الحج، الآية (٣١).

الانسان السيئة.

إن لم يكن الانسان موحداً فليس له أي أساس وملجأ فكري. سيرى العالم مضطرباً ويرى نفسه غريقاً في هذا العالم، ولا يعتقد بمنظّم لهذا العالم المنسجم ولا بقوة حاكمة في الكون يتكىءُ عليها. إن هذا الملحد يشبه شخصاً سقط في الفضاء الواسع أو تخطفته النسور في ذلك الفضاء أو أسقطه الأعصار في قعر الوادي ولم تبقَ منه باقية. إن العمل هو الذي أسقطه والشرك هو الذي قذف به في قعر الوادي.

حين يكون المنافق في الدرك الأسفل من لهيب النار فان نفاقه هو الذي أسقطه هناك **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾** فكما يسقط المشرك الى قعر هاوية الانحطاط بواسطة شركه، يسقط المنافق في الدرك الأسفل من جهنم بواسطة نفاقه. وحين يكون المؤمن عزيزاً ويجتاز طريق العزة فذلك بفضل اعتقاده الطيب وعمله الصالح **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**.

إن العمل موجود على نحو الحقيقة وله دور مهم وهو يرتفع بالروح حقاً.

يقول الامام السجاد عليه السلام في دعاء ابي حمزة الثمالي الذي يقرأ في أسحار ليالي شهر رمضان المبارك، ويعلمنا نحن أيضاً أن نسأل الله: يا إلهي «وأن الراحل إليك قريب المسافة وانك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك»[1].

يقول الشاعر في نفس هذا المعنى: أخطَ الخطوة الأولى على نفسك

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

وستكون الثانية في بلاد الحبيب.

إن الطريق الى الله قريبة جداً ولا تتجاوز الخطوتين، فالخطوة الأولى أن تضع قدمك على هواك وستكون الأخرى موضوعة في حرم الحبيب.

ويقول شاعر آخر: ليس طريق السالك بأكثر من خطوتين مع أنهما محفوفتان بالمهالك، الخطوة الأولى أن تتجاوز «الأنا» والثانية أن تكتب في صحراء الوجود.

هذه الأبيات للعارف الاسلامي الشهير الشيخ محمود الشبستري، يقول إن السير والسلوك الى الله والسفر الى الحق رغم ما يحفه من الأخطار إلّا إنه لا يزيد على الخطوتين، احداهما أن تتخلص من هويتك وأنانيتك، أي يجب أن تتجاوز عن زخارف الأنا والنحن وأهوائها وآمالها الصبيانية واضطراباتها ولغطها المترسب في عالم الامكان.

إنها هاوية سحيقة يجب ان يأخذ المرء حذره الشديد من السقوط فيها عند القفز من إحدى جهاتها الى الجهة الأخرى، لا تقولوا أنا ونحن. لقد أوصى أهل الطريق أن يختبر الانسان نفسه. وقد ذكر ذلك الغزالي في كتاب الأحياء، وجاء الفيض الكاشاني (رض) بألطف منه بأن الإنسان لو عمل الصالحات او كان يعملها فليختبر نفسه ويمتحنها لكي يعلم ان هذه الأعمال الصالحة لله أم أنها لغير الله.

يقول: إن كان شخص من أهل مدينة معينة، أو أنه قضى عمراً من الوعظ بين أناس تلك المدينة، فنصحهم وأسدى اليهم الحِكم وخطب فيهم الخطب لهدايتهم أو أنه أمَّ صلاة جمعهم وجماعتهم وقام فيهم بالنشاطات الدينية. فان أراد أن يعرف هل أن عمله لمرضاة الله أولا فلينظر إذا جاء

المدينة رجل آخر وأخذ على عاتقه إحدى هذه النشاطات فاجتمع الناس حوله وجلسوا تحت منبره وأخذوا يقتدون به. فإن لم يطرأ عليه أي تغير وقال: إن ما أردت أن أفعله وما كنت أقوم به، يمارسه الآن غيري ولا فرق في ذلك أبداً. فيتضح أنه كان يعمل لمرضاة الله. ولكن إذا قال: كم هؤلاء الناس حسنوا الاستقبال وسيئوا التوديع، تركونا بعد أن خدمناهم عمراً والتفوا حول هذا المجهول الجديد، فيتضح من هذا أنه كان يريد ذاته ولا غاية له سوى نفسه.

من الممكن في بعض الأحيان أن ينمو الدين بواسطة مثل هؤلاء الأشخاص، غير المخلصين، فيكون هذا من قبيل «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الذي لا خلاق له». من الممكن أن تؤثر كلمات الواعظ غير المتعظ في الناس. وبهذا ينتشر الدين بواسطة من لا دين له.

يقول الإمام السجاد عليه السلام ان طريق الذي يسير الى الله قريب، لأن الله قريب **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾**[1] ونردد في الأدعية أيضاً «يا قريب»، إن الله ليس قريباً فحسب بل هو أقرب إلينا من الآخرين **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾**[2] وليس الله أقرب الينا من الآخرين فحسب بل هو أقرب الينا من أوداجنا **﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾**[3] وليس الله أقرب إلينا من حبل الوريد فحسب بل هو أقرب إلينا من أنفسنا **﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾**[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٦).
(٢) سورة الواقعة، الآية (٨٥).
(٣) سورة ق، الآية (١٦).
(٤) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

وإن كان الله قريب منا إلى هذه الدرجة، فإن السير اليه قريب أيضاً وهذا ما جاء في دعاء السحر للإمام السجاد عليه السلام حين يقول «وأن الراحل إليك قريب المسافة» وكل ما في المسألة أننا يجب أن نخطو هاتين الخطوتين بصورة صحيحة، فالخطوة الأولى نضعها على ميولنا النفسية ونتجاوز هويتنا وأنانيتنا الوهمية إلى الله والخطوة الثانية نضعها في مملكة الحبيب.

يجتاز الانسان صحراء الوجود ويطويها، وإذا جاب المرء صحراء الوجود وطواها واجتازها الى بلاد الحبيب سيكون حاله كما قال الشاعر: ضع قدماً على نفسك وضع الأخرى في بلاد الحبيب.

يقول الامام السجاد عليه السلام إلهي إنك قريب ولذا فليس المسير إليك ببعيد ولأنك نور فلا يحجبك حجاب. ليس لله ستار غير جلاله، إذن فالطريق ليس ببعيد وإن لم يوفق انسان للوصول فذلك بسبب الحجب التي تلفه هو وعمله هو الحجاب الذي منعه من السير اليك «وأنك لا تحتجب عن خلقك». فأنت لست محجوباً.

ليس للجمال من ستار الا الجلال، ليس على هذا الوجه نقاب ولا على هذا العقل جلد.

لا حجاب على ﴿نور السماوات والأرض﴾. إن كان الله منيراً لكل الحقائق ونوراً لكل السماوات والأرضين وكان الوجود كله قائماً بالله، إذن فليس على الله من حجاب. وإن كان ثمة نقص فمنا. يقول الامام السجاد عليه السلام إن عمل الانسان هو الحجاب الذي يمنعه من المسير والنظر «إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك». العمل يمنع الانسان من السير ويمنعه من الرؤية ويوثق قدميه وينصب الظلام أمام عينيه، إنه يسلب العين نورها

والأرجل قوتها والعقل أفكاره.

ومن هنا يقول القرآن الكريم ﴿**صم بكم عمي**﴾[1] . إنه العمل الذي يقعد الانسان عن السير والنظر، إنه العمل الذي يسلب الانسان القدرة على السماع أو الكلام. إنه العمل الذي يجعل العلاقة سوداء بين الانسان والعالم الخارجي. وهو ان لم يبصر النور عثر وسقط وإن لم يشخّص الصديق وقع في شراك الأعداء. لقد عرّف الله نفسه قريباً وحبيباً للبشر، فان لم يروا هذا الحبيب القريب وقعوا في شراك الأعداء، لأن الأعداء يتصيدون البشر على حين غرّة.

وليس هذا في القرآن الكريم فقط، بل هو منطق ابراهيم خليل الله عليه السلام وموسى كليم الله عليه السلام أيضاً، حيث العمل حي وسيرى الانسان أصل ذلك العمل.

يروي القرآن هذه المسألة في سورة النجم فيقول ﴿**أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وابراهيم الذي وفى**﴾[2] أفلم يعلم هؤلاء بما جاء به ابراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى المسيح الذي صدّق ما جاء به موسى الكليم، وهو ﴿**ألّا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان الا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى**﴾[3] .

لن يحمل حمّالٌ ذنوب غيره في يوم القيامة. لأن الحمل الثقيل لا يتحمله الّا صاحبه. وليس هنالك من يساعد الانسان في حمل أعبائه. كلام الرسل الإلهيين هو أن الانسان لا يجازى الا بما عمل ﴿**وأن سعيه سوف**

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨).
(٢) سورة النجم، الآية (٣٦و٣٧).
(٣) سورة النجم، الآية (٣٨و٣٩و٤٠).

يرى﴾.

﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلىٰ ربك المنتهى﴾[1] إن مجرد أن يرى الانسان أعماله يعدّ جزاءً له عليها فضلاً عن ثواب الأعمال الذي سيراه والذي يمثل بحد ذاته جزاءً آخر لها. سوف تتجسد وتتجسم الأعمال وإن هذه الأعمال المتجسدة هي بحد ذاتها ثواب أو عقاب. أما الجنة والنار فإنهما ثواب وعقاب من جانب آخر وبتعبير العلامة الطباطبائي فان هذا جزاء الى جانب ذلك الجزاء، وجزاء فوق ذلك الجزاء.

لقد مرت بنا في هذا البحث وهو أن العمل يعيّن نوعية ارتباط الانسان بالعالم، مرت بنا شواهد على استنزال البركة والرقي سواء كان ظاهرياً أو باطنياً وكذلك على الشقاء والسقوط سواء كان ظاهرياً أو باطنياً.

وحين القول أن كل انسان يرى عمله بالاضافة الى نيله جزاء ذلك العمل فيجب الالتفات الى أن للعمل دور أساسي في الجزاء. يقول القرآن ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾[2] أو ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[3].

إن الانتقام الذي يأخذه الله من المجرم والمفسد، ليس انتقاماً شخصياً بل إن العمل الفاسد للمجرم يمهد الأرضية لانتقام الله. فكيف يتم هذا الانتقام؟ اذ الانتقام يمكن تفسيره بأربعة أنحاء:

الأول: الانتقام العاطفي والشخصي بقصد التشفي وإرضاء النفس،

---

(١) سورة النجم، الآية (٤١و٤٢).
(٢) سورة السجدة، الآية (٢٢).
(٣) سورة الروم، الآية (٤٧).

كما ينتقم المظلوم من الظالم أو المضروب من ضاربه.

الثاني: الانتقام الذي تأخذه المحكمة الجنائية من المجرم بقصد الحفاظ على النظم الاجتماعية. فقد يصدر القاضي حكماً بالانتقام من أجل ارساء النظام وليس من أجل التشفي الشخصي، إذن فانتقام القاضي يختلف عن الانتقام الشخصي.

الثالث: الانتقام الذي يعمل به الطبيب من المريض غير المحتمي. فإذا لم يعمل المريض بأوامر الطبيب ولم يحتم ومزّق الوصفة الطبية، سوف ينتقم الطبيب إن انتقامه هنا ليس بغرض التشفي ولا هو من قبيل انتقام المحاكم القضائية. بل إن عدم حمية المريض سببت له المزيد من المرض والآلام.

الرابع: انتقام أعلى من انتقام الطبيب من المريض غير المحتم. ففي انتقام الطبيب، يكون للعمل تبعات تظهر تدريجياً وتسبب للانسان الآلام. أما في النوع الرابع من الانتقام فإن العمل ذاته وبسبب سلبيته يكون مؤلماً ومحرقاً، يقول القرآن الكريم: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**[1].

ليس هذا كانتقام الطبيب أو القاضي أو المظلوم، وليس هو من سنخ التشفي. إن لله حدوداً في القرآن لتنظيم أمور الأمة وله عقوبات تنبع من أصل العمل، له جهنم يدخلها الانسان المسيء. فالنوع الرابع من الانتقام هو أن يكون ذات العمل محرقاً ومؤلماً **﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾** أو **﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾**.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠).

نأمل أن تحيي المعارف القرآنية هذه الأصول في أفئدتنا والأصول هي أن أعمالنا حية ولها علاقة بنا. فنحاول أن يكون العمل رهيناً بنا لا أن نكون رهن العمل ونسعى أن نستنزل البركات الظاهرية والملائكة المعنوية عن طريق الايمان والاستقامة. فنصل الى حيث نقول ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾[1] ببركة القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام. أنار الله هذه القلوب بنور القرآن الكريم وأحاديث المعصومين.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة مريم، الآية (٣١).

الدرس السادس عشر

العالم يسبح بحمد خالقه

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

مثلما يعتبر القرآن الكريم جميع الموجودات الممكنة والمحدودة، مخلوقة. فانه يرى أن جميع المخلوقات الإلهية مسبّحة بحمد الحق ويعتقد أن ليس ثمة موجود في العالم لا يقدس الله وينزّهه عن كل نقص وعيب. نجد هذا المعنى مذكوراً في القرآن الكريم بشكل فعلٍ ماضٍ أحياناً أو فعل مضارع أحياناً أخرى، وأحياناً على شكل مصدر.

يقول تارة: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾[1] كما جاء في سورة الصف وسورة الحشر، ففي مثل هذه السور عبّر بالفعل الماضي عن أن جميع ما في السماوات والأرض يسبّح لله. وتارة يعبر عن هذا المعنى بالفعل المضارع كما في سورة الجمعة حيث قال: ﴿يسبح لله ما في

(١) سورة الحشر والصف، الآية (١).

السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾[1] وكذلك في سورة التغابن حيث جاء التعبير بالفعل المضارع. وأحياناً يعبر بالمصدر من أجل الاشارة الى تنزيه الحق (الله) من قبيل ما جاء في سورة الاسراء حيث قال **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾**[2] . وربما جاء التعبير عن نزاهة الله بكلمة القدوس، على غرار **﴿الملك القدوس﴾** في سورة الجمعة، أي أنه نزيه عن كل عيب وطاهر من كل نقص الى حد كونه قدوساً.

ومع ان صفة السبّوح لم تستعمل في القرآن الكريم الا أن صفة القدوس جاءت في عدة مواضع منه. فالله جليل ونزيه عن كل عيب ونقص وجميع ما في عالم الخلقة من موجودات ينزّه الله عن العيب والنقص. حين يريد القرآن أن يتحدث عن مجموع نظام الخلقة فانه يقول **﴿السماوات والأرض﴾** ويريد بذلك مجموع نظام الخلقة وأحياناً يضيف كلمات **﴿ما في السماوات﴾** أو **﴿من في السماوات﴾** لكيلا يستثنى شيء من هذا القانون. هذه هي لغة القرآن الكريم.

إن السر في ذكر تسبيح الله أوائل بعض السور أن الله يستنفر الناس في تلك السور ويطلب اليهم أن ينصروا دين الله أو ينصروا الله أو يقرضوا الله قرضاً حسناً وما شابه ذلك. وقد تدفع مثل الأمور الى التوهم القائل بحاجة الله الى مساعدة الناس. أو حاجته الى نصرة الناس لدينه.

فمن أجل أن لا يحصل هذا التوهم ويتضح أن الناس وما لهم من أنحاء التوفيق وما يمتلكون من القوة والسعي، يستمدون نعمة الوجود من الله المنزه عن الحاجة الى العباد. من أجل هذا جاء تسبيح الله في بدايات تلك

---

(١) سورة الجمعة، الآية (١).

(٢) سورة الاسراء، الآية (١).

السور، فكل الموجودات تسبّح بحمد الله تعالى.

فمثلاً يقول في سورة التغابن **﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾**[1] وربما أوجد هذا التعبير توهماً باطلاً بحاجة الله في الأذهان، لهذا قال في بداية السورة **﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾**[2].

وكذلك قال في سورة الصف: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾**[3] وهي تشبه الآية **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾**[4] فقد توجد هذه التعابير توهم احتياج الله في الأذهان فيتصور البعض أن الله بحاجة الى مساعدة الآخرين. فقال في صدر الآية **﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾**.

وقال كذلك في سورة الحديد: **﴿إن المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾**[5]. من الممكن أن يستفيد الانسان الذي لم يتمرس بالمعارف الإلهية جيداً من هذه التعبيرات أن الله محتاج اليه أو أن دين الله وكتابه السماوي بحاجة اليه. في حين أن كل ما يمتلكه الناس من قدرات فكرية وجسمية هي نعم الله عز وجل **﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾**[6] على ذلك فالله ليس بحاجة إلى أحد، ولأن الحاجة نقص والله منزه عن النقص فقد جاء في أول هذه السورة: **﴿سبح لله ما في السماوات والأرض﴾**.

---

(١) سورة التغابن، الآية (١٧).
(٢) سورة التغابن، الآية (١).
(٣) سورة الصف، الآية (١٤).
(٤) سورة محمد، الآية (٧).
(٥) سورة الحديد، الآية (١٨).
(٦) سورة النحل، الآية (٥٣).

إن السر في أن جميع موجودات السماوات والأرض تنزّه الله عن العيب والنقص هو أن جميع الموجودات ناقصة وهي عارفة بنقصها، ومن أجل التعويض عن نقصها يجب أن تستند إلى وجود خال من النقص فتعتقد بنزاهة هذا الوجود المحض من كل عيب ونقص فتعوّض عن عيوبها ونواقصها بواسطة الاعتماد والاتكاء عليه، لهذا كان تسبيحهم مصحوباً بالحمد ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾[1] أي أنهم بالاضافة الى تنزيه الله من النقص، يسدون عيوبهم ونواقصهم بواسطة فيض الله الكامل.

لهذا فحين يصلهم فيض من الله، يسبحون الله ويقدسونه مع الحمد له والثناء عليه. فكل الموجودات تسبح الله مع الحمد له ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾.

والقضية الأخرى التي يجب ان تثبت من وجهة نظر القرآن هي الشعور العام اللازم للتسبيح العام من عامة المخلوقات، فبغير الوعي والادراك لا يمكن التسبيح. ومع أن القرآن يحتوي سوراً تبتدىء بالتسبيح لله وتسمى بالمسبّحات، وقد جاء في موسوعاتنا الروائية أن الرسول الأكرم ﷺ كان يتلو هذه المسبحات قبل نومه، ولكن أجمع وأكمل الآيات التسبيحية بمعنى أنها تحتوي كل ما في بقية آيات التسبيح وأكثر، هي آية سورة الاسراء.

عندما تطرح قضية التوحيد في سورة الاسراء وأن الله منزه عن الشريك يأتي بعد ذلك ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[2].

---

(١) سورة الزمر، الآية (٧٥).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٤٤).

وحين نرى كلمة (مَنْ) في العبارة (ومَنْ فيهن) فلا نتوهم أن العبارة لا تشمل الجمادات. لأن الله عبّر في مواضع كثيرة بـ﴿مَا﴾ ﴿سبّح لله ما في السماوات والأرض﴾ مما يشمل الموجودات غير ذوات الروح «غير العاقلة» أيضاً.

والسر في استخدام كلمة ﴿مَنْ﴾ هو أن التسبيح عمل عقلائي، وهذا العمل العقلائي شامل وجامع لكل سلسلة عالم الوجود، فالكل يسبّح. إذن فالجميع عقلاء بهذا اللحاظ. فضلاً عن أن الجزء التالي من الآية لا يفيد الحصر أبداً ﴿وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده﴾ فليس ثمة شيء سواء كان في السماوات أو الأرض أو كان ذا روح أو غير ذي روح وسواء كان نبات أو غير ذلك، إلّا ويسبح لله، وذلك أيضاً مع الحمد والثناء على الحق. فليس تسبيحاً مجرداً، وهذا المقطع القرآني يدل على التسبيح العام [من جميع المخلوقات]. ومع حصر أن التسبيح مقرون بالحمد. وهذه الآية من أكمل وأشمل الآيات والمقاطع القرآنية.

قال الله في خصوص التسبيح، ليس من شيء إلّا ويسبّح الله بالحمد الذي يأتيه. بمعنى أن كل الموجودات عارفة بنقصها وعيوبها ولاجئة الى موجود منزه عن العيب والنقص، والكمال يلحق هذه الموجودات بواسطة ذلك الموجود النزيه عن العيب والنقص. وبما أنهم يعتقدون بجلال ذلك المبدأ الوجودي عن النقصان والعيوب تراهم يعتمدون عليه ويسبحونه. ولأنهم يستمدون الفيض منه فانهم يصحبون تسبيحهم له بالحمد والثناء ﴿وان من شيء الّا يسبح بحمده﴾. عليه فالكل مسبّح وحامد.

إن كل الموجودات الممكنة تأخذ على عاتقها حمد الله سبحانه

وتسبيحه، فليس بني آدم وحدهم المسبحون لله، بل إن جميع الموجودات تتولى تسبيح الحق وحمده.

في بعض الأحيان ترد أسماء موجودات خاصة تسبح الله، كما قال الله في سورة الرعد: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾[1].

فالظواهر المادية تسبح الحق (الله)، وكذلك الموجودات المجردة. وأحياناً يرد ذكر الطيور بشكل خاص على أنها تسبح الله تعالى، فقد جاء في سورة النور: ﴿ألم ترَ أن الله يسبح له مَن في السماوات والأرض والطيرُ صافاتٍ كل قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه﴾[2] ففي هذه الآية يخاطب الله رسوله ويقول له ان المسألة (التسبيح) بيّنة وواضحة بحيث تمكن رؤيتها ومشاهدتها.

إن الطيور حين تطير في الفضاء بدون أن تخفق أجنحتها وهي أروع حالة تكون فيها، فانها تسبح بحمد الله. ويتخذ القرآن من طيران الطيور حجة فيتساءل عمن يستطيع أن يحمل هذه الأجسام الثقيلة في الهواء، إلاّ الله. فقد وهب الله هذه الطيور ارادة قوة تتغلب بها على الجاذبية الأرضية فتنطلق بحرية الى الأعالي وتحلّق في صدر الفضاء المفتوح.

يقول ان الطيور حين لا تخفق بأجنحتها وتتحرك في الفضاء المفتوح فانها في هذه الحالة تسبح للحق، مع انها تسبحه في جميع الحالات، ولكن هذه الحالة أعجب ولهذا يخصها بالذكر. ثم يقول إن لهم صلاتهم وتسبيحهم، وكل هذه الموجودات عالمة بصلاتها وتسبيحها، وهذا ما يجب

---

(١) سورة الرعد، الآية (١٣).

(٢) سورة النور، الآية (٤١).

أن نتناوله لاحقاً.

وهنالك أشياء أخرى خصها الله بالذكر أحياناً كونها تسبح الله وتنزهه عن كل نقص وعيب. فقد قال في سورة ص: **﴿إنّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والأشراق * والطير محشورة كل له أوّاب﴾**[1].

والخلاصة أن الصخرة إذا كانت صلدة والجبال شامخة فهي مسبحة للحق وإن كان الرعد المزمجز وسط السماء فهو مسبح للحق وإن حلّق الطير في الفضاء فهو مسبح للحق وإن كانت الملائكة مجردة فهي مسبحة للحق، فالسماوات والأرض وما فيهن مسبحات للحق. والآية التي تجمع كل هذه الموارد داخلها هي الآية في سورة الاسراء **﴿وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده﴾** فالقرآن صريح في هذا الباب.

وعماد البحث هو تصوير التسبيح وتصوير كيفية تسبيح الموجودات، وتقديسهم لله. فهل معنى تسبيح الموجودات أنه لو قام مفكر أو عالم بدراسة كل واحد من الموجودات لشاهد أنها ناقصة ومحتاجة إلى مبدأ غني ومنزه من النقص؟ أم أن معنى التسبيح هو أنه لو قام شخص بدراسة الموجودات، لتوصل الى الله المنزه عن كل عيب ونقص؟ والذي هو بالطبع معنى كونها آيات لله لا معنى كونها مسبحة له.

يرى القرآن أن جميع الموجودات آيات إلهية وعلامات لله. فهذه العلامة كافية للخبير بالعلامات ان كان دقيقاً لتهديه الى ذلك المجهول. كل آيات عالم الخلقة آيات لذلك المجهول. وهذا المعنى سهل الادراك بالنسبة للكثيرين ولهذا يسمون الموجودات بالآيات الإلهية. ولكن القرآن يقول،

---

(١) سورة ص، الآية (١٨و١٩).

إنكم لا تفقهون تسبيحهم فيتضح أن تسبيحهم شيء وكونهم آيات وعلامات شيء آخر.

يقول الله في سورة الاسراء أن ليس ثمة شيء الا ويسبح بحمد ربه، ولكنكم لا تفقهون تسبيحهم ولا تدركون كيف يسبحون؟ إن كان معنى تسبيحهم هو كونهم آيات فهو معنى بسيط ودركه يسير. وقد أراد البعض أن يقرأ الآية «ولكن لا يفقهون تسبيحهم» وحسب هذه القراءة يكون معنى الآية أن جميع الأشياء تسبح الله ولكنها لا تعلمُ بذلك. وهذا ليس صحيحاً فالكثير من هذه الموجودات المسبحة تعلم بنفسها وبتسبيحها.

ولأن القرآن الكريم قد قال في سورة الاسراء: **﴿وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾** فقد قال في بداية الآية: **﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن﴾** فليس من شيء إلاّ ويسبح الله مع الحمد له. وإذا قلنا «ولكن لا يفقهون تسبيحهم» فهذا يستلزم أن نستثني الكثير منهم، لأن الملائكة يفقهون تسبيحهم وكذلك البشر وحتى الموجودات ذوات الشعور والادراك ولو كان مستواها حيوانيا تعلم بما تعمل في حدود حياتها الحيوانية.

وعلاوة على هذا فقد جاء في سورة النور **﴿ألم ترَ أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علِم صلاته وتسبيحه﴾**[1] أي أن جميع الموجودات السماوية والأرضية والطيور عالمة بتضرعها ودعائها وصلاتها وتسبيحها، وعلى بصيرة بما تعمل، لها علم واطلاع بهذا العمل وتفهم لمن تخضع وتدري أنها تسبح وتقدس **﴿كل قد علم صلاته**

---

(١) سورة النور، الآية (٤١).

وتسبيحه﴾.

اراد البعض ان يقول ان ضمير كلمة ﴿علم﴾ يعود الى الله، أي أن الله هو الذي علم بصلاة وتسبيح كل الموجودات. وهذا لا يتفق مع باقي الجملات فقد جاء في الجملة اللاحقة ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ مما يرفع الحاجة لأن يقول الله قبل هذه الجملة أنه (أي الله) عليم بصلاتهم وتسبيحهم ثم يكرر ﴿والله عليم بما يفعلون﴾. من هنا يجب أن يعود ضمير «عَلِمَ» على «كُلٌّ» فيكون المعنى أن كل الموجودات المسبحة بحمدالله والخاضعة والخاشعة لإرادة الله، عالمة بخضوعها وخشوعها وتسبيحها وتقديسها هذا وتفهم ما تعمل، إذن فالتعبير الصحيح هو ﴿لا تفقهون تسبيحهم﴾ وليس «لا يفقهون تسبيحهم».

إنكم لا تعلمون ما يقولون، وإلاّ فالعالم مليء بالتسبيح. السماوات والأرض ملأى بالثناء على الله، ولكنكم لا تجيدون لغة الآخرين. إنكم تستطيعون أن تفهموا لغات بعضكم في حدود معينة ولا علم لكم بلغات السماء والأرض والمعادن والرعد والبرق والنبات والسهول وما شاكل، لكل هذه الموجودات كلامها وهي مسبحة بحمدالله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

هناك آيات في القرآن ذات أهمية خاصة في تثبيت هذا المعنى وهو أن لكل الموجودات ادراك وشعور وفهم لما يفعلون ولمن يخضعون ويخشعون. احدى هذه الآيات هي آية سورة النور التي مرت بنا ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾.

وفي سورة فصّلت يطرح الله مسألة النطق الشامل، فحين يحضر

المجرمون يوم القيامة ولأن أصل العمل سيحضر هناك كما أوضحنا في المحاضرات السابقة، سوف تشهد الأعضاء والجوارح التي ارتكب بها المجرمون معاصيهم عليهم ﴿حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾[1] فرغم أن الحاجة للشهادة مرتفعة يوم القيامة وإزاء المحكمة الإلهية الا أن الجوارح والأعضاء تشهد على الانسان.

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «اتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم»[2] إن الله الذي يشهد اليوم وينظر ما نصنع هو الحاكم والقاضي غداً في محكمة العدل الإلهية. فلا تتوهموا أن المكان خالٍ ولا أحد هناك بل إن القاضي حاضر معكم.

إن هذا المعنى الذي يشير اليه الامام أمير المؤمنين عليه السلام له أعل في سورة يونس ﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾[3] يخاطب الله رسوله الأكرم أولاً ثم يخاطب الجميع أنه لا تعملون من عمل أو تقرأون القرآن إلاّ ونعلم بذلك منذ بداية إقدامكم على العمل ونشهد عليه ونحضره. فالله وجنوده حاضرون.

لم يقل الله انني حاضر وحدي، بل عبّر بضمير المتكلم مع الجماعة لأن مدبرات الأمر حاضرة أيضاً وجنود الله حاضرون لذا جاء التعبير بضمير المتكلم مع الجماعة. أما الأفعال والصفات التي تخص الله وحده فيعبر عنها بصيغة المتكلم المفرد ﴿لا إله إلاّ أنا

---

(١) سورة فصلت، الآية (٢٠).
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣١٦.
(٣) سورة يونس، الآية (٦١).

فاعبدني﴾[1] وأمثال هذا، وقد يستلزم التعظيم والتفخيم أن تكون الصيغة بضمير المتكلم مع الجماعة. ولكن السر المهم في التعبير السالف هو ما ذكرنا.

يقول: لا تقدمون على عمل الاّ ونحن حاضرون. فليس الله والملائكة حاضرون لوحدهم بل إن ساحة العمل حاضرة أيضاً، وسيشهد السمع والبصر والجلد والجوارح على الانسان.

وورد في آيات أخرى أن الفم سيختم عليه لتشهد الأطراف على الانسان ﴿**اليوم نختم على افواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**﴾[2] فعلاوة على شهادة الله ستشهد جميع الأعضاء والجوارح على الانسان.

إن النقطة المهمة في شهادة الأعضاء والجوارح ان الانسان حين يقترف ذنباً بيده أو يذهب الى مكان محرم برجله، أو يعصي بوجهه أو يتلوّث جسمه فإن اليد والرجل والأذن والعين والجوارح والجلد بريئة من الذنب وليست هي العاصية، بل إن الروح هي التي تقترف الذنوب، الانسان هو الذي يقترف الذنوب والجوارح مجرد آلات.

إن الذي يخون بيديه، لا تعتبر يديه خائنة بل هو الخائن، لهذا قال القرآن أن يده تشهد عليه لا أن اليد تعترف بذنبها، فلو كان الذنب لليد، لجاء التعبير عن كلام اليد بأن اليد تعترف وليس تشهد. فمن القول أن الأعضاء والجوارح تشهد، يتضح أن الانسان هو المتهم وليس الأعضاء والجسد.

---

(١) سورة طه، الآية (١٤).
(٢) سورة يس، الآية (٦٥).

المتهم هو الروح وليست اليد والقدم والعين والأذن. المتهم هو الانسان وليس جسم الانسان. وإن جاء في بعض المواضع من القرآن الكريم أن الجوارح تشهد على أنفسها ﴿**شهدنا على أنفسنا**﴾[1] فهذا يشير الى التعدد وهو إلى الاعتراف أقرب منه الى الشهادة.

وعلى كل حال يقول الله عز وجل أن الآذان والأعين والجلود التي كانت واسطة وآلة للذنوب وسببت تلوّث أصحابها عن طريق بعض اللذات الحاصلة للسمع والبصر والجلد. ستشهد على أرواح المفسدين. وعند ذلك سيعترض المجرمون الذين شاهدوا شهادة الأعضاء والجوارح ضدهم سيعترضون على هذه الأيادي والأرجل والجلود أن لماذا شهدتم علينا؟ ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا**﴾[2] ؟.

﴿**قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾[3] . يتبيّن من هذا أن لجميع الموجودات كلامهم الخاص. وإذا كان للماء والتراب والطين منطقهم، فهم يحتاجون لأحد من ذوي الحال والمعرفة لكي يفهموا هذا المنطق. فيتضح ان لجميع الأشياء ادراكها ولغتها وفهمها ﴿**قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾.

إذن حين يقول القرآن أن هذه الجوارح ستشهد فليس معنى هذا أن الله سيمنحهم العلم يوم القيامة، لأن الشهادة لا تصح الا إذا كان الشاهد حاضراً في الساحة وناظراً للحادثة أو الواقعة المعنية فيسجلها ويدركها ويحملها ليستطيع أن يدلي بما شاهد وسجّل في المحكمة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٣٠).
(٢) سورة فصلت، الآية (٢١).
(٣) سورة فصلت، الآية (٢١).

إذا كان الله هو الذي يهبهم العلم يوم القيامة بدون أن يكونوا مطلعين وعالمين في الدنيا فلن تكون شهادتهم صحيحة ومسموعة وفي هذه الحالة يحق للعبد أن يعترض على مولاه أنك أنت الذي أطلعتهم على هذا والا فهم لم يكونوا مطلعين عليه ليشهدوا. إن ذلك اليوم (يوم القيامة) يوم الحجة والحق.

عليه فجميع الموجودات في الدنيا تفهم شيئاً ما وتشهد يوم القيامة بما رأت وكلها تستطيع الكلام. وكل ما في الأمر أنه لو كان داود النبي عليه السلام حاضراً لسمع ما تقول. ولو كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي تسبّح الأحجار في يده المباركة لسمعها. ولو كان اعجاز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم موجودا لكشف الغطاء عن اذن الغافل ليستطيع بدوره أن يسمع تسبيح الأحجار وما شابه.

وفقاً للأصول القرآنية ثمة شعور عام في كل العالم وليس هناك موجود عديم الفهم والادراك. الجميع يفهم الاّ إننا لا نفقه تسبيحهم **﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾** البعض لا هو يفهم أن الموجودات تسبح ولا هو يفهم تسبيحها، والبعض يفهم أن الموجودات تسبح ولكنه لا يفهم ما تسبح وما تقول، فهو لا يجيد لغة بقية الموجودات. أما الأنبياء والأولياء وكبار المؤمنين فيفهمون أن الموجودات تسبح الحق ويفقهون لغتهم فيفهمون ما يقولون.

المتوسطون من البشر ومن أهل المعرفة يعلمون أن الموجودات تسبح بمحمد الحق ولكنهم غير مطلعين على لغتهم، أما الأشخاص الأقل درجة من هؤلاء والذين لا شأن لهم بعالم المعنى والغيب والايمان والتوحيد فلا يعلمون أن العالم يسبح بحمد الله ولا يفقهون تسبيح العالم. ولو أنّ سَمْعَ

الفؤاد تفتّح عند الانسان لسمع أصوات كل الموجودات وتعلّم جميع لغاتها.

ثمة اشكال في هذا المجال يطرحه الأستاذ العلامة الطباطبائي في الميزان ويجيب عليه وهنالك طريق آخر لحل هذا الاشكال وهو أنه في عالم المجردات ما دام هنالك علم فهنالك تسبيح، أما في عالم المادة المحكوم بالحركة فلأن الوجود مبعثر وغير متصل فليس هنالك علم، لأن العلم هو حضور موجود لموجود آخر. وإن كان الموجود متغيّر ومتحرك فهو مبعثر وغير مجموع ولا حاضر وبالتالي فليس له اطلاع. يجيب العلامة الطباطبائي على هذا المعنى بأن الموجودات المتحركة، إنما هي ثابتة من حيث هي متحركة [حركتها دائمة ولا تقبل السكون فحركتها ثابتة ـ م] فهي إذن متصلة ومجموعة ولأنها مجموعة فهي حاضرة وما دامت حاضرة فتستطيع أن تتمتع بالعلم.

نتمنى أن يوفق الله الجميع لمعرفة ألسنة الموجودات.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع عشر

السبيل الى فهم تسبيح العالم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان موضوع المحاضرة السابقة حول التسبيح العام في عالم الخلقة. أي أن جميع الموجودات في عالم الخلقة مسبحة لله، سواء الملائكة السماويون أو الموجودات الأرضية، وسواء الكواكب السماوية أو النباتات الأرضية.

ما من موجود لا يسبح الحق. والقرآن الكريم يؤكد كثيراً على التسبيح العام لعالم الخلقة ويذكره ببالغ الأهمية بحيث يقول: **﴿وإنْ من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾**[1].

الفقه يعني الفهم الدقيق والادراك العميق للأشياء. فهو المستوى فوق

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٤٤).

العادي للادراك الذي يحتاج روحاً واعية ويقظة. وعلى أمثال هذا المستوى من الادراك يطلقون كلمات الفقاهة والفقه والتفقّه وما شاكل.

كان يظن المنافقون أن الأمة الاسلامية ستتخلى عن قائدها بواسطة الحصار الاقتصادي، فهددوا بالمقاطعة الاقتصادية وقالوا: **﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾**[1] .

يروي لنا القرآن الكريم هذه المؤامرة التي دبرها المنافقون ثم يقول: **﴿ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾**[2] . إنهم لا يعلمون أن جميع الخزائن السماوية والأرضية تعتمد على إرادة الله، وإرادة الحق نافذة على كل الارادات، إنهم لا يدركون هذه المعارف العميقة، وهي:

أولاً: ثمة خزائن للسماوات والأرض تستمد منها السماوات والأرض **﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه﴾**[3] .

ثانياً: إن خزائن كل الموجودات عند الله تعالى ولا تطالها يد أحد من الناس لأنه لا سبيل لشخص إليها.

ثالثاً: إن الإرادة النافذة في كل السماوات والأرض وفي كل الخزائن السماوية والأرضية، هي إرادة الله، وهذه الإرادة الفولاذية غير قابلة للاختراق أو الانكسار.

فإذا كانت خزائن السماوات والأرض في يد الله وكانت إرادة الله هي

---

(١) سورة المنافقون، الآية (٧).
(٢) سورة المنافقون، الآية (٧).
(٣) سورة الحجر، الآية (٢١).

النافذة فماذا ستجدي مؤامرات المنافقين إن حاصروا المؤمنين اقتصادياً وضغطوا عليهم لينفضوا عن قائدهم؟ **﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾**.

الفقه لا ينسجم والنفاق. هذا النور الإلهي لا يتعايش والظلام الباطني والظلام الفكري. إذن فلا بد من صفاء الداخل لادراك هذا المعنى العميق. ولا بد من شفافية الروح لادراك هذا المعنى المتسامي ونيله. وتعبير القرآن هنا أن المنافق ليس من أهل الفقه. فهو لا يدرك هذا المعنى الدقيق. وحول التسبيح العام يقول أيضاً أن ليس ثمة شيء إلاّ ويسبح بحمد الحق ولكنكم لا تدركون هذا، وهو خطاب للمنافقين والمشركين وقصار النظر وأمثالهم.

ذكرنا في المحاضرة الماضية أن الأنبياء والأولياء فضلاً عن علمهم بتسبيح العالم لله فانهم على معرفة بلغات العالم ويفهمون ما تقول الموجودات فيه. أما المؤمنون والمتوسطون من الناس فيعلمون أن العالم يسبح الله ولكن لا علم لهم بتفاصيل لغات العالم ولا يستطيعون سماعها.

أما الكافر والمنافق فلا هو يعلم أن العالم يسبح بحمد الحق ولا هو يفهم ما يقول العالم. فليس لذيه القابلية على مثل هذا الادراك العميق. إن قلبه صلد ومغلق والقلب القاسي لا يستطيع أبداً فهم القضايا الظريفة. قلوب الكفرة والمنافقين قاسية والقساوة لا تتفق ونيل المعاني اللطيفة. يقول الله في سورة الحديد **﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾**[1].

إن المفاسد المستمرة تجعل القلب قاسياً، وكذلك الأفكار الباطلة المستمرة والقلب القاسي لا يقدر على التفاعل مع المعاني اللطيفة.

إن من ضروريات المعنى القائل بتسبيح كل الموجودات لله أن لجميع

---

(١) سورة الحديد، الآية (١٦).

الموجودات إدراك ووعي، لكي تعلم أن الله الذي هو عين الوجود والكمال المحض هو مبرء من أي نقص وعيب. وعلى أساس البحوث الفلسفية فالعلم والادراك هو حضور شيء عند شيء آخر، والحضور لا ينسجم والمادة (لأن الموجود المادي في معرض الحركة والتحول دائماً، والمتحرك ينفصل ماضيه عن مستقبله ولا يعلم حاضره بماضيه ولا مستقبله. وهو شيء مشتت وغير متصل، إذن فهو غير حاضر بالنسبة لنفسه فكيف يكون حاضراً للغير) على ذلك فالعلم لا ينضوي في دائرة المادة والحركة.

هناك عدة إجابات في الرد على هذا الاشكال. الجواب الأول هو ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره القيم (الميزان) وفيه انه مع إن الشيء المتصل والثابت هو الذي يستطيع الادراك والعلم وكذلك له القابلية على أن يكون معلوماً. فهو الذي يصاحب الحضور والعلم، ولكن ثمة ثبات خاص في عالم الطبيعة والمادة والحركة، يمكن على أساسه أن نجد الحضور والاتصال (الموجود المتصل هو الموجود الذي يشكل وحدة واحدة متصلة الأطراف أو ما يسمى بالخليط المتجانس ـ م) ولأن اتصال الموجود يبعث على حضوره، إذن يمكن بهذا الترتيب اثبات العلم الذي هو نفس الحضور.

إن الحركة والتحول أمور ثابتة في الموجودات المادية، أي من غير الممكن أن تحصل الحركة في عالم الطبيعة والمادة تارة ولا تحصل تارة أخرى وأن يكون الموجود المادي متحركاً طوراً وغير متحرك طوراً آخر. لأن الحركة راسخة في أصل وجود الأشياء لا في ماهيتها. وإن كانت الحركة نافذة الى عين وجودهم لا في خارج هذا الوجود، فمن غير الممكن أن يتحركوا حيناً ويسكنوا حيناً آخر.

إذن هم في تحول وتغيّر دائم. وهذا التحول والتغيّر ثابت ودائم.

بمعنى أن الموجود المادي الذي هو في حركة دائمة، تكون الحركة والتحول ثابتين بالنسبة له، فهذا التحول لا يتحول الى سكون ليكون الشيء متحركاً ومتحولاً احيانا وغير متحول احياناً أخرى أو يكون ساكناً تارة وغير ساكن تارة. ليس هكذا لأن الحركة ثابتة بالنسبة لهم وبلحاظ ثبات الحركة لهم يمكن العثور على نوع من الوحدة والاتصال والحضور في عالم الطبيعة وقد علمنا أن الوحدة والاتصال علامة الادراك. فما دامت الأشياء مجموعة وثابتة وحاضرة فهي عالمة ومعلومة. وقد كان رأي الشريف أيضاً أن الحركة الوسيطة هي التي ترى أنها حالة الثبات في عالم الطبيعة والموجود المادي.

والجواب الآخر هو أن الوجود بما هو وجود يترافق مع الحياة والشعور والادراك لأن كل موجود بلحاظ كونه موجوداً منزه عن التشتت. ومع أن وجوده محدود ومقترن بالماهية ويمثل مصداقاً لبعض المفاهيم، ولكننا بالتحليل العميق إذا فصلنا الوجود عن الماهية، لأصبح من الواضح أن الوجود بسيط وليس ثم موجود له وجود مركّب أو له أجزاء وأشتات وقابلية للقسمة.

إذا درسنا وجود الموجودات بصورة صحيحة لوجدنا أن كل موجود بلحاظ جانبه الوجودي غير قابل للتقسيم والتكيّف (التحول من كيفية الى أخرى) والتفرّق والشتات. واذا كان الموجود من حيث وجوده منزه عن نقص التشتت وعيب التفرّق إذن فهو مجموع ومتصل ولأنه متصل فهو حاضر وإذا كان حاضراً فهو واعٍ وعالم وقابل للعلم والوعي.

من هنا يعتبر شيخ الاشراق ساحة العالم الخارجي بكل ذواتها الوجودية خاضعة لعلم الله تعالى. ويرى كل الموجودات المادية والمجردة عين العلم الفعلي لله سبحانه. ومع ان صدر المتألهين يعترض على هذا

الرأي في الكثير من المواضع، ولكنه في مواضع أخرى يقول بصحته ويقبل أن عالم الوجود عالم الشعور والادراك.

لا يوجد موجود غير عالم ومدرك وواع ولو من بعض الجهات. وبهذا يمكن تفسير شهادة وشكاوى وشفاعة الموجودات على أفضل صورة. فان كان المكان يشهد يوم القيامة وان كانت الأيدي والأرجل والجوارح والأعضاء تشهد يوم القيامة فلا بد أنها تتمتع بوعي خاص في الدنيا فهي تفهم وتتحمل الحوادث لتدلي بما تحملته أمام محكمة العدل الإلهي وتشهد عليه.

إن لم تتحملها اليوم فهي لا تستطيع أن تشهد بها غداً، لهذا يقول الله في سورة فصلت أن المجرمين سيعترضون على جوارحهم التي شهدت عليهم فتجيبهم الجوارح: **﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾**[1] ولو أن الله منحهم العلم يوم القيامة لجاز للعبد أن يحتج في يوم الاحتجاج ويقول أن يا إلهي أنك أنت الذي جعلتهم مطلعين الآن والا فانهم لم يكونوا كذلك في الدنيا.

لهذا يجب القول أن الأعضاء والجوارح تدلي يوم القيامة بما اختزنته في الدنيا وهذا عصارة ما مر بنا في المحاضرة السابقة.

ماذا يجب أن نفعل من أجل أن نكون على انسجام مع عالم الطبيعة والخلقة ونستطيع فهم كلامه ويكون هو قابل للتأثّر بكلامنا؟ الجواب هو أن الجميع يسيرون على الصراط المستقيم فلا نسير بخلاف هذا الاتجاه، بل نتحرك نحو الكمال ضمن قافلة الوجود، لنفهم كلام الموجودات الأخرى وتفهم كلامنا بدورها وتعيره الأهمية اللازمة بأمر الله وإرادته.

---

(١) سورة فصلت، الآية (٢١).

لقد وضع القرآن الكريم أصولاً أمامنا يستطيع الانسان باجتيازها أن يصل تلك المراتب. وقد جئنا على بعض هذه الأصول في المحاضرة السالفة حيث يقول الله أن الجبال كانت منسجمة مع داود النبي وتسبح معه، والطيور محشورة معه وأوابة إليه. إن الطريق الى هذا المقام مفتوح أمام المؤمنين. الطريق الى الباطن وملكوت هذا العالم مفتوح للمؤمنين.

يقول الله في سورة الأنعام أننا أرينا ابراهيم الخليل عليه السلام ملكوت السماوات والأرض فاستطاع أن ينفذ الى باطن العالم ويرى الأسرار الخفية للعالم ﴿**وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض**﴾[1] ثم يخاطب الله تلامذة مدرسة ابراهيم الخليل والمؤمنين ﴿**أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض**﴾[2] إن الله يشوّق ويدعو الى النظر ويتساءل؛ لماذا لا ينظر هؤلاء في باطن العالم؟ ويتمعنوا بعيون قلوبهم في روح الكون؟ لماذا لا يهتموا بأنفسهم؟ ولماذا لا يعدوا عيناً بصيرة لساحة الروح؟ لماذا لا يسيروا نحو باطن العالم بعيون الفؤاد الثاقبة ليروا ملكوت العالم كابراهيم الخليل؟

ان لم تكن الرؤية، سيضطر الانسان ان يتهيب ويتحصن ازاء القوى والقوى العظمى، لأن الفرد المحروم من مشاهدة ملكوت العالم لا يمتلك سوى البعد المادي وسيرى نفسه ضعيفاً أمام الأبعاد المادية للآخرين.

لكنه إن طرق باطن العالم حيث تمكن مشاهدة خزائن السماوات والأرض وترتفع أصوات ونغمات وألحان وأنين كل الموجودات بالتسبيح، واستطاع أن يسمع صوت الموجودات الملكوتية ورآها جميعاً تسبح لله

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٨٥).

وتقدّسه وأن أبواب كل الخزائن مفتوحة باتجاه إرادة الله، لما خاف من أية قدرة ولما تعلق قلبه بأي شيء لعلمه أن تلك القدرة لا تدوم وهذا الشيء لا قيمة له ليتعلق به الانسان أو ليخاف منه.

وما لم يتوفر مثل هذا النظر، لا يستطيع الانسان المادي أن يتطور مهما فكّر ولا يقدر أبداً أن يقطع الطريق الذي قطعه ابراهيم الخليل. يقول القرآن الكريم ﴿**إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا**﴾[1]. كيف يمكن السير في طريق ابراهيم الخليل؟ وبأية رؤية وبصيرة يكون السير فيه؟.

كان الشعار الرسمي في زمانه عليه السلام أن ﴿**قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم**﴾[2]. قذفوا بابراهيم الى ألسنة النار بواسطة المنجنيق، فاحترقت الحبال التي أوثقوه بها وصارت رماداً، ولكن الخوف لم يتملك الخليل فذهب الى أحضان النار وأصبحت روضة له. كيف يمكن للانسان أن يقطع هذا الطريق؟ وبأية رؤية يستطيع أن يجتاز هذه المخاطر؟ بأية بصيرة يمكنه اكتشاف أن هذه النار قابلة للاطفاء والخمود.

يقول الله عز وجل ﴿**أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض**﴾ مما يدل على امكانية النفوذ الى روح العالم. إذا دخل الانسان الى ملكوت العالم سمع المسبحين في عالم الخلقة واكتشف نقصها جميعاً وكمال الله تعالى. واعتمد على الله في تحقيق هذه الحاجات. واستمد العون عند الشدائد من خزائن الله لا غيره.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٦٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٦٨).

إنه لا يزهد فيما عند الآخرين وحسب، بل لا يعوّل على ما عنده واعتماده الوحيد على خزائن الله لا ما يمتلكه هو لأنه يعلم ويرى بعين فؤاده أن ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[1] إنه يرى ما يمتلكه معرّض للزوال وما في خزائن الله، مفتاحه إرادة الله وخاضع لقدرة الله، لهذا نراه يطمئن لما عند الله لا لما في يده هو.

أمله في خزائن الله لا فيما يدخره في البنوك. إن مثل هذه الرؤية لا تجتمع أبداً مع الطمع والحرص. وحين لا يكون الطمع والحرص لا يكون الخوف والهلع وحين لا يكون الخوف والرهبة لا يكون الحرص والطمع. وعند ذلك لا تستطيع أي قوة أن تقف بوجه الرشد والكمال اللائق بالانسان. لأن جميع ما نصنعه نابع من أهوائنا وطموحاتنا الداخلية وهي التي تخيفنا وترهبنا أو تغرينا بحيلها... الخ.

إذن فالطريق مفتوح لرؤية روح وباطن العالم. وان الله لا يشجعنا على النفوذ الى روح العالم فقط، بل يؤنبنا على ذلك وعلى عدم فهم لغة الملكوتيين. ولا يمدح النظر والبصيرة فحسب بل يذم الذي لا يتمتع بالبصيرة والنظر. ولا يدعونا لزيارة روح العالم بل يوبّخنا إذا لم نقم بهذه الزيارة للاطلاع على ما يجري في روح العالم.

فهو يمتدح النظر الى الملكوت إلى جانب ذمّه لعدم المعرفة بروح العالم وملكوته. يرسم القرآن الكريم هذا الطريق ويقول: يجب عليكم في هذا الطريق أن تهتدوا بنور يكشف لكم كل المنعطفات والعثرات. وهذا النور لا يصدر من غير الله، فنور الله هو الذي ينير طريق الكمال وليس النور

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٦).

الذي يوقده الآخرون، لأن الخطر في نار الله لا في نار الآخرين.

الأصول الأربعة أدناه من المبادىء المسلم بها في القرآن الكريم.

الأصل الأول: إن كان ثمة نور فيجب أن يكون الله مصدره وحسب.

الأصل الثاني: النور الصادر من غير الله خامد ومنطفىء.

الأصل الثالث: ان كانت ثمة خشية ورهبة فهي من نار الله.

الأصل الرابع: النار التي يوجدها الناس لا تستحق الخوف والخشية. بل يجب على الانسان أن لا يخشى سوى مفاسده.

وقد ذكر الله في عدة مواضع من القرآن أن نوره لا ينطفىء. فقد قال في سورة التوبة ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾[1] وقال ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم**﴾[2]. فكما أن الشمس لا تنطفىء بالأفواه، فان دين الله وقرآنه لا ينطفىء بأفواه الدعاية المسمومة للمبلغين الفسدة.

إن النور الإلهي لا ينطفىء بلسان القلم ولا بلسان المصالح. من الدارج أن تطفأ النار بالأفواه، فالشمعة تنطفىء بنفخات الفم ولكن الشمس لا تنطفىء بها. إن كان الكلام عادياً ربما استطاع الانسان يواجهه بالدعاية ولكن إن كان الكلام لله فيستحيل الوقوف أمامه بالدعاية ولا يمكن بالخطابة والكلام والكتابة مقارعة النور الإلهي.

﴿**والله متم نوره**﴾[3] أو ﴿**ويأبى الله إلا أن يتم نوره**﴾[4]. إذن نور الله

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٢).
(٢) سورة الصف، الآية (٨).
(٣) سورة الصف، الآية (٨).
(٤) سورة التوبة، الآية (٣٢).

لا يقبل الانطفاء اطلاقا فهو نور الطريق الأبدي.

أما نور الآخرين ومصابيحهم التي أوقدوها فقد وصفها الله في سورة البقرة بأنها مؤقتة ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾[1] إن مثل المنافقين الذين ظنوا أن بامكانهم اجتياز هذا الطريق الطويل المحفوف بالمخاطر على هدى مصباح وضياء اصطناعي، إن مثلهم كمثل الذي أوقد ناراً وهي نار مؤقتة وزائلة بلا شك.

﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾[2] فهذه النار رغم كونها ناراً وليست نوراً ولكنها على كل حال تبعث قليلاً من النور. وما إن أضاءت هذه النار ما حول موقدها ﴿**فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون**﴾[3].

وهكذا فان نور النفاق والكفر النابعة من النار واللهيب ليست دائمة ومستمرة، وليست لا تصلح للهداية والدوام فحسب، بل تؤدي الى تورط البعض حين يتبعونها لعدة خطوات حتى إذا انطفأت طوّقتهم الظلمات من كل جانب فلا يستطيعون مواصلة الطريق ولا يستطيعون العودة من حيث جاؤوا لأن الحركة عسيرة وسط العتمة.

مع ان النار التي أوقدها المنافق، قد تمتلك نوراً ضئيلاً وقد يجتمع حولها البعض يستمدونها ويسيرون عليها، ولكنها بمجرد أن تضيء ما حولها يذهب الله بها ﴿**ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون**﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٧).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٧).

إن ضل انسان طريقه في ليلة ظلماء وسط صحراء مكدسة بالمخاطر وكانت السماء غائمة والنجوم غائبة، فبماذا يستطيع النجاح؟ إن أشعل الحطب ليحصل على بعض الضياء من النار ويقطع المسافات الطويلة على هداه فما ان يرى أمامه لبعض الخطوات حتى تنطفىء ناره ويذهب نوره.

هنالك قول للقرآن الناطق، مولى الموحدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حول الدنيا ومحبيها له علاقة بموضوعنا، يقول «ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلمة» أي يا أيها الانسان المتعلق بالدنيا أيها الانسان الذي تركت الملكوت لتحظىٰ بالدنيا، أيها المحروم من صوت الملكوتيين لأجل سماع صوت أهل النفاق والكفر، أيها الخاسر لخزائن العالم من أجل الوصول لزخارف الدنيا، إعلم انك مسافر وأمامك طريق طويل وغاية قصوى وليلك مظلم وسبيلك ضيّق.

إذا خطف البرق من الغيوم المتراكمة للحظة معينة وأضاء الطريق بشكل مؤقت، فهل يستطيع المسافر الضال أن يصل مقصده بعون لحظة ضياء واحدة؟ أيستطيع البرق الذي يخطف لحظة واحدة ويزول أن يهدي انسان أضاع السبيل، الى منزله وقصده البعيد؟ أيحدّث العاقل نفسه باجتياز طريق محفوف بالمخاطر بلا مصباح، اعتماداً على برق الصحراء؟.

يقول إن كان للدنيا بريق خاطف، إن كان لمال الدنيا بريق خاطف وإن كانت لمناصب الدنيا زخارف معينة وإن كان لكل عالم الطبيعة برق مؤقت، فلا يستطيع المسافر الضائع أن يصل لهدفه البعيد بهذا البرق المؤقت «ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلمة» فهذا النور ليس بالنور الهادي الذي يوصل المسافر لغايته.

أما إن أراد شخص المسير على نور الله، فمن يستطيع أن يقف أمامه؟ إن وضع المسافر عين روحه على الملكوت وسمع نداء العالم مسبحاً للحق ورأى أبواب خزائن العالم مفتوحة بوجه الارادة الإلهية، فمن يستطيع أن يمانع من استمرار حركته التكاملية هذه؟.

كلما أراد الأجنبي أن يشعل ناراً أطفأها الله **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾**[١] وعلى ذلك فلا دور لنار ولهيب الأجانب المخيفة، وإن كان ثم خوف فيجب أن يكون من نار الله. إن نار الله تتصاعد من داخل القلوب فمن يستطيع الفرار منها؟.

وهل يمكن الهرب من النار النابعة من الروح؟: **﴿نار الله الموقدة﴾**[٢] إن النار التي يوقدها الله تشتعل من باطن الانسان **﴿التي تطّلع على الأفئدة﴾**[٣] إذا سار المرء على غير الصراط المستقيم فإنه يصير هو حطباً ملتهباً لجهنم، عندها أين سيفر هذا الحطب الملتهب؟ أينما ذهب فهو حطب.

إن القاسطين أي أهل القسط (بفتح القاف) والجور والظلم، يستولون على قسط (بكسر القاف) الآخرين فيصبحون أهل القسط (بفتح القاف) وهم حطب لجهنم **﴿أما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾**[٤] يعتبر الله أن البعض وقوداً لنار القيامة وهم صنف معين من الكفار والمنافقون **﴿وقودها الناس**

(١) سورة المائدة، الآية (٦٤).
(٢) سورة الهمزة، الآية (٦).
(٣) سورة الهمزة، الآية (٧).
(٤) سورة الجن، الآية (١٥).

والحجارة﴾[1] .

يقول القرآن عن بعض الأشخاص ﴿وأولئك هم وقود النار﴾[2] . أين يهرب هذا الوقود؟ أينما ذهب فالنار معه. لهذا حتى لو مالت النار للانطفاء فانها ستبقيه مشتعلاً ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾[3] إذن فليس لهذه النار انطفاء.

كانت حصيلة هذه الأصول القرآنية الأربعة أن الوصول الى هذا الطريق لا بد له من نور الله والايمان به. إنه نور الله لا يخبو أبداً، والنور الصادر عن غير الله قابل للانطفاء. إن كان هنالك خوف فلا بد أن يكون من الله لأجل الوصول الى هذا الطريق وينبغي عدم الخشية من نيران سوى الله. لأن كل نار أوقدها الآخرين أطفأها الله ويطفئها. وإن كان ثمة خوف وهلع فمن العذاب الإلهي الذي يسببه الكفر والنفاق والعصيان والفساد.

آمل أن تكون قلوبنا أوعية لمعارف القرآن الكريم ببركة الأنبياء وأولياء الحق والأئمة الأطهار عليهم السلام وأن نتبحّر في المعارف القرآنية بشكل كامل. مَنَّ الله علينا جميعاً بالتفقّه في القرآن ورؤية ملكوت العالم والتنور بالنور الإلهي. وجعل الله ثواب هذه المحاضرات والاستماع هدية لأرواح الأنبياء والأولياء والذين حشروا معهم أي شهداء الثورة الاسلامية العظيمة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة التحريم، الآية (٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠).

(٣) سورة الاسراء، الآية (٩٧).

الدرس الثامن عشر

الفاعلية للإيمان والعمل الصالح
وليست لاسم الإيمان والرغبة في العمل الصالح

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

في المحاضرة السابقة، بعد ان أوضحنا أن بامكان الانسان النفوذ الى باطن وروح العالم ومواصلة طريق الأنبياء الإلهيين، وصلنا الى هذه النتيجة وهي أن السير في هذا الطريق يحتاج الى نور وطمأنينة، ليستطيع بواسطة النور أن يرى طريقه وبواسطة الطمأنينة والسكينة أن لا يهاب من أي شيء. بعد ذلك ذكرنا أربعة من الأصول القرآنية تكفي بشكل تام للحل.

الأصل الأول: إن النور الذي لا يخبو أبداً هو نور الدين والقرآن، وهو نور لا يمكن اطفاؤه بأي وسيلة من الوسائل، ففيه القابلية على البقاء أي لا ينطفىء من نفسه أبداً. وفيه القدرة على المقاومة أيضاً، أي لا يقدر شيء أن

يقضي عليه.

الأصل الثاني: إذا أوقد الأجنبي ناراً وبعثت هذه النار نوراً ضعيفاً. فمن المحتم أن هذه النار آيلة الى الانطفاء وأن الله سيقضي عليها حتماً **﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾**[1] فالنور غير الإلهي لا يصلح لطي هذا الطريق.

الأصل الثالث: لا يستطيع شيء في العالم أن يبعث الخوف والفزع في النفس الواعية. فالنار التي يوقدها الموقدون لا تقذف الرعب والهلع في قلب الانسان اليقظ ولا تستطيع ان تقطع طريقه **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾**[2].

الأصل الرابع: على الانسان ان لا يخش الا من مفاسده، لأن هذه المفاسد هي التي تسبب اشتعال النار التي لا تقبل الانطفاء. وان النار التي لا تخبو أبداً ولا يمكن الفرار منها هي نار الله التي تشتعل في القلوب وتكون الأرواح وقودها **﴿نار الله الموقدة * التي تطّلع على الأفئدة﴾**[3] فالمفسد هو حطب الجحيم، وأينما حلَّ هذا الحطب فهو مشتعل وملتهب.

يقول الله أن القاسطين أي أهل القسط (بفتح القاف) والجور الذين يأخذون قسط وسهم الآخرين (بكسر القاف)، هم حطب جهنم **﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾**[4] الظالمون هم حطب جهنم، فهم لا يحترقون فقط بل يحرقون الآخرين معهم **﴿وأولئك هم وقود النار * كدأب**

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٧).
(٢) سورة المائدة، الآية (٦٤).
(٣) سورة الهمزة، الآية (٦و٧).
(٤) سورة الجن، الآية (١٥).

آل فرعون﴾[1] . البعض حطب جهنم، يتعذبون ويسببون عذاب الآخرين.

ذكرنا هذه الأصول القرآنية الأربعة في المحاضرة الماضية، وأما السبيل الى التمتع بهذا النور فهو أن نعلم أن هذا الطريق لا يتأتى بالأسماء والألقاب والنياشين المستورثة وأعراف المجتمع وأمثال ذلك، ولا بالدعاء ودعاوى الباطل والغرور والأنانية والعجب وما شاكل ولا بالأماني والرغبات والأوهام الكاذبة. بل السبيل الوحيد هو الايمان بالله واليوم الآخر وأداء الأعمال الصالحة. أي الايمان بمبدأ (مصدر) العالم، والاعتقاد بيوم القيامة وايتاء الأعمال طبقاً للوحي الإلهي. وهي أصول الدين الثلاثة؛ التوحيد والمعاد والنبوة.

يقول الله في احدى مبادئه القرآنية: ان القضية لا تحل بالعناوين الوراثية والمصطلحات الوضعية ولا دور للاسماء فيها. ويقول في مبدأ آخر أن الادعاء المجرد لا يصنع شيئاً والأماني القلبية لا تجدي نفعاً. ولا تأثير في هذا المجال الا للإيمان بالمبدأ والمعاد والسلوك وفقاً للوحي الإلهي.

فقد ذكر أن القضية ليست قضية أسماء وألقاب وما شاكل وذلك في سورة المائدة وكذلك البقرة، وقد أشرنا الى جانب من هذا البحث في احدى جلسات التفسير الماضية.

قال الله عز وجل في سورة البقرة ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾[2] فلا فرق بين هؤلاء الا في التسمية والشيء الذي يؤدي الى النجاة ويضمن النصر هو: ﴿من آمن بالله﴾[3] أي الذي يعتقد

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠و١١).
(٢) سورة البقرة، الآية (٦٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (٦٢).

بالمبدأ ﴿واليوم الآخر﴾[1] ومن عمل صالحاً، فالنجاة لمن يعتقد بهذه الأسس الثلاثة وهي الايمان بالله وبيوم القيامة والسلوك الصالح، وبعبارة أخرى النجاة لمن له حسن فاعلي وحسن فعلي.

يعتبر القرآن العمل صالحاً إذا وافق أوامر النبي وحجة ذلك العصر، فكل عمل يرضاه الدين والرسول في ذلك العصر وقد عرّف من قبل الله بواسطة الوحي بأنه عمل حسن، فهو عمل صالح. لقد اعتبر الأنبياء الماضون بعض الأعمال صالحة وحسنة وصدّق ذلك خاتم الأنبياء ﷺ واعتبرها بدوره صالحة، فهذه أيضاً تعد من الأعمال الصالحة.

هنالك بعض الأمور الجزئية كانت ضرورية في الأديان الماضية، ويجب أن تتم الآن بطريقة وكمية ونوعية أخرى. لأن ما يتبدل هو الشريعة والمنهاج أي الخطوط الفرعية والا فـ ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[2] والخطوط العامة في كل الأديان واحدة. وما يتغير هو الشريعة والمنهاج والخطوط الفرعية، فهي التي يطرأ عليها التغيير الكمي والكيفي بناء على الأوامر الجديدة.

لم يأتِ القرآن الكريم في الآية السالفة بحرف الواو ولم يقل ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن﴾ ثم لم يستخدم ضميراً يعود على هؤلاء ولم يقل «من آمن منهم» بل قال ان الله لا يعير أهمية للأسماء والنياشين والمصطلحات.

إذا أراد الانسان أن يصل الى السعادة يجب ان يحيي هذه الأصول

---

(١) سورة البقرة، الآية (٦٢).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٩).

الثلاثة: الاعتقاد بمبدأ العالم (مصدر العالم)، الاعتقاد بيوم القيامة، وتنفيذ الأعمال التي اعتبرها الوحي الحاكم في ذلك الزمان صالحة. لأن كل شريعة وطريقة ومنهاج يجب ان يطبق في زمن معين وعصر خاص. وقد ورد نفس هذا المعنى في سورة المائدة بفارق بسيط عن ما جاء في سورة البقرة. يقول في سورة البقرة: **﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** ولكنه عز وجل يقول في سورة المائدة: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى﴾**[1] وهذا أوّل اختلاف، ففي سورة البقرة قدّم النصارى على الصابئين، ثم يقول: **﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[2] وهذا اختلاف ثان إذ ليس في هذه الآية عبارة **﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾**.

والأصل الثاني، هو بالاضافة الى أن الأسماء والنياشين لا تلعب دوراً، فان الادعاءات والغرور وما يضفيه الانسان على نفسه وما يصنعه لنفسه ليس له دور أيضاً. وقد ذكر القرآن هذا في سورة البقرة بالشكل التالي: **﴿وقالوا لن تمسنا النار إلّا أياماً معدودة﴾**[3] فقد ظن البعض أنهم سيعذبون لأيام قليلة وحتى هذا العذاب اليسير يمكن تفاديه ببعض الوسائل، ولا علاقة لهذا الموضوع بمحاضرتنا الآن.

يجيب القرآن على تصور هذه المجموعة بقوله: **﴿قل اتخذتم عند الله عهداً﴾**[4] فهل تراهم أخذوا ميثاقاً من الله والله لا يخلف ميثاقه طبعاً **﴿فلن**

---

(١) سورة المائدة، الآية (٦٩).
(٢) سورة المائدة، الآية (٦٩).
(٣) سورة البقرة، الآية (٨٠).
(٤) سورة البقرة، الآية (٨٠).

يخلف الله عهده﴾[1] أم أنهم يقولون ما لا يعلمون **﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾**[2].

ثم يقول: إن ادعاءاتكم ليست هي المعيار، بل المعيار هو **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[3].

في بعض الأحيان يرتكب الانسان ذنباً ولكن طريق التوبة يبقى مفتوحاً ويبقى الأمل في علاجه، لكنه في أحيان أخرى يغرق في الذنوب والخطايا بحيث يحيطه الذنب من جميع الجهات، فمثل هذا الشخص لن يعود له طريق لأنه أغرق نفسه الى درجة لا يمكن معها انقاذه، إنه أغلق بنفسه على نفسه الباب، ومثل هذا الشخص الذي أحاطته المفاسد من عدة جهات لا يمكن أن يكون من أهل الجنة **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[4] لا يكفي الاعتقاد بالمبدأ والمعاد ولا يكفي الحسن الفاعلي، بل يجب أن يتوفر الحسن الفعلي أيضاً، فتكون الروح معتقدة والجسم في سعي دؤوب. إذا حمل شخص العقيدة ولم يرتّب عليها آثارها، فلن يكون من أهل السعادة، والذي يعمل بدون عقيدة لن يكون من أصحاب السعادة أيضاً، لأنه ينبغي توفر هذين الشيئين الى جانب بعضهما ليصل المرء للسعادة.

في أواخر سورة الكهف يمزج الله بين الحسن الفاعلي والحسن الفعلي

---

(١) سورة البقرة، الآية (٨٠).
(٢) سورة البقرة، الآية (٨٠).
(٣) سورة البقرة، الآية (٨١).
(٤) سورة البقرة، الآية (٨٢).

ويقول: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الذي يريد لقاء ربه ويأمل رحمة الله اللامتناهية يتعيّن عليه ركنين: الأول: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾[1] والثاني: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وبهذا تكون روحه موحدة خالصة. فهو لا يرائي أي يعمل عملاً بهدف إظهاره للآخرين ولا يلهث وراء السمعة أي يعمل من أجل إسماع الآخرين، ولا يلتذ برؤية الآخرين ولا يفرح بسماعهم.

إن كانت روح انسان موحدة وعمله صالحاً نال بذلك لقاء الله كائناً من كان. ومهما كان اسمه. اذن طبقاً للأصل الأول ليس العمل بالاسم والألقاب بل العمل بهذه الأصول الثلاثة: الاعتقاد بالله، الاعتقاد بالقيامة، العمل وفق الموازين الإلهية.

ومرة أخرى يشرح القرآن الكريم في سورة البقرة أن الأعمال لا تتم بمجرد الرغبة بالقيام بها، يقول: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ فالدين يدور في فلك البرهان والدليل لا في فلك الرغبة والأماني، الأمنية ينسجها الخيال الكاذب أما البرهان فهو الهادي والدليل على الطريق، والدين يهتم بالقرآن ولا يقيم وزناً للرغبات.

يقول القرآن إن أردت أن تكون ذا أمل لا ذا رغبة يجب أن تكون نفسك طاهرة وعملك صالحاً ﴿فمن كان يرجو﴾ فالرجاء والأمل مشروع، أما الأمنية والرغبة فهي آمال باطلة، يقول الله إن أردت أن يتقد أمل الحق في روحك فحاول أن تكون ذا عقيدة وعمل صالح، وبغير ذلك إنما تمنّي نفسك باطلاً.

---

(١) سورة الكهف، الآية (١١٠).

﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب**﴾[1] إن العمل لا ينجز بالأماني والرغبات سواء كنتم أنتم أصحاب العمل أم كان الآخرون ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾[2] . القضية لا تنتهي بالأماني، يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[3] أقيموا الصلاة وأحكموا علاقتكم بالله، وآتوا الزكاة، الواجبة منها والمستحبة، المادية منها والمعنوية، ما دامت علاقتكم بعباد الله قوية فأنتم ملتزمون بأوامره.

أنفقوا مما رزقكم الله، والرزق هنا هو الرزق المادي والمعنوي، فإن رزقكم الله علماً فانفقوا منه على الآخرين، وإن رزقكم مالاً انفقوا منه على غيركم وحاولوا أن تكونوا يقظين وتعلموا أن إذا أنفقتم هذه الأرزاق الإلهية في سبيل الله فستزدهر أكثر ولن تقل أبداً.

طرحنا في المحاضرة الماضية أن المؤمن يستطيع أن يجد السبيل الى ملكوت العالم ويرى خزائن السماوات والأرض المفتوحة أبوابها باتجاه إرادة الله عز وجل ﴿**ولله خزائن السماوات والأرض**﴾[4] إن الله الذي أمطركم بنعم ظاهرة وباطنة وجعلها أمانات عنكم ﴿**وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة**﴾[5] يأمركم إن أردتم أن يزيدكم بالانفاق منها على عباد الله.

تناولت الكثير من السور القرآنية التي نزلت في مكة موضوع الزكاة في حين جاء الأمر بوجوبها في المدينة، أما أصل الزكاة والتزكية سواء تزكية

---

(١) سورة النساء، الآية (١٢٣).
(٢) سورة النساء، الآية (١٢٣).
(٣) سورة البقرة، الآية (١١٠).
(٤) سورة المنافقون، الآية (٧).
(٥) سورة لقمان، الآية (٢٠).

النفس أو تزكية المال فقد نزلت في مكة.

يقول بعد هذين الأمرين: **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾** فما يقوم به الانسان من الأعمال الصالحة يعود نفعه عليه فقط، وقد شرحنا هذا المعنى في احدى المحاضرات السابقة بشكل مفصل فلا الله ينتفع من أعمالنا الخيّرة، ولا الآخرون بالأصالة.

ان الأعمال الصالحة التي يقوم بها الانسان بمثابة الشجرة التي يزرعها في حديقة بيته والتي لا ينتفع المار سوى من ظلالها. إن قام المرء بالخير للآخرين فهذا الخير ملك لنفسه، وظلّه يصل الآخرين. من غير الممكن أن ينفصل العمل عن فاعله. يقول الباري في سورة الاسراء التي بحثناها: **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾**[1] واللام هنا لام الاختصاص وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض) في تفسير الميزان القيّم؛ العمل يخص العامل والفعل يخص صاحبه وهو الفاعل.

كل عمل قمنا به، كل خاطرة حملناها في أذهاننا، كل أمل أسكناه قلوبنا، كل كلام جرى على ألسنتنا، كل عبارة كتبناها بأقلامنا، كل مكان طويناه بأقدامنا وكل شيء وقّعنا عليه بأيدينا، كل حديث خرج من أفواهنا وكل طعام دخلها وكل وكل ذلك من أعمالنا ولا يتعلق الا بنا. إن كان قبيحاً فهو مرتبط بنا وان كان حسناً فهو مرتبط بنا أيضاً.

إن هذه اللام ليست لام المنفعة، ليقال في مجال المعصية (فعليها) أو ليقول (فلها) من باب التناغم والتشابه بمعنى أنه بسبب مجيء اللام في الجملة الأولى جاءت لام ثانية في الجملة التالية. بل هي لام الاختصاص

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٧).

والملكية.

يقول الامام السجاد عليه السلام وهو مظهر الدعاء ومفسر «أدعوني استجب لكم» في الصحيفة السجادية حول أن العمل يخص فاعله، يقول؛ إذا حان أجل الانسان يتجلى ملك الموت للمحتضر من خلف ستائر عالم الغيب «تجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب» ثم يقول «وصارت الأعمال قلائد في أعناقهم» فعمل كل انسان يصبح يوم القيامة سلسلة واغلالاً في عنقه ولا يتركه أبداً.

إن العمل لا يترك صاحبه على الاطلاق لذلك قال الله: **﴿وما تقدموا من خير تجدوه عند الله﴾** مما يشير الى حفظ الأعمال وارتباطها بفاعلها ويشير كذلك الى تجسم العمل والجزاء عليه.

وبعد ذلك يروي القرآن ادعاء المدعين ورغبة الراغبين ثم يصرح أن العمل ليس بالرغبة والادعاء، بل هو بالبرهان **﴿وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً﴾**[١] وكان النصارى يقولون أيضاً أن الجنة حكر على المسيحيين: **﴿وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى﴾**[٢].

لكن القرآن يشطب بقلم البطلان على هذه الادعاءات ويقول أنها أمانٍ ورغبات فارغة **﴿تلك أمانيهم﴾**[٣] والسعادة لا تدور حول محور فارغ وكاذب **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**[٤].

الصادق من يقيم البرهان على كلامه، فالكلام العاري من البرهان كلام

---

(١) سورة البقرة، الآية (١١١).
(٢) سورة البقرة، الآية (١١١).
(٣) سورة البقرة، الآية (١١١).
(٤) سورة البقرة، الآية (١١١).

كاذب والخيال بغير الدليل أمنية كاذبة. ومنطق القرآن هو إن كان لكم برهان فهاتوه. إن الدين القائم على أساس الحق يهدي الناس بواسطة البرهان **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**.

لا يسمح الله للانسان أن يتكلم بغير دليل ولا يسمح له في نفس الوقت أن يتقبل الكلام الخالي من الدليل. لأن هذه هي خاصية المنطق البرهاني من خصائص القرآن الكريم أنه لا يجيز للانسان التفوّه بكلام غير مبرهن ولا يجيز له الاستماع للكلام غير المبرهن.

ورد حديث عن الامام الجواد عليه السلام يقول فيه: «من أصغى الى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبدالله»[1] إذا كان المتكلم ناطقاً عن الله والسامع سامعاً لكلام الله فقد عبدالله. وإن كان الناطق عن الشيطان وممن يدس الوساوس الشيطانية في النفوس، فقد عبد سامعه الشيطان، وقد نهى القرآن عن عبادة الشيطان بشكل مؤكد **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾**[2] وعليه فمن واجبنا أن لا نتكلم بدون الدليل ولا نقبل كلاماً بدون الدليل.

يجب أن لا ننسى هذه العبارة وهي أن شعار القرآن هو **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** بعد ذلك يعرّف الوحي والكلام الإلهي بأنه سبيل النجاة وأن تلك الادعاءات والتمنيات والأهواء ليست معياراً للسعادة **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[3].

---

(١) تحف العقول، كلمات الإمام الجواد القصار.
(٢) سورة يس، الآية (٦٠).
(٣) سورة البقرة، الآية (١١٢).

إن أول عبارة يجب أن تبحث في هذه الآية هو قوله تعالى أن من كانت له روح ووجه مسلمان «أسلم» بمعنى خضع وانقاد وأسلم «وجهه» فان وجهه هو العضو الذي ينقاد معه. الانسان يتجه بروحه الى جهة معينة وأينما اتجهت روحه وقلبه، اتجهت معها عينه وأذنه. فالأعضاء والجوارح تابعة لقيادة الروح، وهي في انتظار دائم لأوامر الروح. «لله» أي يتجه وجه روحه صوب الله لأن الله هو المبدأ وهو المعاد **﴿إنا لله وإنا اليه راجعون﴾**[1] ويكون معتقداً بالله واليوم الآخر. والخلاصة إذا كان المرء ذا عقيدة وهي حسن الفاعل **﴿وهو محسن﴾** وكان ذا عمل صالح على الصعيد العملي، لكان أجره على الله.

مر بنا إذا كمل اعتقاد المرء بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، كان من أهل النجاة. وهنا عبّر عن الايمان بالله ويوم القيامة بأن وجه الانسان يتجه صوب الله ويسلّم له وينقاد اليه. والاحسان في هذه الآية يعادل العمل الصالح في الآيات السابقة.

«المحسن» هو من يفعل الاحسان أي الذي يعمل عملاً صالحاً. والقرآن يعتبر العمل صالحاً إذا كان مطابقاً لوحي الرسول وحجة العصر **﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

كم على الانسان أن يتطور ليكون أجره عند الله ويتقاضاه من الباري. وإن كان أجره عند الله فانه خالد لا يقبل الفناء لأن **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾**[2] . إن كان أجر الانسان صاحب العقيدة والعامل بالحسنى

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٥٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٩٦).

والصلاح عند الله سبحانه فهو في مأمن من الحدثان والتغيرات والفناء وما شاكل.

يقول الله في آيات القسم الثاني أن العمل ليس بالرغبة والادعاء وقال في آيات القسم الأول أن الأعمال ليست بالأسماء والألقاب، والأسماء والادعاءات والأماني لا تلعب هنا أي دور. بل ان القضية قائمة على أساس الاعتقاد بالله والقيامة والعمل الصالح. وإن قال الآخرون غير هذا واطمأنوا للأسماء وهاموا بالادعاءات والأماني فإنهم يفتقرون جميعاً للبرهان ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾.

حين يجتاز الانسان هذه المرحلة أي حين تكون له روح معتقدة وجوارح مطيعة، فسيحظى بنعمة لا يمكن أن تقدّر أو تثمّن، ولا يمكن لشيء أو حادثة أن تخيف مثل هذا الانسان أو تحزنه ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[1].

هذه النعمة لا تكمن في حدائق المزارعين ولا في ثروة أصحاب البنوك ولا في قوة الأقوياء ولا في أموال المحتكرين، بل يقول الله ﴿**الا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ أي لا تفكروا أن البعض يمتلك من أموال الدنيا فلو كانوا من أثرى البشر وأقدرهم لكانوا في ضيق وحصار ولا يتمتعون أبداً بصدور مشروحة وأرواح واسعة، بل هم أبداً في ضائقة الطمع وحصار الحرص.

انهم في ضيق خلال دنياهم وحين موتهم عند دخولهم عالم القبر والبرزخ وليس مكانهم بواسع في جهنم أيضاً.

يعد القرآن ثلاث مراحل لمحب الدنيا الغافل لا تقبل الشك:

---

(١) سورة الرعد، الآية (٢٨).

أولاً: انه في ضيق خلال حياته الدنيا رغم ما يملك من حدائق فسيحة. ان كان في أفضل النعم وأقوى السلطات لبات في ضيق أيضاً، انه لا يمر بفسحة وفرج أبداً فهو في حصار كل لحظة.

ثانياً: عندما يترك الدنيا سيدخل عالم البرزخ بنفس هذا الضيق وسيواجه الضغط هناك كما واجهه في الدنيا وهو المعروف باسم ضغطة القبر.

ثالثاً: سيجتاز البرزخ ويدخل جهنم وسيكون مكانه هناك ضيقاً كذلك **﴿مكاناً ضيقاً مقرنين﴾**[1].

إن محب الدنيا لا يمر بلحظة راحة أبداً في كل مراحل العالم الثلاث. والمؤمن في راحة وانشراح خلال كل هذه المراحل الثلاث، مع انه في الأمور الدنيوية ضعيف او مستضعف. يقول الله عن الشخص الذي يمتلك حسناً فاعلياً وحسناً فعلياً بمعنى أنه يعتقد بالله ويوم الحشر ويعمل الصالحات: **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾** لا شيء يستطيع ان يدخل الطمأنينة على الفؤاد، لا الثروة ولا السلطة لأن هذه الأشياء غير منسجمة مع الفؤاد، فالمتعلق بالدنيا حتى لو اجتاز احدى المراحل لبقي في ضيقه لأنه كالانسان المغلق إذا سافر.

يقول الباري عز وجل عن محبي الدنيا في سورة طه: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾**[2] مع ان مثل هذا الشخص قد يمتلك الثروة ويغرق فيها ولكنه أسير وحائر دائماً وتؤرقه الأفكار في كيفية صيانة هذه

---

(١) سورة الفرقان، الآية (١٣).

(٢) سورة طه، الآية (١٢٤).

الثروة وسبل زيادتها. من المستحيل أن يكون ثمة انسان ثري يعيش بطمأنينة رغم عدم ايمانه بالله. ومما لا شك فيه أن الثري الفاقد للعقيدة غير مرتاح ﴿ومن أصدق من الله قليلا﴾[1] ومن المستحيل أن نجد من هو أصدق من الله وكلامه في القرآن.

يقول القرآن: ﴿ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً﴾[2] فالضغط عليه من النوع الذي يسببه التفكير والقلق على كيفية حفظ ما يملك وكذلك من النوع الذي يسببه التفكير في طرق الحصول على ما لا يملك وإضافته الى ما يملك. والضنك بمعنى الضيق، وفي يوم القيامة سيحشر أعمى.

يقول الله في نفس هذه السورة: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[3] انه لا يشقى لأنه ليس بشقي ولا يتعب ولا يتألم لأنه مطمئن ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أما الانسان الغارق في النعم والذي لا يعتقد بالله فهو في اضطراب شديد.

فلمن يا ترى سيقدم هذا الانسان شكره عند ظفره بالنعم؟ وإن حلّت به كارثة فبمن سيتعزّى؟ وإن احتاج الى شيء فلمن سيلجأ؟.

إن كان مؤمناً فما تصله نعمة إلاّ وقال: ﴿الحمدلله رب العالمين﴾ وكلما حلّت به مصيبة قال: ﴿إنا لله وإنا اليه راجعون﴾ وما إن يحتاج الى شيء حتى يعود الى الله القائل ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية (١٢٢).

(٢) سورة طه، الآية (١٢٤).

(٣) سورة طه، الآية (١٢٣).

(٤) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

فالله ملجأه عند الحاجة وبالله عزاءه عند الحزن والمصائب ولله حمده حين هطول النعم.

فهو يرى نفسه مرتبطاً بخندق واحد في جميع الحالات ولا خندق أفضل من التوكل على الله **﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾**[1] . أما الكافر والمنافق فإنه كلما غرق في الذهب والسلطان أفلتت منه العصم. فبمن يعتصم هؤلاء من أجل حفظ ما يملكون؟ وماذا سيفعلون إن خسروا ما لديهم؟ وعلى كل حال فمن المستحيل أن تكون نفس الانسان غير المعتقد في راحة وسرور.

إن القرآن الكريم أوضح هذه النقطة وهي: **﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم﴾**[2] فالله مولى المؤمنين وهم يدارون تحت ظل الولاية الإلهية ولكن ليس للكافر مولى أو شخصاً ينضوي تحت ولايته ويحتمي به.

أرجو أن تتعرف قلوبنا جميعاً على معارف القرآن الكريم ببركة القرآن الكريم والأئمة الأطهار عليهم السلام، وأن نوفّق للايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الكهف، الآية (٢٧).

(٢) سورة محمد، الآية (١١).

الدرس التاسع عشر

برهان المحبة في احتجاج النبي ابراهيم الخليل عليه السلام

الحمدلله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

البحوث النظرية في القرآن مرفقة بتعاليم تربوية وعملية. لأن القرآن نزل بصفته نوراً وهدى لا بعنوان كتاب فلسفي وبحوث نظرية محضة. فحين يطرح قوانينه، يعرض أهدافها وسبل تنفيذها أيضاً. من هنا فمن المستحيل أن يتناول موضوعاً عقلياً محضاً بدون أن يذكّر بالقضايا التربوية والسلوكية الى جانبه. اذ الجانب النظري الجاف لا يمكنه أن يكون نوراً وشفاء وهدى ما لم ترافقه التربية.

وصف الله القرآن بأنه نور وهدى وشفاء لكل الأمراض الروحية ﴿وشفاء لما في الصدور﴾[1] ومثل هذا الكتاب المداوي لكافة أمراض الروح والشارح لما ينفع ويضر، لا بد أن يطرح القضايا النظرية مرفقة بالتربية

(١) سورة يونس، الآية (٥٧).

والتهذيب.

إن أهم مسألة من وجهة نظر القرآن الكريم هي مسألة التوحيد. عندما يعرض القرآن بحث التوحيد، يثبت الله بصفته محبوباً، لا كونه موجوداً مترفعاً حاكماً. والبحوث النظرية في القرآن الكريم لا تقتصر على بعد الوجود الإلهي، بل تطرح الله كأفضل وأول وآخر محبوب وكضامن لراحة وانشراح النفس.

تتناول الفلسفة قضايا التوحيد من زاوية وجود الله، بينما يصف القرآن الله بالمحبوب الأصيل ورأس مال الطمأنينة وبأنه من تهفو اليه الأفئدة. ويرى أن ضمان انشراح القلب وتخلصه من كل اضطراب وقلق هو الارتباط بالله تعالى. وبين هذين النوعين من الطرح فارق شاسع.

على سبيل المثال، عندما يستعرض القرآن حادثة استدلال ابراهيم الخليل عليه السلام على عدم وجود اكثر من رب ومدبر واحد لهذا العالم (التوحيد الربوبي) فانه يطرح هذا البرهان عن طريق المحبة بحيث يكون النبي ابراهيم عليه السلام دائباً ومجاهداً للوصول الى المحبوب. فأي شيء يجدر بالمحبة؟ ولأي شيء تميل الروح؟ وحب من تحمل النفس في طياتها؟ حب أي مبدأ تحمله تلك اللطيفة الإلهية المسماة بالقلب؟ وبحب من تدخلها السكينة؟ تحت ظل أية محبة تحلّ مشكلات الفؤاد؟.

قال الله سبحانه في سورة الأنعام أننا أرينا الخليل عليه السلام ملكوت السماوات والأرض. ثم يستعرض أدلة النبي ابراهيم عليه السلام. الملكوت هو اتحاد عالم الملك بالله، أي أن لعالم الوجود هذا طابع الملك وطابع الملكوت. والجانب الذي يشكّل الوجود الشخصي للعالم هو طابع الملك

فيه، وجانب ارتباطه بالله يعتبر طابع الملكوت فيه.

حين يقول الله تعالى **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[1] فالـ«كن» هنا أو إرادة وأمر الله هو ما يسمى بالملكوت، أما الـ«يكون» والتحقق على صعيد الوجود فهو ما يسمى بالملك.

الذي ينظر بدقة الى عالم الملك باعتباره آية وعلامة ومؤشر، فمن الممكن أن يصل الى الله، ولكن اذا نظر الى الطابع الملكوتي للعالم وفتح أمامه الطريق ليبصر الارتباط فسيصل الى الله ويعتقد به يقيناً.

قبل أن يذكر القرآن في سورة الأنعام قضية استدلال واحتجاج النبي ابراهيم عليه السلام، يقول: **﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾**[2] أي أننا عرضنا ونعرض باطن العالم وارتباطه بالله على الخليل.

إن الفعل «نري» ورغم كونه مضارعاً الا أنه يكشف عن الارادة الحتمية لله. فحين يقول: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾**[3] لا يعني هذا أن الارادة ستحصل في المستقبل للمنة على المستضعفين، بل يعني ان الارادة حاصلة باستمرار.

لقد مر بنا في احدى المحاضرات السابقة ان الله يأمر المؤمنين وتلاميذ ابراهيم عليه السلام بالنظر في ملكوت العالم. يقول: **﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾**[4].

---

(١) سورة يس، الآية (٨٢).
(٢) سورة الأنعام، الآية (٧٥).
(٣) سورة القصص، الآية (٥).
(٤) سورة الأعراف، الآية (١٨٥).

ثمة فرق بين الرؤية والنظر. النبي ابراهيم رأى وعلى المؤمنين أيضاً أن ينظروا ليروا. النظر مقدمة الرؤية. الامام يرى والأمة تنظر لكي ترى. وكل شخص يرى بمقدار ما ينظر، وان ارتباط العالم بالله كان اللوحة التي رآها النبي ابراهيم الخليل عليه السلام.

﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ أي أن هذه الاراءة والتمكين من الرؤية جاءت من أجل أهداف سامية، ومن جملة الأهداف هو ارتقاء الخليل إلى مقام اليقين. والواو هنا تدل على العطف على المحذوف بمعنى أن هناك فوائد لهذه الإراءة وإحداها أن يكون ابراهيم من الموقنين **﴿وليكون من الموقنين﴾**.

جاء في موسوعاتنا الروائية: **«ما أنعم الله على عبد بشيء أجلّ من اليقين»** فلا نعمة أجل من اليقين وكذلك لا شيء أقل من اليقين. فاليقين شيء قليل وجليل. لأن الانسان المتيقّن منزّه من كل ضرّ. كل ما يراه في العالم فكأن كل وجوده يردد «ما رأيت الاّ جميلاً»[1] وما يصيبه من شيء الاّ قال **﴿قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا﴾**[2].

المتيقن لا يصاب بالخور والارتخاء قبال الواجبات الإلهية، وتراه مطمئناً في كل الأحوال لأنه يرى الارتباط بين العالم والله. إن كانت له حاجة لجأ الى الله لعلمه أن ما يظفر به الانسان لا يظفر به الاّ بأمر من الله.

نقل عن الامام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية أنه قال: «... إن طلب المحتاج الى المحتاج سفه من رأيه وضلّة من

(١) اللهوف، المسلك الثالث.
(٢) سورة التوبة، الآية (٥١).

عقله»[1] . يجب على المحتاج ان يطلب حاجته من الغني، لا من المحتاج ولا من المستغني. الذي يحتاج ويوفّر ما يحتاج اليه فهو مستغنٍ. ويجب أن لا يطلب منه أيضاً. على صاحب الحاجة أن يعرضها على الغني عن الحاجة.

ان الانسان الواصل الى اليقين يعرض كل أموره على الله ولا يطلب شيئاً من سواه، ويعتبر كل نعمة تقع في يمينه قد جاءت من الله وما الآخرون الا قنوات للفيض ﴿**ما بكم من نعمة فمن الله**﴾[2] لهذا فهو يشكر الله فقط. وان اصابته كارثة حقيقية وفاته شيء أو حلّت به مصيبة، تعزّى بالله ودخلت السكينة الى قلبه نتيجة العلاقة بالله وقال: ﴿**انا لله وانا اليه راجعون**﴾[3] .

إذن أولاً؛ الانسان المتمتع بنعمة اليقين الجليلة يطلب الأشياء من الله. وثانياً: ان جاءته نعمة شكر الله عليها. وثالثاً: يتعزّى بالله عند المصائب الكبرى ويطمئن. وكل هذه نتائج اليقين، واليقين انما يحصل برؤية الملكوت ومشاهدة الارتباط الوثيق بين العالم والله.

ثم يستعرض القرآن الكريم استدلال ابراهيم الخليل فيقول: ﴿**فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً**﴾[4] . كان البعض في عصر النبي ابراهيم من عبدة الكواكب والبعض الآخر من عبدة الأصنام وغيرهم من عبدة القمر وآخرون من عبدة الشمس. كان النبي ابراهيم قد أودع في غار خلال طفولته من أجل انقاذه من خطر الطاغوت وبعد ان مضى على عمره بعض الشيء خرج من الغار ورأى هذه المناظر لأول مرة. رأى قومه يعبدون الأصنام، والبعض

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٨.
(٢) سورة النحل، الآية (٥٣).
(٣) سورة البقرة، الآية (١٥٦).
(٤) سورة الأنعام، الآية (٧٦).

يعبد الكواكب السماوية، كان منظر السماء شيء جديد بالنسبة له لخروجه تواً من الغار **﴿فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً﴾**.

إن كلمة «جنّ» تأتي أحياناً بمعنى التغطية والكساء وما شاكل. و«الجنة» هي الحديقة المغطاة بالأشجار وكأنها قد لبست كساءً أخضر وصارت ذات سقف أخضر، لهذا يطلق على الحديقة المغطاة بالأشجار المتراصة كلمة «جنّة». والطفل عندما يكون في رحم أمه مغطى ومستوراً يسمى بـ«الجنين» وجمع الجنين هو أجنّة وكلمة أجنّة لا تفيد جمع الجن (الموجودات الغيبية). يقول الله: **﴿وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم﴾**[1]. أما الجن بمعنى الموجودات الغيبية فلأنها مستورة ولا ترى بالعين المجردة فقد أخذت هذا الاسم أيضاً. ويقال للدرع أيضاً باعتباره يغطي الرأس «جُنّة». ويسمى القلب كونه عضواً مغطى داخل الجسم بـ«الجَنان». و«المجنون» هو الشخص الذي ذهب عقله واختفى.

﴿جَنَّ عليه الليل﴾ أي غطّى الليل كل شيء وجاء بالظلام. وفي أول الليل رأى ابراهيم عليه السلام كوكباً فقال هذا ربي. والرب هو المالك والمدبر وقد افترضه النبي ابراهيم رباً لأن البعض آنذاك كانوا يعتبرون ذلك الكوكب رباً ويعبدونه بصفته إلهاً، وعندما غاب ذلك النجم في جانب الغرب قال انني لا أحب من يطرأ عليهم الغياب والأفول **﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾**.

إن الآفل والغائب لا يمكن أن يكون محبوباً. بعد غروب ذلك الكوكب ظهر القمر من جانب الشرق فقال عنه ابراهيم عليه السلام إنه ربي **﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾**[2]، وحين مضى مقدار من الليل وغاب

---

(١) سورة النجم، الآية (٣٢).

(٢) سورة الانعام، الآية (٧٧).

القمر نتيجة لذلك ﴿قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾[1] .

عند الصباح وبعد أن غابت الكواكب وجاء دور الشمس طلعت على الآفاق فقال النبي هذا ربي ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾[2] إن إشراق ونور الشمس أكثر من سابقاتها، إذن فهذا هو ربي ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[3] .

انكم تحسبون هذه الأشياء رباً، والحال أن الربوبية لرب العالمين. إن هذه الأشياء ليس لها نصيب من الربوبية، لأن الربوبية تتناقض مع الأفول والغروب والفناء.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[4] إنني وجهت وجهي للذي لم يخلق هذه الموجودات الجزئية فحسب، بل إنه فطر كل نظام الطبيعة. انه لم يخلق الموجودات الجزئرية من المادة الأولية فحسب بل إنه فطر وصنع المادة والنظم ابتداء وشق ستار العدم وأوجد الطبيعة. والفاطر أعلى مرتبة من الخالق ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

إنني لن أشرك برب العالمين أحداً ولن أفتح الربوبية الخاصة بالفاطر لآخر أو لآخرين.

إن علاقة هذا البرهان ببحثنا أن النبي ابراهيم عليه السلام جعل المحبة حداً وسطاً في هذا البرهان وقال؛ إن الرب هو من كان محبوباً والآفل الغائب لا

---

(١) سورة الانعام، الآية (٧٧).
(٢) سورة الانعام، الآية (٧٨).
(٣) سورة الانعام، الآية (٧٨).
(٤) سورة الانعام، الآية (٧٩).

يمكن أن يكون محبوباً، إذن فالآفل ليس برب وحين قال الخليل ﴿لا أحب الآفلين﴾ فلم يكن يقصد النجوم فقط بل يريد بذلك كل ما يقبل الأفول.

ولكن لماذا لا يمكن أن يكون الآفل محبوباً؟ ولماذا ينبغي أن يكون الله هو المحبوب؟ لأن الأنبياء لا يثبتون الله كفرضية أو بحث نظري يابس وكذلك لا يأخذون جانب الحكمة النظرية المحضة في معرفة الرب فيقررون أن للعالم رباً، بل إن الأنبياء يقدمون التوحيد للناس الى جانب التربية، فيطرحون الرب للبشر كونه محبوباً ويشرحون العلم بوجود الله لهم مضافاً الى الايمان.

الرب هو من يلجأ اليه الانسان في أموره، ومن يشكره الانسان ويثني عليه إذا حلّت به نعمة، ومن يتعزّى به عند المصائب. ان العبد يقيم هذا الارتباط العشقي مع الله، وهذا هو معيار المحبة. إن كان للمحب شأن عرضه على محبوبه. وإذا وصلته آثار المحبوب شكره وإن حلّت به مصيبة طلب رفعها من المحبوب واطمأن بذلك.

يجب أن يكون الله محبوباً بمعنى أن على الروح أن تودع حب الله في داخلها فقط. لهذا فالمحبة لا تنسجم مع الغروب، لأن الكوكب وما سواه من الموجودات سواء كان سماوياً أو غير سماوي، وسواء كان صنماً أو غير ذلك إذا غاب وانقطعت علاقته بالانسان لا يمكن أن يطلب منه شيء ولا يمكنه أن يفيض شيئاً على الآخرين. عندما تزول علاقات إحدى الظواهر السماوية نتيجة لغروبها فلن يعود هناك أي من آثار المحبة لها، إذن فستزول المحبة أيضاً.

ليست ثمة محبة بين الانسان والشيء الزائل، إن ما كان موجوداً تارة

وغير موجود تارة أخرى لا يجدر بالحب. وإن أحب الانسان بفعل وساوس النفس أو الشيطان شيئاً سوى الله كان حبه باطلاً وكاذباً وكان صاحب الحب مخطئاً وضالاً. فحبه حب كاذب وهو في ذلك كالمريض الخارج تواً من غرفة العمليات ويحس بالعطش، فعطشه كاذب ولا يسمح الطبيب المعالج باعطائه الماء.

إن عقد الانسان حبه مع غير الله فحبه كاذب، لأن ما عدى الله مهما كان ومن كان لا بد انه غائب وفان، ولأن علاقة الحب تنفصم بموت وغروب المحبوب الظاهري، لهذا لا يمكن استمداد العون والمساعدة من ذلك الميت الغائب ولا يمكن عرض شيء عليه، ولا يستطيع هو أن يفيض بشيء.

إذن محبة غير الله محبة كاذبة ولا تحل مشكلة للمحب ولا تبعث في نفسه النشاط. ومن جانب آخر لا يتمكن الانسان أن يحب الله ويحب غيره. لأن الانسان ليس حقيقتين ولا يمتلك نفسين أو قلبين.

يقول الله في سورة الأحزاب: **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**[1] ليس للمرء الواحد قلبين أو مقرّين للفكر والعقيدة. لكل انسان قلب واحد ومقر فكري واحد، وإن ملأت محبة غير الله هذا المقر لم يعد ثمة مكان لمحبة الله. إن أظمأ المرء نفسه بالعطش الكاذب لن يكون مكان للعطش الصادق. إن بيت القلب لا يتسع لحب الله ولحب غيره. وإذا أسلم شخص أموره لسوى الله بصفته رباً ومال إليه فقد حلّ به أسوأ ظلم وظلام.

يقول الله سبحانه في سورة لقمان **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾**[2] وقال

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤).
(٢) سورة لقمان، الآية (١٢).

في سورة البقرة: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾[1] عليه فقد حظي لقمان بخير كثير، ولا شك أن الشيء الذي يصفه الله بالخير وبالكثرة لا بد أن يكون أفضل وأحسن النعم. إذن فقد حاز لقمان على أفضل النعم.

يقول القرآن في معرض شرحه لكلمات الحكمة عند لقمان: ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله**﴾[2] فمن الحكمة أن نعتبر النعم كلها من الله ونشكره عليها وأن نعلم أن الشكر يعود بالفائدة على أنفسنا لأن الله غني محض ﴿**ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد**﴾[3].

إذا كفر شخص النعمة ولم يستخدمها في محلها ولم يقدرها حق قدرها ولم يشكر المنعم عليها ولم يقدرها حق قدرها ولم يستفد منها ولم يثنِ على المنعم ليعلم أن الله محمود وغني بذاته، إن هذا الذي يكفر النعمة لم يظلم الا نفسه.

﴿**وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾[4]. إذا رسخ الشرك (وهو الاعتقاد بغير الله أو عدم الاعتقاد) في القلب، فقد انفصل الانسان عن المحبوب الحقيقي. ومن كان حبه لغير الله ومال اليه كان في ضيق على كافة الأصعدة. لأن غير الله لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولا يعلم مثل هذا الانسان ممن يطلب النعمة ولا يدري مع من يناقش مشاكله ولا يمتلك من يلجأ اليه في الملمات الصعبة ليدخل السكينة الى قلبه

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٦٩).
(٢) سورة لقمان، الآية (١٢).
(٣) سورة لقمان، الآية (١٢).
(٤) سورة لقمان، الآية (١٣).

لأن سبب الاطمئنان الوحيد هو ذكر الله **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[1] .

لهذا يقول القرآن أن الانسان غير الموحد كالعالق في الفضاء المفتوح لا يمتلك ما يعتصم به ويركن اليه **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء﴾**[2] . فمثل هذا الشخص إما أن يصير طعاماً للشواهين والصقور في الهواء أو يأخذه الأعصار الى قاع الهاوية ويحطّمه **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[3] .

يطرح ابراهيم الخليل عليه السلام التوحيد الربوبي جاعلاً المحبة والميل حدا وسطا فالله ما كان محبوباً وما غاب فليس محبوب، إذن فما غاب ليس برب أو إله.

يستنتج الشاعر النظامي المسائل التوحيدية في خماسيته ضمن كتاب ليلى والمجنون من خلال قصصه وأساطيره. ويقول أن ليلى حين مرضت نادت أمها الى مضجعها للوصية وقالت لها: أخبري المجنون أن إذا أراد الحب واحياء العشق بداخله فلا يتعلّق بأمثالي ممن يفقدون كل ما لديهم بمجرد المرض، ان كان في الماضي يحبني فان حبه كاذب، فليحبب من لا يفنى أبداً وليرتبط به.

الانسان الذي يخسر كل ما لديه بسانحة بسيطة ويسقط في فراش المرض بانتظار الموت، لا يجدر بالمحبة. وان كان هذا حال الانسان فما هي حال الجمادات والأشياء الأخرى.

---

(١) سورة الرعد، الأية (٢٨).
(٢) سورة الحج، الأية (٣١).
(٣) سورة الحج، الأية (٣١).

دخل ابراهيم الخليل عليه السلام عن طريق المحبة وهذه علامة رؤية الملكوت، أي ان الانسان اذا نظر في ملكوت العالم طبقاً لما جاء في سورة الأعراف لوصل الى هذا الفيض وفهم ان المحبة أساس الحياة ومعرفة العالم، ويجب ان تخصص هذه المحبة للمحبوب الأزلي، ويعلم كذلك أن عليه الحياة بالمحبة وأن الله هو حبيبه فقط.

ورد في دعاء ابي حمزة الثمالي في أسحار شهر رمضان المبارك «اللهم أخرج حب الدنيا من قلبي» ويقول الامام السجاد عليه السلام في أدعية أخرى «من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً»[١] أو «اللهم أذقني حلاوة محبتك»[٢] والكثير من مثل هذه الأدعية، إذا بدأ المؤمن مسيرته ونظر في الملكوت لكان ممن تناولتهم الآية **﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾**[٣].

بقي موضوع دقيق يجب أن لا نتجاوزه وهو هل إن هذا الاستدلال قد طرح من قبل النبي ابراهيم عليه السلام لنفسه أم جاء من باب المماشاة والمجاراة وجدالاً بالأحسن مع قومه؟ يعتقد البعض أن ابراهيم الخليل الذي كان قد خرج لتوّه من الغار ورأى هذه المناظر قد طرح هذه الافتراضات كدراسة واستدلال بينه وبين الله وليس في هذا نقص ولم يأتِ في حق النبي ابراهيم عليه السلام ما جاء في حق عيسى ويحيى عليهما السلام من أنهما أوتيا الحكمة والحكم في الصبى **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾**[٤] فقد جاء مثل هذا الوصف بالنسبة للنبي عيسى ويحيى ولم يأتِ بالنسبة لابراهيم الخليل عليه السلام. وإن

---

(١) مفاتيح الجنان، مناجاة المحبين.
(٢) مفاتيح الجنان، من دعاء اليوم الرابع من شهر رمضان.
(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٥).
(٤) سورة مريم، الآية (١٢).

كان الخليل قد تناول هذه الأسئلة بينه وبين ربه كدراسة من أجل الوصول الى الملكوت فليس في هذا أي نقص.

لكن ما قدّمه الأستاذ العلامة الطباطبائي (ر ض) في تفسير الميزان هو أن ثمة دليلين على أن الخليل قد طرح هذه التساؤلات كمجاراة ومماشاة وجدال بالأحسن مع قومه لا بينه وبين ربه، لأنه كان متمتعاً بالملكوت بينه وبين ربه.

جاء في موسوعاتنا الروائية أنهم سألوا الامام الثامن عليه السلام عن براهين النبي ابراهيم عليه السلام هذه وعن تناقضها مع عصمة الأنبياء فأجابهم الامام ان ابراهيم عليه السلام ذكر ذلك لقومه لا لنفسه. والدليل الثاني هو آيات سورة مريم، فمن تلك الآيات يستفاد بوضوح أن النبي ابراهيم كان عالماً بهذه القضايا بفطرته الإلهية والملكوتية. فبمجرد أن خرج الخليل من غاره ودخل المدينة ورأى قومه يعبدون الأصنام قال ما جاء في الآية: ﴿**إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾[1].

فهو في أول لقاء له مع عبدة الأصنام قال ببطلان هذه العبادة وأنه يعلم ما لا يعلمون وأن الله وهبه ما لم يهبهم فأطيعوني وأصغوا لكلامي. بمجرد أن وجد الوثنيين يعبدون الأصنام سواء كانت الأصنام من الخشب أو كانت كواكب قال إن الله أعطاه شيئاً لم يعطهم إيّاه واستطرد بكل عزم:

﴿**يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾ بمعنى أن ما

(١) سورة مريم، الآية (٤٢، ٤٤).

تعبدونه هو الشيطنة، ثم ذكر ما يثبت أن سبيلهم سبيل الشيطان، فالشيطان هو الذي علمكم عبادة هذه الأصنام والكواكب وما شاكل وينبغي عليكم ان تطيعوا وتتبعوا العلم الذي أعطانيه الله.

ربما أوردنا بحثاً قصيراً عن هذا الموضوع في المحاضرات اللاحقة بعون الله. وعلى كل حال فما كان يملكه الخليل ابراهيم عليه السلام هو الفطرة البصيرة بالملكوت وما استدل به في سورة الأنعام جاء بعنوان الجدل بالأحسن والمماشاة مع قومه.

على أمل أن نوفّق جميعاً لرؤية الملكوت وللمعرفة الحقّة والمحبة الصادقة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس العشرون

التوحيد والمحبة

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

يطرح التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم من خلال معيار المحبة والاندفاع الباطني وليس بمعيار عقلي نظري واستدلال جاف. إن الفرق بين القرآن والكتب الفلسفية هو أن القرآن وبسبب كونه نوراً وهدى وشفاء لكل أمراض الروح فانه يتناول القضية النظرية الى جانب الاندفاع وتربية النفس، ليذكّر بالعلم عن طريق العمل. من هنا وكما اتضح في المحاضرة الماضية كانت المحبة هي الحد الوسط في البرهان التوحيدي عند النبي ابراهيم الخليل عليه السلام.

قال الخليل انني ﴿لا أحب الآفلين﴾[1] في مجال بحثه عن التوحيد الربوبي وتحديده لرب الانسان. فيجب أن يكون الرب محبوباً ولا يقبل

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٦).

الغروب والزوال، والزائل لا يمكنه أن يكون محبوباً، إذن كل ما هو زائل وقابل للغروب ليس برب. ويمكن أن نرتب القياس المنطقي لهذه القضية بالشكل الآتي: يجب أن يكون الرب محبوباً، وكل ما يزول لا يجدر بالمحبة، إذن كل ما يزول ويغرب لا يجدر بالربوبية.

وهنا بحث عميق حول؛ هل إن الحد الوسط لهذا الاستدلال هو الحركة أم المحبة؟ ما يستنتجه صدر المتألهين (رض) من هذه الآيات هو برهان الحركة. وما يعتقده الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض) في تفسير الميزان هو انه طريق المحبة. وثمة فرق فلسفي دقيق بين هذين الفهمين، خارج عن دائرة موضوعنا لهذا اليوم. ولكن سواء كان الصواب ما ذهب اليه صدر المتألهين وفهمه أو ما ذهب اليه الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض)، فان معيار المحبة لا يخلو من التأثير. الله ما كان محبوباً وجديراً بالمحبة، ولا شيء سوى الله عز وجل يستحق المحبة، وبهذا فما من موجود غير الله وغير رب العالمين هو أهل للربوبية.

يسعى القرآن أن يربط الانسان بربه بأواصر المحبة. وتتجلى العقيدة التوحيدية لكل انسان من خلال محبته، فان كان الانسان لا يحب سوى الله شيئاً من نفسه أو من ماله أو من علاقاته الدنيوية، كان موحداً كاملاً. وإن وقع في حب شيء سوى الله ولكن بأمر من الله وطاعة لله فان محبته هذه ليست أجنبية. واذا لم يقع في حب أي شيء أجنبي بما هو أجنبي عدا الله فان توحيده كامل. وبمقدار ما يسقط في محبة غير الباري سوف ينقص من توحيده الخالص وبالتالي سيحرم من الدين الخالص فالدين الخالص من الشوائب لله.

جاءنا عن الامام السادس عليه السلام انه قال: «هل الدين إلاّ

الحب»[1] فالانسان يتبع ما ارتبط قلبه به وما تحكمت محبته في فؤاده. فان تعلق قلبه بنفسه ورغب في هواه وميوله كان محبوبه الهوى والميول وربه الهوى والميول التي تتحكم به ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾[2] وإن تعلق قلبه بغير الله كان ذلك الشيء ربه ومعبوده.

تأتي كل أنواع المحبة الكاذبة هذه نتيجة الوساوس والاغواءات الشيطانية، وان أحب المرء نفسه بفعل الاغواء الشيطاني أو وقع في حب شيء أجنبي على الله ولا يصب في سبيل الله بل يصب في الجهة المخالفة لله فمثل هذا الشخص عبد للشيطان في حقيقته. فسرنا في المحاضرة الماضية الآية القائلة عن لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿**يا ابت لا تعبد الشيطان**﴾[3] إنه الشيطان الذي يأمركم بعبادة الأصنام فيصير بذلك معبودكم وأنتم تطيعون أوامره.

لأن المحبة محور الدين، فان الانسان اذا لم يكن له محبوب غير الله فلن يكون له معبود غيره، وسيكون الله غايته في كل عباداته. وهذا المقام لا يتيسر لكل انسان فالبعض محبوبهم ذاتهم وتوحيد هؤلاء ليس بالتوحيد الخالص وكذلك دينهم وعباداتهم، وربما كانت مقبولة وصحيحة ولكنها غير خالصة.

إن عبادة من يجره خوفه من النار الى العبادة، صحيحة وهي عبادة الله. أو الذي يرغب في الجنة فيعبد الله ويطلب منه أن يدخل الجنة، مثل هذا معبوده الله لا سواه. لكن الذي يكون الله محبوبه ويعبده للقائه هو الموحد

---

(١) سفينة البحار، مادة «حبب».
(٢) سورة الفرقان، الآية (٤٣).
(٣) سورة مريم، الآية (٤٤).

الخالص.

جاء عن الامام السادس عليه السلام ما مضمونه: نحن لا نعبد الله الا حباً به وهذا ليس مقدورا لأي كان. [مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون][1].

ما لم يرتق الانسان فلن ينال هذا المقام المكنون ورقي الانسان يحتاج الى قداسة روحه وطهارتها. الروح الطاهرة تستطيع أن تسمو وتجفو النشأة الطبيعية، وإذا سمت على عالم الطبيعة استطاعت أن تنال ذلك المقام المكنون.

لأن المحبة هي معيار التوحيد، تسعى الآيات القرآنية أن تجعل هذه المحبة لله بصورة مباشرة، فتطرد المحبة لسوى الله ليبقى القلب وعاء لحب الله وحسب. وتحاول أيضاً أن لا يكون القلب وعاء لحب الله بالاضافة الى حب سواه بل أن يكون الفؤاد مسرحاً لمحبة الله وحده، فلا يكون لغير الله ولا يكون مقدار منه لله والمقادر الآخر لغيره، لأنه **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**[2] بل ان يكون القلب خالصاً لله.

من أجل هذا يصدر القرآن بعض الأوامر، فيجب على الانسان أولاً أن يحاول انتزاع محبة غير الله من قلبه ويقول ان كل آفل لا يستحق المحبة وكذلك كل ما يفتقد ويزول. لأن المرء اذا ارتبط قلبياً بشيء قابل للزوال يجب أن يتوقع ألم فقدانه، لأن ذلك الشيء لا بد أن يزول وعندها ستبقى محبته بينما هو أي المحبوب غير موجود وفي ذلك مدعاة للألم. كل تعلق بشيء غير موجود يسبب الألم والحرقة.

---

(١) تفسير الميزان، المجلد الأول، ص ٣٧و٣٨ حيث الحديث مذكور بنصه.
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤).

يواجه البعض الضيق عند الموت وبعده لأنهم متعلقون بالدنيا والدنيا ستخرج من أيديهم عند الموت بينما يبقى حبها في قلوبهم وفي ذلك عذاب وألم شديدان. فهم كالانسان المدمن إذا سلبوه ما أدمن عليه ولم يسلبوه ادمانه، فحين زال موضوع الادمان سبب الألم للمدمن. عندما يعتاد المرء على شيء معين ثم يؤخذ منه ما اعتاد عليه وتبقى العادة ستسبب له عذاباً شديداً.

تظهر هذه المضايقات والآلام بعد الموت، لهذا يحاول القرآن أن لا يتعلق الانسان بسوى الله. وهذا أول طرق التعليم والتربية الدينية.

إذا أراد الانسان أن يعيش بسعادة عليه أن يرتبط ويتعلق بشيء لا يفنى وإن أحب وهوى شيئاً لا يستطيع أن يوفره وارتبط فؤاده به عندها سيواجه المشقة. لكن ما نهي عنه واعتبر خطيراً هو محبة الفاني وليس امتلاك الأموال. ان الملك الذي لا يفرح بامتلاكه الانسان ولا يحزن لذهابه ليس بالملك المذموم. ولا ضرر في المال الحلال الذي لا يسرّ مجيئه الانسان ولا يحزنه ذهابه، وامتلاكه لا يتنافى والزهد. **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[1].

وان تعلق الانسان بشيء، فان الدين الإلهي يأمره ببذل هذا المحبوب الباطل في سبيل المحبوب الصادق والحقيقي، يقول القرآن ان أردتم أن تصلوا لذلك المحبوب الحقيقي وان تدخل المحبة الصادقة قلوبكم، فيجب ان تفتدوا هذا المحبوب الظاهري في طريق المحبوب الحقيقي **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما**

---

(١) سورة الحديد، الآية (٢٣).

تحبون﴾[1] .

من المستحيل أن تنالوا مقام البر والحسنى إن لم تنفقوا مما تحبون في سبيل الله وتقطعوا العلاقة معه. لا تقولوا أننا تحملنا المشاق في سبيل العلم الذي تعلمناه، إن كان هذا العلم محبوبكم فعلّموه الآخرين لمرضاة الله.

ان العالم الذي يحاول أن يطرح نفسه مع العلم إنما يسد الطريق امام نفسه وهو ما يزال غير خالص، ويشبه المياه المعدنية غير الصافية التي تنبع من العيون، ولأنها مختلطة بالرسوبات المعدنية فلا تستطيع أن تصل الى مكان معين وتتسرب الى الأرض في محلها.

اما الماء الزلال فله عدة خواص:

أولاً: انه يشق الطريق أمام نفسه ويصنع الأنهار.

ثانياً: انه يروي كل ما يمر به في مسيره وطريقه.

ثالثاً: انه يصب في مركزه الأصلي وهو البحر، وهذه علامة الصفاء والزلال والعذوبة. لكن الماء الحاوي على الرسوبات وغير الزلال والعذب والصافي فهو يسد الطريق على نفسه أولاً لأنه يحمل معه الرسوبات. في المناطق الجبلية حيث توجد الينابيع الرسوبية تلاحظ تلال من الأحجار التي صنعت حديثاً، فهذه المياه الرسوبية تسد الطريق على نفسها أولاً. وهي لا تسقي النباتات الخضراء حولها بل تعمل على تجفيفها، وهي لا تعجز عن فتح الطريق فحسب بل تسد الطريق ولا تعجز على الوصول الى البحر فقط بل تتحجر في مكانها وهذه خاصية عدم الخلوص.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٢).

إذا كان العلم صافياً وخالصاً وزلالاً وعذباً فسيفتح الطريق لنفسه بالاضافة الى انه يفيد كل من يسير في هذا الطريق بالاضافة الى انه يصب في أصله وهو بحر العلم الإلهي. وهذه خصوصية العلم الخالص. لكن العلم المشوب بالرياء وبتظاهر العالم والأهداف الباطلة الأخرى فانه أول ما يسد الطريق على نفسه.

إن هذا العالم قد أضلّ الطريق وبدل ان يرى الله تراه يرى نفسه. وبدل ان يهدي الآخرين تراه يغويهم. وعوضاً عن أن يصل بنفسه وبالآخرين الى الغاية فانه يضل الجميع وسط الطريق وبدلاً عن اروائه للغير يعمل على جفافهم وهذه خصوصيات العلم غير الخالص. لذلك فان جيفة ورائحة العالم غير العامل الكريهة تعذّب حتى أصحاب الجحيم، وفي الدنيا كان مضراً أيضاً. اذا اكتسب الانسان علماً وكان ذلك في سبيل الله فيجب عليه استخدامه في سبيل الله أيضاً. ان احتكار العلم واعتباره غاية لا وسيلة والامتناع عن نشره أو نشره بتفاخر ورياء، لا يؤدي الى فتح السبيل بل الى سدّها.

وهكذا ان حصل الانسان على المال. اذا اكتسب المرء مالاً حلالاً وأنفقه في الحلال كان شأنه كالينابيع الفوّارة الخالصة ذات المال الزلال التي تفتح الطرق وتصل الآخرين بالخير وتعود الى مصدرها الأصلي. وبغير هذا فستخنق الآخرين ولا توصل الخير اليهم وتسد الطريق على نفسها وعلى الغير وتصير على شكل أحجار متراكمة لا يمكنها الحركة.

إن القرآن ومن أجل أن ينشّط المحبة والاندفاع عند الانسان وهما ملاك انسانيته، يقول له انك حيّ بالمحبة واعلم ان عليك الحذر من خطر

المحبة الكاذبة، والعيش في ظل المحبة الحقيقية والسبيل الى ذلك ان تهدي كل ما عدا الله خالصاً لله لتحظى بالمحبة الواقعية **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**.

يقول المرحوم الفيض الكاشاني (رض) في تفسير الصافي انه جاء في بعض الروايات الأمر بقراءة «ما تحبون» بدل «مما تحبون» أي أن تنفقوا كل ما تحبون وتتجاوزوا عنه فلا تعود القراءة **﴿تنفقوا مما تحبون﴾** بل «تنفقوا ما تحبون».

وعلى هذا الأساس فان انفاق الأغذية القديمة والألبسة القديمة والأحذية البائدة على الآخرين لا يحل من المشكلة شيئاً. لهذا كانت سيرة الأئمة القيمة انهم اذا بسطوا المائدة طلبوا وعاء فارغاً وملأوه بخير ما في المائدة ثم أمروا أن يصل هذا الطعام الى أهله، لأنه ينبغي ان التنازل عن المحبوب لا عن الفتات المتبقي على المائدة.

كان الامام الثامن عليه السلام خلال قيامه بهذا العمل الصالح يردد هذه الآيات من سورة البلد: **﴿فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة﴾**[1]. ان هؤلاء ما زالوا يسيرون في الهضاب الواسعة ومثل هذا الانسان لا يستطيع ان يرى شيئاً لأنه ما يزال على سفح الجبل ويجب عليه ان يطو هذه الكتل المرهقة ويصل الى قمة الجبل لتتسع دائرة رؤيته ويعلم ما الخبر. ان انفاق هذه الأغذية البائتة كالمشي في السهول. وانفاق الأغذية الطازجة هو اجتياز لصدر الجبل وصخوره ووصول الى قمته. يقول القرآن: اجتازوا العقبة والصخور.

---

(١) سورة البلد، الآية (١١و١٢).

ليس القرآن كالكتب الفلسفية التي تتناول القضايا التوحيدية بصورة نظرية جافة. بل انه يطرح التوحيد وهو قضية نظرية برفقة المحبة والاندفاع وهما أمران عاطفيان ينتميان لحدود العقل العملي. انه يمزج هاتين القضيتين مع بعضهما ويقدمهما كشراب عذب للانسان.

عندما يعطي القرآن معنى الاحسان والبر فانه لا يفعل ذلك على غرار الكتب الاخلاقية التي تعرّف الاحسان فقط بل انه يعرّف بالمحسنين أيضاً ويقول: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾**[1]. إن القرآن يذكر صفات المحسنين في معرض تعريفه للاحسان، لأنه لا يريد ان يعرّف الاحسان بل يحاول ان يصنع المحسنين.

ان القرآن لا يعتبر الطيبة مهمة، بل يعتبر الطيبين مهمين. ليس المهم تعريف الاحسان، المهم تربية المحسنين. ليس المهم معرفة الاحسان، المهم تحديد المحسنين. يعرّف القرآن المحسنين ضمن تعريفة للاحسان. وان قال: «لكن البر» فانما أراد أن يبدأ الكلام بتعريف البر ولكنه قال **﴿من آمن بالله﴾** وبهذا تناول الأبرار.

ويقول كذلك في سورة آل عمران **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** فالانفاق من أجل تقليص هذه المسافات. أي ان الذي تمتع بالنعمة عن طريق الحلال يجب ان لا يتفاخر ولا يتظاهر بنعمته ولا يحتكرها لنفسه والذي حرم منها يجب أن لا يحزن ويأسف.

أما الذي اكتسب ماله بالحرام فهو خارج نطاق كلامنا، لأن انفاقه غير

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٧٧).

مقبول ويجب عليه اعادة الأموال الى أصحابها. والذي لا يمتلك ما ينفقه خارج عن حدود كلامنا أيضاً. فكلامنا عن الذي يتوفر لديه المال بالسبل المشروعة. والا فلا فائدة في انفاق المال الحرام، لأنه ليس ملكاً للمنفق ليمنحه للآخرين، بل انه مال الغير ويجب ارجاعه لهم.

يقول القرآن انكم ان اكتسبتم مالاً حلالاً وكان هذا المال محبوبكم فلن تنالوا مقام الأبرار حتى تنفقوا محبوبكم هذا فداء لمحبوبكم الحقيقي وتعلمون ان ﴿**ما تنفقوا من شيء فان الله به عليم**﴾ فالله عليم بما تنفقون ومقدار ما تنفقون ولن تنفقون وبأية غاية وما ستفعلون بعد الانفاق.

وقد شرح الله قوانين الانفاق بصورة عميقة ومدروسة في سورة البقرة، فعلى من يكون الانفاق وفي أي سبيل، يجب ان يكون الانفاق خالياً من الرياء والمنة والأذى وأن يكون في سبيل مرضاة الله وتركيز الواقع الايماني لديكم. وان وصلنا الى ذلك الموضع سنتناول هذه المراحل الخمس أو الست التي حددها القرآن للانفاق، ان شاء الله.

ان أفضل محبوب للانسان هي روح الانسان. فالانسان يحب نفسه ولا يريد ما يريد الا لنفسه. اذن فأعز محبوب هو حياة الانسان. وان كان يحب المال والعلم وما شابه لأنها تعود بالفائدة على حياته. ويجب ان يقدم هذا المحبوب أيضاً فداء للمحبوب الحقيقي.

ان أعز محبوب لذلك المجاهد في سبيل الله الذي وضع روحه على كفه، هو عمره وهو يفدي هذه الروح وهذه الحياة في سبيل المحبوب الحقيقي. يقول القرآن؛ لا تتوقعوا ان تدخلوا الجنة بسهولة. انكم ما لم تجتازوا المحن التاريخية التي تهز المجتمع البشري بنجاح فلن تدخلوا

الجنة.

ويقول في سورة آل عمران؛ انكم لن تنالوا مقام المحسنين والأبرار ما لم تنفقوا المحبوب في سبيل الله. ويقول في سورة البقرة؛ لا تتصوروا ان الجنة ستوزّع كما تشتهي ظنونكم **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾**[1].

نزلت هذه الآية في المدينة المنورة. كان المسلمون في المدينة يتمتعون بنعم خاصة. كانوا معاصرين للرسول الأكرم ﷺ ويفيدون من كلامه الحكيم. كانوا يؤدون الصلوات الخمس خلف أفضل امام في العالم وهو النبي محمد ﷺ وكانوا يؤدونها في مسجد المدينة وهو أفضل مسجد على وجه الأرض بعد المسجد الحرام، لهذا كانوا فرحين جداً ويقولون أننا نؤدي الصلاة في أفضل مسجد بعد المسجد الحرام، خلف نبي الاسلام ونجلس تحت منبر الرسول لسماع كلامه والاستفادة من مواعظه ونشد على يده المباركة أثناء المصافحة، فأي سعادة فوق هذه؟!.

نزلت هذه الآية في تلك البرهة من الزمن وسط ذلك الجمع من الناس، ان لا تتصوروا هذه الأمور تفتح لكم الطريق الى الجنة، بل يجب ان يمر عليكم ما مر على الذين خلوا، يجب ان تصيبكم زلزلة اجتماعية ومن خرج بنجاح من هذه الزلزلة كان من أهل الجنة، يقول: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾**.

وكان ما مر على الذين خلوا أنهم **﴿مستهم البأساء والضراء**

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٤).

وزلزلوا﴾[1] لقد واجهوا من المصاعب والمشكلات والخسائر والأضرار والجروح ما تركهم في زلزال. في بعض الأحيان ترتجف أرضية حياة المجتمع الانساني وهذا بدوره زلزال، يقول القرآن: ما لم تتزلزل أرضية المجتمع وأسسه، وما لم يتمحص الأفراد وما لم تضطرب ظروف الحياة في الأمة بحيث تصيبها الحيرة والدهشة، ثم يتبين الخلص في هذه الحوادث الامتحانية، فلن يكون ثمة جماعة هم أهل النجاة.

ان المجتمع يتزلزل بالفقر والمشاكل والخوف والحزن وما شاكل ذلك بل انه يتزلزل الى درجة ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾[2] . فالرسول يتساءل عن موعد نصرة الله من باب الاستدعاء، والأمة والناس تتساءل من باب الاستبطاء. يقولون اللهم أعنّا، لم لم تعنّا؟ إن الرسول ينادي ﴿متى نصر الله﴾ بعنوان الدعاء والناس تنادي بعنوان الانتظار، ان لماذا لم يأتِ نصر الله لحد الآن؟

ثم يعبر القرآن بتعبير أثقل من السابق ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾[3] ان شدة الزلزال الاجتماعي وصعوبة وإرهاق الامتحان الإلهي الى درجة بحيث من الممكن ان يقطع الرسل الالهيون أملهم بالمعونة الالهية الفورية، لا من رحمة الله، لأنهم على أمل برحمته. لا الأمة ولا الامام في يأس من رحمة الله تعالى، ولكنهم يائسون من العون الإلهي العاجل والحالي ويقولون ان المصلحة تقتضي هكذا زلزال واضطراب في أرضية المجتمع والأمة الاسلامية. فلا ينجو إلاّ اليقظون والصّابرون والمتمرسون بالصراط

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٤).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢١٤).
(٣) سورة يوسف، الآية (١١٠).

المستقيم، ليكونوا من أهل الجنة ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾.

يقول في آخر الآية: ﴿ألا إنَّ نصر الله قريب﴾. ان لم يتزلزل الانسان في هذه الحالة ولم يركن الى الشرق او الغرب ولم يركن حتى الى نفسه وطوى العمر وهو أثمن بضاعة لدى الانسان بالصمود والاستقامة وقدّمه قرباناً في سبيل المحبوب الحقيقي عن اخلاص وصفاء وكان مستعداً للفداء دائماً، فلسوف يصل الى تلك المحبة التي تشكل أساس الدين. لأن بامكان تلك المحبة فقط وهي محبة الله ان تفتح السبل أمام العبد وتخلق الأواصر بينه وبين ربه، فالله هو المحبوب الحقيقي ومحبة المحبوب الحقيقي أساس الدين.

يذكر الله في سورة آل عمران ما يشبه قوله في سورة البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ فيقول في تلك السورة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[1] بمعنى أن الامتحان لم يجرِ لحد الآن ولم يتضح لله من هو المجاهد والصابر والمنافق واليائس، فانكم انما تحملون الأمل في الجنة كرغبة ساذجة في رؤوسكم. ان العلم هنا هو العلم الفعلي لله، لأن العلم الفعلي هو المقصود في الامتحانات العملية وليس العلم الذاتي.

ان الله بداية عالم ذاتاً بكل الموجودات وأحوالها وصفاتها قبل أن يضع شخص قدمه في العالم «عالم اذ لا معلوم» وهذا هو العلم الذاتي لله تبارك وتعالى. وأما العلم الفعلي لله، فهو من صفاته العملية، والصفات العملية

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٤٢).

تنتزع من مقام الفعل لا من مقام الذات، وعليه لأن هذا العلم المستخدم في قضية الامتحان من الصفات العملية وقابل للحدوث فانه لم يكن ثم كان وذلك يشبه قوله في الآية الكريمة: ﴿**ليميّز الله الخبيث من الطيب**﴾[1] وما شاكل. ففضلاً عن أن باطن الأشخاص سيتضح أثناء الامتحان فان هذا العلم الفعلي سيتثبّت أيضاً، وما لم يتضح الصابر من الجازع، والمجاهد في سبيل الله من المنافق، والثابت من المتزلزل، فانه لن يهتدي البشر على طريق الجنة مطلقاً.

عندما يتناول القرآن الكريم في سورة الأحزاب احدى الحروب الاسلامية يقول؛ ان الحادثة كانت بدرجة من المشقة والصعوبة وكأن المؤمنين الموجودين ابتلوا بزلزال شديد ﴿**اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾[2].

عندما هجم عليكم الأعداء من كل جانب وزلزلتم زلزالاً شديداً، ابتدأ وقتها الامتحان الإلهي، اي ان المجتمع اهتز بشدة. ان المجتمع يتزلزل بشدة أثناء الثورة ليعلم من هو الصابر؟ ومن المجاهد في سبيل الله؟ ومن المؤمن التابع لنهج الاسلام الصحيح؟ من يتّبع قيادة الامام؟ ومن هم أتباع الرسل الإلهيين؟.

ينبغي على الانسان في مثل هذه الاختبارات التاريخية المهمة أن يفدي محبوبه المجازي في سبيل محبوبه الحقيقي، فان كان محبوبه المال فيجب ان يفدي المال، وان كانت الروح فعليه فداؤها، وان كانت الارتباطات

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣٧).
(٢) سورة الأحزاب، الآية (١٠و١١).

الأخرى فعليه انفاقها أيضاً، وما لم ينفق المحبوب المجازي في سبيل المحبوب الحقيقي، لن ينال الانسان مقام الأبرار وإن لم ينل هذا المقام فقد خسر السعادة الأبدية، ويجب أن لا ننسى ان هذا مقام الأبرار فقط وان مقام المقربين أعلى منه. ان لم يصل المرء لمقام الأبرار فهو في مقام الفجّار، لأن كل انسان اما أن يكون ضمن المقربين أو الأبرار أو الفجّار.

إذا أراد شخص الدين من أجل ذاته وأراد الله من أجل نفسه واعتبر ذاته هي المحبوب الحقيقي فان إلهه هواه ومقامه مقام الفجار وان شاء ان يحظى بمقام الأبرار فان الشروط ما ذكرناها.

ورد في حق أهل البيت عليهم السلام انهم **﴿يطعمون الطعام على حبه...﴾**[1] فقال البعض ان هذا الطعام محبوبهم وقد أنفقوه في سبيل الله. ولكن بما أن أهل بيت العصمة والطهارة من المقربين وهم أعلى من الأبرار فيجب ان يعود ضمير «حبه» الى الله لا الى الطعام، انهم لا يرتبطون بالطعام، وهم يمتلكون الطعام ويأكلونه ولكن الطعام ليس بمحبوبهم. ان كل المساعي والجهود من أجل أن نصل الى المحبة الخالصة والمحبوب الخالص، المحبوب الخالص فهو الله ومحبته تكمن في توحيده الخالص.

أدعو الله أن يجعلنا من أتباع النبي ابراهيم عليه السلام وبقية الأنبياء والأولياء الذين قطعوا هذا الطريق وان يمنّ الله بهذه النعمة علينا وهي أفضل النعم.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الانسان، الآية (٨).



الفهرس

